الفصل الخامس

عطاء المعتدلين

وما في عطائهم من إثراء للفكر الإسلامي ومن إفادة للفكر الإنساني العام وأهداف المغالين وغاياتهم وما في غلوّهم من استخفاف بالفكر وامتهان للإنسان

قبل تفصيل الحديث عن عطاء المعتدلين، وأهداف المغالين، لا بدّ لي من التمهيد بما يأتي:

إن الذين آمنوا بقدسيّة النصّ القرآني النبوي، واتجهوا في خدمتهم لهما وفي تأويلهم لنصوصهما إلى تبليغ رسالة الله العامة التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة. بما فيها من تزكية لنفوسهم وتطهير لقلوبهم وتعليم لعقولهم، وصقل لمواهبهم، ومن إنارة لأبصارهم. وتبصير لبصائرهم. وبما فيها من فتح أبواب الهداية والتوجيه أمام قلوبهم وبصائرهم وأبواب الاعتبار بأمثال آي القرآن الكريم أمام مواهبهم، وأبواب الاتعاظ بعبره ومواعظه أمام مشاعرهم وأحاسيسهم.

اتجهوا في خدمتهم وتأويلهم إلى تبليغ هدي رسالة الله، ودستور شريعته التي بعث بها خاتم الأنبياء والمرسلين إلى كافة الناس بجميع مبادئها ومثلها وبجميع أبعادها في مجال العقيدة والهداية والتشريع.

وسندهم في تأويلهم الذي هدفه التبليغ، القرآن أولاً، والسنّة النّبوية ثانياً، إذ بهما أنار الله للإنسان طريق كماله، ومنهما استمدّ المؤمنون استقامة

سلوكهم. ورشد تفكيرهم. وتمام معرفتهم. ووضوح رؤيتهم. ونبل مقصدهم. وشرف غايتهم.

فالمؤمنون بقدسية النص القرآني والنبوي عندما قرأوا وتأملوا وتدبروا قوله تعالىٰ: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾[1].

وقوله: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[2].

وقوله: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكّر أولو الألباب﴾[3].

وقوله: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكّرون قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتّقون﴾[4].

وقوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[5].

وقوله: ﴿ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[6].

وعندما اطلعوا وعلموا صحة ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله: «بلّغوا عنّي ولو آية...»[7].

---

(1) سورة آل عمران آية 164.
(2) سورة يوسف آية 2.
(3) سورة ص آية 29.
(4) سورة الزمر آيتا 27 - 28.
(5) سورة النساء آية 59.
(6) سورة النساء آية 83.
(7) أخرجه البخاري في صحيحه بالإسناد واللفظ التاليين: حدثنا ابو عاصم الضحاك بن مخلد أخبرنا الأوزاعي حدثنا حسان بن عطية عن أبي كبشة عن عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «بلغوا عني =

وقوله: ـ في دعائه لابن عباس ـ: «اللهمّ فقّهه في الدّين وعلّمه التأويل»[1]. وعندما اطلعوا وعلموا صحة ما روي عن ابن عباس وهو يتحدث عمن يعلم تأويل متشابه القرآن فقد أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره ما يلي: حدثني محمد بن عمرو قال: حدثنا أبو عاصم عن عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال: «أنا ممن يعلم تأويله»[2] وصحة ما روي عن عبد الله بن مسعود. فقد أخرج الطبري أيضاً في تفسيره ما يلي:

حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق المروزي قال سمعت أبي يقول حدثنا الحسين بن واقد قال حدثنا الأعمش عن شقيق عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يتجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن[3].

فالمؤمنون عندما قرأوا وتأملوا وتدبروا الآيات المذكورة وما أشبهها من آي القرآن الكريم، وعندما اطلعوا وعلموا صحة ما روي عن رسول الله ﷺ وما روي عن صحابته ـ رضي الله عنهم ـ أدركوا تمام الإدراك وأيقنوا:

أولاً: أن إرسال محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إحسان وإنعام من الله إلى الناس كافة وإلى المؤمنين خاصة.

ووجه هذا الإحسان والإنعام، أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ المبلغ للناس وحي الله الذي ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾، وأنه ـ بهديه ـ المزكي لهم والمكمل لقوّتهم النظرية، وذلك بتوجيههم وإرشادهم إلى المعارف الإلهية، وإلى أخذ المعاني البعيدة من الكتاب بطريق التأويل وإلى التدبر

= ولو آية وحدّثوا عن بني اسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ـ فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج 6 ص 496. نشر المكتبة السلفية.

(1) تقدم ذكره وتخريجه في الفصل الثاني من الباب الأول.

(2) تفسير الطبري مج (3 - 4) ج 3 ص 122.

(3) تفسير الطبري مج 3 ص 27.

والتأمل في أبعاد هديه وتشريعه حتى يعرفوا الحق ذاته، والخير لأجل العمل به، وحتى يقفوا بتروّ ويطلعوا بعمق على محاسن الشريعة وأسرارها وعللها ومنافعها، قال الفخر الرازي : ـ مفسراً ومؤولاً قوله تعالىٰ : ﴿**يتلـو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾ ـ : واعلم أن كمال حال الإنسان في أمرين: في أن يعرف الحق ذاته، والخير لأجل العمل به، وبعبارة أخرى: للنفس الإنسانية قوتان، نظرية وعملية والله تعالىٰ أنزل الكتاب على محمد ـ عليه السلام ـ ليكون سبباً لتكميل الخلق في هاتين القوتين، فقوله: ﴿**يتلـو عليهم آياته**﴾ إشارة إلى كونه مبلغاً لذلك الوحي من عند الله إلى الخلق. وقوله: ﴿**ويزكيهم**﴾ إشارة إلى تكميل القوة النظرية بحصول المعارف الإلٰهية و﴿**الكتاب**﴾ إشارة إلى معرفة التأويل وبعبارة أخرى ﴿**الكتاب**﴾ إشارة إلى ظواهر الشريعة، و﴿**الحكمة**﴾ إشارة إلى محاسن الشريعة وأسرارها وعللها ومنافعها[1].

ثانياً: لتيقّن المؤمنين بأبعاد الرسالة الإسلامية، وجدوا أنفسهم وخاصة العلماء منهم أنهم ـ في حياة الرسول تأييداً له ونصراً وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ـ مطالبون بتبليغ ذلك عنه بطريق التفسير والبيان لما قرب منه وبطريق التأويل لما بعد. جاء في تفسير ابن جرير الطبري ـ متحدثاً عن هذا الموضوع وموضحاً نظره فيه ـ ما يلي: وفي حثّ الله عزّ وجلّ عباده على الاعتبار بما في القرآن من المواعظ والتبيان بقوله جلّ ذكره لنبيّه ﷺ: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكّر أولـو الألباب**﴾ وقوله: ﴿**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتّقون**﴾ وما أشبه ذلك من آي القرآن التي أمر الله عباده وحثّهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن والاتعاظ بمواعظه ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آية، لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله، اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة من القيل والبيان، إلّا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه ثم

(1) التفسير الكبير للرازي مج (9 - 10) ج 9 ص 80.

يتدبّره ويعتبر به فأما قبل ذلك فمستحيل أمره بتدبره وهو بمعناه جاهل كما محال أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلام العرب ولا يفهمونه لو أنشدت قصيدة شعر من أشعار بعض العرب ذات أمثال ومواعظ وحكم اعتبر بما فيها من الأمثال، وأدّكر بما فيها من المواعظ إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلام العرب ومعرفته، ثم الاعتبار بما نبهه عليه ما فيها من الحكم فأما وهي جاهلة بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق فمحال أمرها بما دلّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعبر، بل سواء أمرها بذلك وأمر بعض البهائم به إلا بعد العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها، فكذلك ما في آي كتاب الله من العبر والحكم، والأمثال والمواعظ لا يجوز أن يقال اعتبر بها إلا لمن كان بمعاني بيانه عالماً وبكلام العرب عارفاً، وإلا بمعنى الأمر لمن كان بذلك منه جاهلاً أن يعلم معاني كلام العرب ثم يتدبره بعد ويتعظ بحكمه وصنوف عبره. فإذ كان ذلك كذلك، وكان الله جلّ ثناؤه قد أمر عباده بتدبره وحثّهم على الاعتبار بأمثاله كان معلوماً أنه لم يأمر بذلك من كان بما يدل عليه آيه جاهلاً، وإذا لم يجز أن يأمرهم بذلك إلا وهم بما يدلهم عليه عالمون صح أنهم بتأويل ما لم يحجب عنهم علمه من آيه الذي استأثر الله بعلمه من دون خلقه الذي قد قدمنا صفته آنفاً عارفون وإذ صح ذلك فصدق قول من أنكر تفسير المفسرين من كتاب الله وتنزيله، ما لم يحجب عن خلقه تأويله[1].

ثالثاً: أن القرآن والسنّة النبويّة وجّها العقل ويوجهانه باستمرار إلى الاعتبار والتدبر، وإذا ما التبست السبل أمام أصحابه، وخفي الأمر عليهم ليعودوا إلى القرآن والسنّة، ويردوا إليهما ما التبس عليهم وخفي فيمدانهم برشد التأويل وبسلامة الاستنتاج والاستنباط حيث مددهما لا ينتهي، وعطاؤهما لا ينقطع، قال الله تعالى: **﴿ولو أنّما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله. . .﴾**[2].

---

(1) جامع البيان للطبري ج 1 ص 28 - 29.

(2) سورة لقمان آية 27.

وقال عليه الصلاة والسلام: «اني قد أوتيت جوامع الكلم، وخواتيمه، واختصر لي اختصاراً»[1].

رابعاً: أن التأويل المؤدي إلى معرفة المراد من النصّ، والمعين على تبليغ هدى الله ورسوله إلى الناس، وبتوضيح ما خفي عنهم، وبتجلية ما غمض أكيد وواجب على علماء المسلمين الراسخين في العلم، فهم مطالبون بالقيام به، وبتبليغ معطياته ونتائجه حتى لا يحرم الناس من عطاء القرآن الكريم، ومن عطاء السنّة النبوية الشريفة، وفي توضيح وتجلية عطائهما إثراء للفكر الإسلامي، وإفادة عظمى هادية ومبصرة للفكر الإنساني، قال الله تعالىٰ: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننّه للناس ولا تكتمونه**﴾[2].

جاء في تفسير الفخر الرازي ـ تحت عنوان (المسألة السادسة) ما يلي:

اعلم أن ظاهر هذه الآية وإن كان مختصاً باليهود والنصارى فإنه لا يبعد أيضاً دخول المسلمين فيه، لأنهم أهل القرآن وهو أشرف الكتب. حكي أن الحجاج أرسل إلى الحسن وقال: ما الذي بلغني عنك؟ فقال: ما كل الذي بلغك عني قلته، ولا كل ما قلته بلغك، قال: أنت الذي قلت إن النفاق كان مقموعاً فأصبح قد تعمم وتقلّد سيفاً؟ فقال نعم، فقال: وما الذي حملك على هذا ونحن نكرهه، قال: لأن الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه. وقال قتادة: مثل علم لا يقال به كمثال كنز لا ينفق منه، ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب، وكان يقول: طوبى لعالم ناطق، ولمستمع واع، هذا علم علماً فبذله، وهذا سمع خيراً فوعاه، قال عليه الصلاة والسلام: «من كتم علماً عن أهله ألجم بلجام من نار» وعن علي ـ رضي الله عنه ـ ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا[3].

---

(1) الدر المنثور للسيوطي ج 4ص 3.

(2) سورة آل عمران آية 187.

(3) التفسير الكبير للرازي مج (9 - 10) ج 9 ص 130 - 131.

وفي قيام العلماء الراسخين في العلم بما هو واجب عليهم في هذا المجال، يحققون أمرين ـ موكول تحقيقهما إليهم ـ :

الأمر الأول: تبليغ العطاء الإلهي والنبوي بواسطة بذل مجهود تفسيري وبياني مبرأ من العواطف الآثمة، والشهوات الضالة، وبمقتضى تأويل لا يهدف إلا إلى تجلية المعاني المرادة لله في كتابه، والمعاني المقصودة لرسوله من هديه وتوجيهه.

الأمر الثاني: قصدهم ـ مع تبليغهم لهذا العطاء الذي لا يصلح الناس إلا عليه، ولا يستقيمون إلا به ـ فضح أساليب المغالين في التأويل، وابتغاء الفتنة، ومنعهم من الوصول إلى تحقيق أهدافهم وغاياتهم التي تؤول بمقتضى انحرافها ومحاربتها للحق إلى امتهان الإنسان والاستخفاف بفكره.

بعد هذا التمهيد أعود:

أولاً: لبيان المعتدلين، وما في عطائهم من إثراء للفكر الإسلامي وإفادة عظمى للفكر البشري بصفة عامة.

ثانياً: لتوضيح أهداف وغايات المغالين، وما فيها من امتهان واستخفاف.

ـ عطاء المعتدلين هو أوسع من أن يحدد، وأبعد من أن يحصى، حيث تأملوا بعمق ونظروا بإمعان، ثم استنتجوا واستنبطوا وأعطوا ثمرة مجهودهم هذا إلى غيرهم من الناس الذين يرجون لهم انتفاعهم به، وبذلك كان عطاؤهم يغطي كل الميادين ويشمل جميع المجالات.

وسأتحدث عن هذا العطاء بإجمال حيث الحديث بتفصيل يتطلب كتباً عديدة بل كتباً ذات مجلدات عدة لا فصلاً من باب.

ـ في مجال العقيدة أعطوا ـ وسندهم في عطائهم التأويل لآي القرآن الكريم وللسنّة النبويّة ـ علماً كاملاً اصطلحوا على تسميته بعلم «الكلام» وهو

عبارة عن مجموعة من المباحث، وجملة من الأنظار العلمية الفلسفية، وضعت بأسلوب محكم، مدعم بأدلّة عقلية، وبراهين يقينيّة قصد الدفاع عن أصول العقيدة الإسلامية، وتثبيتها في العقول، وتعميقها في القلوب، وغرسها في أعماق النفوس، وفي أبعاد المشاعر والأحاسيس وفي الوقت نفسه هدم أدلة كل من يحاول التشكيك فيها، أو النيل منها. قال ابن خلدون: ـ في مقدمته ـ : علم الكلام: هو علم يتضمن الحجاج من العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنّة. وسرّ هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد[1].

والتوحيد مفهومه عند المعتدلين الذين هم أهل السنّة هو كما جاء في كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني حيث قال: وأما التوحيد فقد قال أهل السنّة وجميع الصفاتية: إن الله تعالىٰ واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له، وواحد في أفعاله لا شريك له[2].

وبهذا المفهوم بحثوا في وحدانية الذات. وفي أزلية الصفات، وفي تفرّد الخالق بالفعل بحيث لا يشاركه أحد فيه بحثاً مفلسفاً في أسلوبه ومنهجه، وفي أدلته وبراهينه، سندهم في ذلك القرآن والسنّة وآلتهم العقل الواعي الرشيد، وقائدهم القلب المفعم بالإيمان والبصيرة المشرقة بنور الإلهام.

فكان بحثاً شاملاً للوجود بنوعيه الواجب والممكن حسب تعبير واصطلاح علماء الكلام فأمدّوا الفكر الإسلامي بصفة خاصة، والفكر البشري بصفة عامة بعطاء جنّبهم متاهات الفلسفة، وتيه الغافلين الضالين.

وللاستعانة على تجنيب الفكر البشري من الانسياق إلى المتاهات التي تتمخض في نهايتها فتلد لا شيء، ومن الوقوع في تفاهة الغفلة، وفي سخافة

---

(1) مقدمة ابن خلدون صفحة 423.

(2) «الملل والنحل» على هامش «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم ص 51 - 52.

الضلال، استعملوا أسلوب ومنهج الفلسفة في الاستدلال والبرهنة في حدود ما يساعدهم عليه، ويؤيدهم فيه النص القرآني والنبوي، كما استعملوا ما وجههم إليه القرآن من مرونة استدراج الغافلين الضالين لسماع الحجة المقنعة والدليل الهادي إلى الحق عساهم يخرجون من غفلتهم وضلالتهم ﴿**قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾[1].

وبهذا العطاء الشامل، المثري للفكر الإسلامي، والمفيد للفكر الإنساني أخرجوا الناس من المتاهات الفلسفية التي تورط فيها الفكر البشري منذ ما أراد الاستقلال عن خالقه، وأراد السير في دروب الحياة بانفراده. كما أخرجوهم من تيه الغافلين الضالين الذين يسيرون في مجال العقيدة على غير هدى، ومن غير بينة.

ثم عرّفوا الجميع بربّهم الواحد الأحد، تعريفاً دقيقاً لا غموض فيه ولا التباس، شاملاً لخصائص ذاته، وخصائص صفاته، وخصائص أفعاله وآيات آثاره في جميع مظاهر الكون وآفاقه، وفي أبعاد العالمين.

وبإخراجهم من استجاب لهم، واستنار بأنظارهم في مجال العقيدة من الالتواءات والمتاهات الفلسفية التي توّرط فيها كثير من الناس عندما اعتمدوا الفلسفة اليونانية وغيرها من الفلسفات التي أراد أصحابها أن يقودوا الناس في المشرق والمغرب، إلى ما هدفوا ورموا إليه من غايات مادية بحتة، أو غايات عقلية تجاوز فيها العقل مجاله وتمرّد على خالقه، أو غايات روحية تسلب العقل عطاءه وتمتهن عطاء المادة، وكثيراً ما تصاب بالانتكاس فيعود أصحابها إلى العقل فيجدونه قد ضاع أو أصبح لا يؤمن بشيء وإلى المادة فيجدونها أمام موجات تشكيكهم في بدايتها ونهايتها وفي ارتباط مظاهرها بحقائقها قد أصبحت ظلالاً وهمية وسراباً خالياً.

---

(1) سورة سبأ آية 24.

قلت: بإخراجهم من استجاب لهم واستنار بأنظارهم، من المتاهات والغفلة جعلوا نفوسهم ونفوس كل من يعود إلى الرشد، ويطمئن إلى الإيمان العميق الصافي، تشعر بالوجود الإلهي واضحاً قوياً يأخذها من أقطارها كلها، بمعناه المحيط العميق.

وذلك لأنهم في عطائهم أوضحوا وأقاموا لهم الأدلة المنطقية والبراهين اليقينية على ما أوضحوا.

وبتوضيحهم هذا المدعم بالأدلة والبراهين جعلوهم يؤمنون عن جزم ويقين بـ:

أولاً: ان العالم المسمى بالكون، هو كل شيء ما عدا الله تعالى، وأن كل ما هو غير الله سبحانه وتعالىٰ، وغير صفاته الأزلية، مخلوق مصنوع وأن خالقه وصانعه ـ وهو الله ـ ليس بمخلوق ولا مصنوع ولا هو من جنس العالم ولا من جنس شيء من أجزاء العالم.

ثانياً: ان أجزاء العالم المصنوع قسمان: جواهر وأعراض. وكل جوهر جزء لا يتجزأ، والعرض لا يقوم بذاته، وهو مختلف الأجناس وإن كل ما في هذا العالم من جواهر وأجسام وأعراض آيل إلى نهاية وإلى جواز الفناء عليه كله من طريق القدرة والإمكان، من حيث الاستدلال العقلي وإلى جواز فناء بعض الأكوان والأجسام دون بعض من طريق الشرع ومن ذلك تأبيد الجنة ونعيمها، وتأبيد جهنم وعذابها كما ورد في السمع والنقل.

وبهذا الجزم واليقين يتطهر إيمان المؤمنين من تيه الغافلين الضالين ومن ضلالات الفلاسفة وأتباعهم في مجال العقيدة. كما يتطهر من مردود ورواسب مقولات جميعهم التي تتضمن الشبهات التالية:

ـ ان جواهر الكون وأجزاءه تنقسم إلى أجزاء بلا نهاية، ولذلك فهي ليس

لها آخر، وليست معلومة حتى عند الله، وفي هذه المقولة تجاوز لمجال العقل ونفي لكمال الألوهية، لو كانوا يعلمون.

ـ ان للفلك طبيعة خامسة لا تقبل الكون والفساد، ولذلك فلا نهاية لهذا الكون، ولا فناء يلحقه، وفي هذه المقولة إبطال لقاعدة عقلية مسلمة وهي أن كل ما له بداية لا بدّ أن تكون له نهاية، بحيث لا يسلم العقل ولا تؤمن بوجود بدايات بلا نهايات.

ـ ان الله لا يقدر على إفناء بعض الأجسام مع إبقاء بعضها وإنما على إفناء جميعها بفناء يخلقه لا في محل، وفي هذه المقولة توجه يدلّ على اضطراب في التفكير، وعلى اعوجاج في المنطق، وعلى عدم استقامة في النظر، مما يجعلها تمثل سخافة فكرية.

ـ ان أجسام الكون نوعان: نور وظلمة، وان الخير من النور، والشرّ من الظلمة، وأن فاعل الخير والصدق لا يفعل الشرّ والكذب وفاعل الشرّ والكذب لا يفعل الخير والصدق.

وفي هذه المقولة تكذيب لما هو واقع، وإبطال لما هو مشاهد من تكامل أجزاء الكون، ومن ترابطها مع بعضها ترابطاً يؤدي إلى أن الكل من الجزء والجزء من الكل.

وان النور والظلمة يتبادلان، وان الخير والشرّ يتفاعلان ولولا تفاعلهما لما كان لهذا الكون استقرار ولا صلاح.

قال الجاحظ:

اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشرّ، والضار بالنافع، والمكروه بالسار، والضعة بالرفعة والكثرة بالقلّة، ولو كان الشر صرفاً هلك الخلق، أو كان الخير محضاً سقطت المحنة، وتقطعت

أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبت وتوقف وتعلم ولم يكن علم، ولا يعرف باب تبين، ولا دفع مضرّة، ولا اجتلاب منفعة ولا صبر على مكروه، ولا شكر على محبوب، ولا تفاضل في بيان، ولا تنافس في درجة، وبطلت فرحة الظفر وعز الغلبة، ولم يكن على ظهرها محق يجد عز الحق، ومبطل يجد ذلة الباطل، وموقن يجد برد اليقين، وشاك يجد نقص الحيرة وكرب الوجوم، ولم تكن للنفوس آمال ولم تتشعبها الأطماع، ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس جهل الأمن، وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الانس الذين فيهم الأنبياء والأولياء إلى حال السبع والبهيمة وإلى حال الغباوة والبلادة[1].

في مقالة الجاحظ هذه التي ساقها في ثوب أدبي جميل، وفي معنى فلسفي قويم تكذيب لمقولة «النور والظلمة» وإسقاط للهدف المراد منها.

ـ ان لهذا الكون صانعين قديمين: أحدهما إلّه النور، والآخر إلّه الظلمة، وهذه أشد سخافة من المقولة السابقة لها والمرتبطة بها وليس هناك سخافة مؤذية للعقل الواعي الرشيد، وأكثر إيذاء له من سخافة هذه المقولة. لأنها تؤدي ـ لو انتبه قائلوها ـ إلى نفي الألوهية تماماً، ولما كان هناك في الوجود لا إلّه النور ولا إلّه الظلمة.

وهم لو رجعوا إلى مداركهم، ووقفوا قليلاً مع ما بقي لهم من بصيص نور من العقل لأدركوا أنه بوجود إلّهين ينعدم النور والظلام. ويفسد الكون بجميع ما فيه ومن فيه، وتصبح مقولتهم في لسان الحال وفي منطق العقل، ميتة في أفواههم المدفونة معهم في طيّ العدم ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون**﴾[2].

---

(1) كتاب الحيوان للجاحظ.

(2) سورة الأنبياء آية 22.

ثالثاً: ان الحوادث كلها لا بد لها من محدث صانع، وإن صانعها الذي هو الله خالق لجميع ما فيها من جواهر وأجسام وأعراض، وانه قديم لم يزل موجوداً، ومنزّه عن النّهاية والحدّ، وعن الصّورة والأعضاء، وعن أن يحويه مكان، أو يجري عليه زمان، وإن ذاته منزهة عن الآفات والغموم، والآلام واللذات، وعن الحركة والسكون، وانه سبحانه وتعالىٰ غنيّ عن خلقه لا يجتلب بخلقه إلى نفسه نفعاً ولا يدفع بهم عن نفسه ضرراً، وانه واحد لا شريك له، وانه لم يفوض لأحد من خلقه تدبير أي شيء من ملكه.

وبهذا يتطهر إيمان المؤمنين من مقولة المجسمين للإلّه الواصفين له بما يعرض ذاته العلية للنقص من غير تأويل وابعاد لما يمس كمال ألوهيته، ومن مقولة المجوس ودعواهم التي تدل على فقدان الرشد في تصوّرهم، ومن أذهانهم الضالة التي انحدرت بهم إلى اعتقاد أن الله إنما خلق الملائكة ليدفع بهم عن نفسه أذى الشيطان وأذى أعوانه وهو انحدار في التصور لا يصدر إلا ممن كان أضلّ من الأنعام.

ومن مقولة اليهود الذين غضب الله عليهم ولعنهم تلك المقولة التي تجرأوا فيها على مقام الألوهية فسجلها الله في كتابه الكريم ليحاسبهم عليها ويؤاخذهم بها فقال عزّ وجلّ ـ : ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حقّ ونقول ذوقوا عذاب الحريق**﴾[1].

رابعاً: ﴾ أن ذات الله العلية تتصف بصفات أزلية أبدية قائمة بها من حياة وعلم، وقدرة وإرادة، وسمع وبصر وكلام.

وأحسن بيان ـ حسب ما اطلعت عليه ـ حول هذه الصفات وما قيل فيها إثباتاً ونفياً، ما جاء في الفصل الثالث الذي موضوعه: «بيان الأصول التي اجتمع عليها أهل السنّة» من الباب الخامس: ـ في بيان أوصاف الفرقة الناجية ـ من كتاب «الفرق بين الفرق» حيث قال مؤلفه ما يلي:

(1) سورة آل عمران آية 181.

وقالوا ـ أي أهل السنة ـ في الركن الرابع ـ وهو الكلام في الصفات القائمة بالله ـ عزّ وجلّ ـ :

إن علم الله تعالىٰ، وقدرته، وحياته وإرادته وسمعه وبصره وكلامه صفات له أزلية، ونعوت له أبدية.

وقد نفت المعتزلة عنه جميع الصفات الأزلية وقالوا: ليس له قدرة، ولا علم، ولا حياة، ولا رؤية، ولا إدراك للمسموعات، وأثبتوا له كلاماً محدثاً، ونفى البغداديون عنه الإرادة، وأثبت البصريون منهم له إرادة حادثة لا في محل.

وقلنا لهم: في نفي الصفة نفي الموصوف، كما أن في نفي الفعل نفي الفاعل وفي نفي الكلام نفي المتكلم.

وأجمع أهل السنة على أن قدرة الله تعالىٰ على المقدورات كلها قدرة واحدة يقدر بها على جميع المقدورات على طريق الاختراع دون الاكتساب خلاف قول الكرامية في دعواها أن الله تعالىٰ إنما يقدر بقدرته على الحوادث التي تحدث في ذاته فأما الحوادث الموجودة في العالم فإنما خلقها الله تعالىٰ بأقواله لا بقدرته، وخلاف قول البصريين من القدرية في دعواها أن الله سبحانه لا يقدر على مقدورات عباده، ولا على مقدورات سائر الحيوانات.

وأجمع أهل السنة على أن مقدورات الله تعالىٰ لا تفنى خلاف قول أبي الهذيل وأتباعه من القدرية في دعواه أن قدرة الله تعالىٰ تنتهي إلى حال تفنى بمقدوراته فيها، ولا يقدر بعدها على شيء، ولا يملك حينئذ لأحد على ضرّ ولا نفع، وزعم أن أهل الجنة وأهل النار في تلك الحال يبقون جموداً في سكون دائم، تعالىٰ الله عن قولهم علوّاً كبيراً.

وقد زعم الأسواريّ وأتباعه من المعتزلة أن الله تعالىٰ إنما يقدر على أن يفعل ما قد علم أنه يفعله، فأما ما علم أنه لا يفعله أو أخبر عن نفسه بأنه لا يفعله، فإنه لا يقدر على فعله. تعالىٰ الله عن قوله علوّاً كبيراً.

وأجمع أهل السنّة على أن علم الله تعالىٰ واحد يعلم به جميع المعلومات على تفاصيلها من غير حسّ ولا بديهة، ولا استدلال عليه.

وزعم معمر وأتباعه من القدريّة أن الله تعالىٰ لا يقال: إنه عالم بنفسه، ومن العجائب عالم بغيره ولا يكون عالماً بنفسه.

وزعم قوم من الرافضة أن الله تعالىٰ لا يعلم الشيء قبل كونه.

وزعم زرارة بن أعين وأتباعه من الرافضة أن علم الله تعالىٰ وقدرته وحياته وسائر صفاته حوادث، وأنه لم يكن حيّاً ولا قادراً ولا عالماً حتى خلق لنفسه حياة وقدرة وعلماً وإرادة وسمعاً وبصراً.

وأجمعوا على أن سمعه وبصره محيطان بجميع المسموعات والمرئيات، وأن الله تعالىٰ لم يزل رائياً لنفسه، وسامعاً لكلام نفسه، وهذا خلاف قول القدرية البغدادية في دعواهم أن الله ليس براء ولا سامع على الحقيقة وإنما يقال يرى ويسمع على معنى أنه يعلم المرئي والمسموع، وخلاف قول المعتزلة في دعواهم أن الله تعالىٰ يرى غيره ولا يرى نفسه، وخلاف قول الجبّائي وفي فرقه بين السميع والسامع وبين البصير والمبصر، حتى قال: إنه كان في الأزل سميعاً بصيراً، ولم يكن في الأزل سامعاً ولا مبصراً، وهذا الفرق يمكن عكسه عليه فلا يجد من لزوم عكسه انفصالاً.

وأجمع أهل السنة على أن الله تعالىٰ يكون مرئياً للمؤمنين في الآخرة، وقالوا بجواز رؤيته في كل حال، ولكل حي من طرق العقل، ووجوب رؤيته للمؤمنين خاصة في الآخرة من طرق الخبر، وهذا خلاف قول من أحال رؤيته من القدرية والجهمية، وخلاف قول من زعم أنه يرى في الآخرة بحاسة سادسة، كما ذهب إليه ضرار بن عمرو، وخلاف قول من زعم أن الكفرة أيضاً يرونه كما قال ابن سالم البصري، وقد استقصينا مسائل الرؤية في كتاب مفرد.

وأجمع أهل السنة على أن إرادة الله تعالىٰ مشيئته واختياره. وعلى أن

إرادته للشيء كراهة لعدمه، كما قالوا: إن أمره بالشيء نهي عن تركه، وقالوا أيضاً: إن إرادته نافذة في جميع مراداته على حسب علمه بها فما علم كونه، أراد كونه في الوقت الذي علم أنه يكون فيه، وما علم أن لا يكون أراد ألّا يكون، وقالوا: أنه لا يحدث في العالم شيء إلا بإرادته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وزعمت القدرية البصرية أن الله تعالىٰ قد شاء ما لم يكن، وقد كان ما لم يشأ. وهذا القول يؤدي إلى أن يكون مقهوراً مكرهاً على حدوث ما كره حدوثه، تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وأجمع أهل السنة على أن حياة الإلٰه سبحانه بلا روح ولا اغتذاء، وأن الأرواح كلها مخلوقة، على خلاف قول النصارى في دعواها قدم أب وابن وروح. وأجمعوا على أن الحياة شرط في العلم والقدرة والإرادة والرؤية والسمع وإن من ليس بحي لا يصح أن يكون عالماً قادراً مريداً سامعاً مبصراً. وهذا خلاف قول الصالحي وأتباعه من القدرية في دعواهم جواز وجود العلم والقدرة والرؤية والإرادة في الميت.

وأجمعوا على أن كلام الله ـ عزّ وجلّ ـ صفة له أزلية، وأنه غير مخلوق ولا محدث ولا حادث، على خلاف قول القدرية في دعواهم أن الله تعالىٰ خلق كلامه في جسم من الأجسام، وخلاف قول الكرّامية في دعواهم أن أقواله حادثة في ذاته، وخلاف قول أبي الهذيل: أن قوله للشيء ﴿كن﴾ لا في محل، وسائر كلامه محدث في أجسام.

وقلنا: لا يجوز حدوث كلامه فيه لأنه ليس بمحل للحوادث، ولا في غيره لأنه يوجب أن يكون غيره به متكلماً آمراً ناهياً، ولا في غير محل، لأن الصفة لا تقوم بنفسها، فبطل حدوث كلامه، وصحّ أنه صفة له أزلية[1].

---

(1) كتاب (الفرق بين الفرق) ص 257 - 260 ط أولى دار الكتب العلمية: بيروت لبنان سنة 1405هـ/ 1985م.

فهذا العرض لما أجمع عليه أهل السنة ـ وهم الذين يمثلون الاعتدال في التأويل، وإن كان ينقصه إبراز الحجة والدليل على إبطال ما ذهب إليه مخالفو أهل السنة، إلا قليلاً، فهو عرض شامل مبين للصفات التي تتصف بها ذات الله عزّ وجلّ.

وأما الحجة والدليل لإبطال ما ذهب إليه مخالفو أهل السنة، فهما من الوضوح والجلاء، بحيث وجدهما المؤلف ـ على ما أعتقد ـ لا يحتاجان إلى الإبراز لأنهما كامنان في أقوالهم يحطمانها من داخلها، ويظهران سفهها من قبل أن تنال من عقل المؤمن. أو أن تستهويه من جهة ومن جهة أخرى إن أهل السنة في حديثهم عن ذات الله العلية وعن صفاتها الأزلية الأبدية نجد كمال الحجة وقوّة الدليل لأنهم يصفون الذات بكل كمال، وينزهونها عن كل نقص وسندهم في ذلك ما جاء في كتاب الله وسنة نبيّه، وما وصف الله به نفسه، وهو وصف صاغه الله للناس بلسان عربي مبين، وطلب منهم أن يتدبروا معناه، ويتأملوا أبعاده المرادة منه حتى لا يقعوا في أسر مادية اللغة التي في حقيقة أمرها ما هي إلا وسيلة من وسائل تقريب المعاني للأذهان، وطريق من طرق إثارة العقل ليعود بواسطتها إلى التثبت والتروي، وإلى عمق التأمل، ودعم التركيز من جديد، عساه يدرك: البعد المراد من غير أن يبقى أسيراً لمادية الكلمة، وحرفية النص، وبصفة أكيدة، وبتأويل واجب، عساه يصل إلى فهم المعنى المراد من وراء التعبير اللغوي عندما يكون الحال يتعلق بالله ـ عزّ وجلّ ـ الذي ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[1] فاللغة في حديثها عن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وفي وصفها له لا تتجاوز وظيفة ضرب المثل لتقريب المعنى وكشف الحجب عن المراد، لإعانة المحدود من القرب إلى غير المحدود علّه تفتح له الأبواب فيدركه بصفاته ويعرفه بنعوته وأسمائه.

وأما مخالفو أهل السنة فإنهم وقفوا عند مادية اللغة فأطالوا الكلام وأكثروا

(1) سورة الشورى آية 11.

من الجدل ـ معتقدين من وراء جدلهم ـ أنهم ينزهون الله عن المادية المتمثلة عندهم في الصفة والموصوف وعن الشخصانية المتمثلة في الكلام والمتكلم، وفي السمع والسميع، وفي البصر والبصير، وعن الفاعلية المتمثلة في الفعل والفاعل، وفي القدرة والقادر، وفي الإرادة والمريد إلى مستوى أداهم إلى تعطيل ذات الله عن كل صفة، وهو تعطيل يؤول في لغة المنطق، وفي حكم العقل إلى نفي وجود الله ـ تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً ـ ثم وقوفهم مع إطالة الكلام والإكثار من الجدل ـ عند مادية اللغة وعدم إيمانهم أو تغافلهم عن أنها في مقام الألوهية لا تعدو أن تكون أداة تشبيه ووسيلة تمثيل وتقريب. جعل أبعاثهم وأنظارهم، وأدلتهم وبراهينهم تضطرب فيها المعاني، وتتعارض حولها الأراء. وتختلط عندها السبل، وتنقلب فيها الحقائق فتصبح الصفات الأزلية الأبدية حادثة ومنتهية أو لا وجود لها. والجواهر والأجسام الحادثة أبدية لا تنتهي، والكمال نقصاً، والنقص كمالاً، والمحدود غير محدود وغير المحدود محدوداً، والوجود كله في استمرارية لا نهاية لها لا فرق بين الصانع والمصنوع في الأبدية والدوام، وهذا يؤدي ـ ولو عن غير قصد ـ إلى تصديق مقولة من يقول: الكل لا صانع ولا مصنوع، ولا بداية ولا نهاية، مادة تتولد من مادة، ثم تعود إليها وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية.

وهذه المقولة ـ كما قلت سابقاً ـ هي من المتاهات التي غرق فيها بعض الفلاسفة، وغرق فيها أيضاً من أعجب بهم، وانقاد إليهم مقيّداً فكره ومواهبه في دائرة تقليدهم.

ولكن الواعون للحقيقة، والمؤمنون بالحق، لا يصدقونهم في مقولتهم لأن الواقع يكذبها، والعقل يزيفها، والوجدان يرفضها.

ولذكر الصفات حسب منهج أهل السنة بأدلّتها المبطلة لمقولات خصومهم لا أرى حرجاً ولا تطويلاً للبحث في أن أعرض ما قاله الإمام الغزالي

في «كتاب الإحياء» في هذا الموضوع: حيث بيّن ما امتاز به أهل السنة في عطائهم في مجال العقيدة فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله ميز عصابة السنة بأنوار اليقين وآثر رهط الحقّ بالهداية إلى دعائم الدين، وجنّبهم زيغ الزائغين وضلال الملحدين، ووفّقهم للاقتداء بسيد المرسلين، وسدّدهم للتأسي بصحبه الأكرمين، ويسّر لهم اقتفاء آثار السّلف الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين، ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين، فجمعوا بالقبول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول، وتحققوا أن النطق بما تعبدوا من قول لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، ليس له طائل ولا محصول، إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول وعرفوا أن كلمتي الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات ذات الإلّه وإثبات صفاته، وإثبات أفعاله، وإثبات صدق الرسول، وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهي أربعة، ويدور كل ركن منها على عشرة أصول.

الركن الأول: في معرفة ذات الله تعالىٰ، ومداره على عشرة أصول، وهي العلم بوجود الله تعالىٰ، وقدمه، وبقائه، وأنه ليس بجوهر، ولا جسم، ولا عرض، وأنه سبحانه ليس مختصاً بجهة، ولا مستقراً على مكان، وأنه يرى، وأنه واحد.

الركن الثاني: في صفاته ويشتمل على عشرة أصول، وهي العلم بكونه حيّاً عالماً، قادراً، مريداً، سميعاً، بصيراً، منزهاً عن حلول الحوادث، وأنه قديم الكلام، والعلم والإرادة.

الركن الثالث: في أفعاله تعالىٰ، ومداره على عشرة أصول، وهي: أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالىٰ، وأنها مكتسبة للعباد، وأنها مرادة لله تعالىٰ، وأنه متفضل بالخلق والاحترام، وأن له تعالىٰ تكليف ما لا يطاق، وأن له إيلام

البريء ولا يجب عليه رعاية الأصلح، وأنه لا واجب إلا بالشرع، وأن بعثه الأنبياء جائز، وأن نبوّة نبينا محمد ﷺ ثابتة مؤيدة بالمعجزات.

الركن الرابع: في السمعيات ومداره على عشرة أصول، وهي: إثبات الحشر، والنشر، وسؤال منكر ونكير، وعذاب القبر، والميزان، والصراط، وخلق الجنة والنار، وأحكام الإمامة، وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم وشروط الإمامة[1]

وبعد عرضه بإيجاز للأركان الأربعة بأصولها العشرة التي عليها يبنى الإيمان عند أهل السنة، أعقبه ببيان تفصيلي تناول فيه كل أصل من أصول الأركان فعنونه ومثل له، ودلّل عليه، وأقام الحجة على صحته وصدقه لسلم له العقل، ويؤمن به القلب، ويطمئن إليه الوجدان.

وسأكتفي بعرض ما قاله عن الركن الثاني لأنه يتكامل مع ما قدمت عرضه وبيانه من كتاب «الفرق بين الفرق» قال الإمام الغزالي: .

الركن الثاني: العلم بصفات الله تعالىٰ ومداره على عشرة أصول:

الأصل الأول: العلم بأنه صانع العالم قادر، وأنه تعالىٰ في قوله: ﴿**وهو على كل شيء قدير**﴾ صادق، لأن العالم محكم في صنعته، مرتب في خلقته، ومن رأى ثوباً من ديباج حسن النسج والتأليف، متناسب التطريز والتطريف، ثم توهم صدور نسجه عن ميت لا استطاعة له، أو عن إنسان لا قدرة له، كان منخلعاً عن غريزة العقل، ومنخرطاً في سلك أهل الغباوة والجهل.

الأصل الثاني: العلم بأنه تعالىٰ عالم بجميع الموجودات، ومحيط بكل المخلوقات لا يعزب عن علمه مثال ذرة في الأرض ولا في السماء، صادق في قوله: ﴿**وهو بكل شيء عليم**﴾ ومرشد إلى صدقه بقوله تعالىٰ: ﴿**ألا يعلم**

(1) كتاب الاحياء مجلد (1 - 4) ج 1 كتاب قواعد الفصل الثالث ص 180 - 181 كتاب الشعب بدون تاريخ.

من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ أرشدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لا تستريب في دلالة الخلق اللطيف، والصنع المزين بالترتيب، ولو في الشيء الحقير الضعيف، على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف، فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى في الهداية والتعريف.

الأصل الثالث: العلم بكونه عزّ وجلّ حيّاً، فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته، ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حياً لجاز أن يشك في حياة الحيوانات عند ترددها في الحركات والسكنات، بل في حياة أرباب الحرف والصناعات، وذلك انغماس في غمرة الجهالات والضلالات.

الأصل الرابع: العلم بكونه تعالىٰ مريداً لأفعاله، فلا وجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته، فهو المبدىء المعيد، والفعال لما يريد، وكيف لا يكون مريداً وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضده، وما لا ضدّ له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده، والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة، فلا بد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين، ولو أغنى العلم عن الإرادة في تخصيص المعلوم حتى يقال إنما وجد في الوقت الذي سبق العلم بوجوده لجاز أن يغني عن القدرة حتى يقال: وجد بغير قدرة لأنه سبق العلم بوجوده فيه.

الأصل الخامس: العلم بأنه تعالىٰ سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، وكيف لا يكون سميعاً بصيراً والسمع والبصر كمال لا محالة وليس بنقص؟ فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق، والمصنوع أسنى وأتم من الصانع؟ وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص في جهته والكمال في خلقه وصنعته؟ أو كيف تستقيم حجة ابراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلاً وغياً، فقال له: ﴿**لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً**﴾ ولو انقلب ذلك عليه في معبوده

لأضحت حجته داحضة ودلالته ساقطة، ولم يصدق قوله تعالىٰ: ﴿**وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه**﴾ وكما عقل كونه فاعلاً بلا جارحة، وعالماً بلا قلب ودماغ. فليعقل كونه بصيراً بلا حدقة، وسميعاً بلا أذن، إذ لا فرق بينهما.

الأصل السادس: أنه سبحانه وتعالىٰ متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف، بل لا يشبه كلامه كلام غيره، كما لا يشبه وجوده وجود غيره، والكلام بالحقيقة كلام النفس، وإنما الأصوات قطعت حروفاً للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات، وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء، ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال قائلهم.

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن لم يعقله عقله، ولا نهاه نُهاه عن أن يقول: لساني حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرتي الحادثة قديم، فاقطع عن عقله طمعك وكفّ عن خطابه لسانك، ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء وأن الباء قبل السين في قولك بسم الله، فلا يكون السين المتأخر عن الباء قديماً فنزّه عن الالتفات إليه قلبك، فله سبحانه سرّ في إبعاد بعض العباد ومن يضلل الله فما له من هاد، ومن استبعد أن يسمع موسى ـ عليه السلام ـ في الدنيا كلاماً ليس بصوت ولا حرف فليستنكر أن يرى في الآخرة موجوداً ليس بجسم ولا لون، وان عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية، وهو إلى الآن لم ير غيره، فليعقل في حاسة السمع ما عقله في حاسة البصر، وإن عقل أن يكون له علم واحد، هو علم بجميع الموجودات، فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع ما دل عليه بالعبارات وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة في ورقة صغيرة ومحفوظة في مقدار ذرّة من القلب، وأن كل ذلك مرئي في مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحل ذات السموات والأرض والجنة والنار في الحدقة والقلب والورقة فليعقل كون كلام مقروءاً بالألسنة، محفوظاً في القلوب، مكتوباً في المصاحف، من غير حلول ذات الكلام فيها، إذ حلّت بكتاب الله ذات

الكلام في الورق لحلّ ذات الله تعالىٰ بكتابة اسمه في الورق، وحلت ذات النار بكتابة اسمها في الورق، ولا احترق.

الأصل السابع: ان الكلام القائم بنفسه قديم، وكذا جميع صفاته، إذ يستحيل أن يكون محلاً للحوادث، داخلاً تحت التغير، بل يجب للصفات من نعوت القدم ما يجب للذات فلا تعتريه التغيرات ولا تحله الحادثات، بل لم يزل في قدمه موصوفاً بمحامد الصفات، ولا يزال في أبده كذلك منزهاً عن تغير الحالات. لأن ما كان محل الحوادث لا يخلو عنها، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، وإنما ثبت نعت الحدوث للأجسام من حيث تعرضها للتغير وتقلب الأوصاف.

فكيف يكون خالقها مشاركاً لها في قبول التغير، وينبني على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته، وإنما الحادث هي الأصوات الدالة عليه، وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده، حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علماً متعلقاً بما في قلب أبيه من الطلب، صار مأموراً بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده له. فليعقل قيام الطلب الذي دلّ عليه قوله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿**اخلع نعليك**﴾ بذات الله. ومصير موسى ـ عليه السلام ـ مخاطباً به بعد وجوده، إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب، وسمع لذلك الكلام القديم.

الأصل الثامن: ان علمه قديم، فلم يزل عالماً بذاته وصفاته، وما يحدثه من مخلوقاته، ومهما حدثت المخلوقات، لم يحدث له علم بها، بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلي، إذ لو خلق لنا علم بقدوم زيد عند طلوع الشمس ودام علم ذلك علم تقديراً حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوماً لنا بذلك العلم من غير تجدد علم آخر. فهكذا ينبغي أن يفهم قدم علم الله تعالىٰ.

الأصل التاسع: ان إرادته قديمة، وهي في القدم تعلقت باحداث

الحوادث في أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلي، إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث، ولو حدثت في غير ذاته لم يكن هو مريداً لها، كما لو تكون أنت متحركاً بحركة ليست في ذاتك، وكيفما قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى، وكذلك الإرادة الأخرى تفتقر إلى أخرى، ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية، ولو جاز أن تحدث إرادة بغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة.

الأصل العاشر: ان الله تعالىٰ عالم بعلم، حي بحياة، قادر بقدرة، ومريد بإرادة ومتكلم بكلام، وسميع بسمع، وبصير ببصر، وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة، وقول القائل: عالم بلا علم، كقوله: غني بلا مال، وعلم بلا عالم، وعالم بلا معلوم، فإن العلم والمعلوم والعالم متلازمة، كالقتل والمقتول والقاتل، وكما لا يتصور عالم بلا علم، ولا علم بلا معلوم، ولا معلوم بلا عالم، بل هذه الثلاثة متلازمة في العقل لا ينفك بعض منها عن البعض. فمن جوّز انفكاك العالم عن العلم، فيجوز انفكاكه عن المعلوم وانفكاك العلم عن العالم، إذ لا فرق بين هذه الأوصاف[1].

وإتماماً لما أردت بيانه من عطاء المعتدلين في مجال العقيدة أذكر نماذج من أسلوب أدلّتهم وحججهم في إثبات ودعم ما أرادوا بيانه وتعميقه وتركيزه في عقول وقلوب المؤمنين، وفي أعماق مشاعرهم وأحاسيسهم، وكذلك ما أرادوا وهدفوا إلى توضيحه وإبرازه وإلى لفت نظر الغافلين والضالين إليه، عساهم يخرجون من تيههم وغفلتهم وحيرتهم إلى طريق الهدى الذي يوصلهم إلى جلاء الحقيقة وإلى معرفة الحق وبرد اليقين.

وهي نماذج من أئمّة في الفقه والتفسير، وفي الكلام والفلسفة، وفي التاريخ والإصلاح، وبهذا فهي تنبع من عقول جبارة، ومن مواهب جدّ عظيمة. آمنت بالوحي المقدس فاتخذت سندها القرآن في اتجاهها الفلسفي، وفي

---

(1) المرجع السابق ص 188 - 191.

أنظارها العلمية والتاريخية، وفي آرائها الإصلاحية، فكان اتجاهها أعمق وأسلم الاتجاهات، ونظرها أصدق وأصح الأنظار، ورأيها أقوم وأوثق الآراء.

النموذج الأول: من الفيلسوف حجّة الإسلام الإمام الغزالي، قال ـ حول معرفة وجود الله تعالىٰ ـ :

وأول ما يستضاء به من الأنوار، ويسلك من طريق الاعتبار، ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان، وقد قال تعالىٰ: ﴿**ألم نجعل الأرض مهاداً * والجبال أوتاداً * وخلقناكم أزواجاً * وجعلنا نومكم سباتاً * وجعلنا الليل لباساً * وجعلنا النهار معاشاً * وبنينا فوقكم سبعاً شداداً * وجعلنا سراجاً وهّاجاً * وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً * لنخرج به حبّاً ونباتاً * وجنات ألفافاً ***﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون***﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿**ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً * وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً * والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ***﴾[3]. وقال تعالىٰ: ﴿**أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ***﴾ إلى قوله: ﴿**للمقوين**﴾[4] فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات. وأدار نظره

---

(1) سورة النبأ آيات 6 - 16.
(2) سورة البقرة آية 164.
(3) سورة نوح آيات 15 - 18.
(4) سورة الواقعة آيات 58 - 73.

على عجائب خلق الله في الأرض والسموات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات، أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن حاكم يدبره، وفاعل يحكمه ويقدره بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره، ومصرفة بمقتضى تدبيره ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿**أفي الله شكّ فاطر السموات والأرض**﴾[1].

ولهذا بعث الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا: لا إلّه إلا الله، وما أمروا أن يقولوا: لنا إلّه وللعالم إلّه، فإن ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدأ نشوئهم، وفي عنفوان شبابهم ولذلك قال عزّ وجلّ ـ: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله**﴾[2] وقال تعالىٰ: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم**﴾[3] فإذا في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان[4].

ورغم ما في هذا المسلك الذي سلكه من غنى فانه أراد أن يدعّمه بما تعوّد علماء الكلام أن يجعلوه دليلاً منطقياً، وبرهاناً جدلياً على وجود الله، وهو أن العالم حادث ـ حيث لا يخلو عن الحوادث ـ وكل حادث لا بدّ له من محدث، فالنتيجة: العالم له محدث، ومحدثه هو الله.

فهذا الدليل وإن كان دليلاً جدلياً، منطقياً في نسجه وصياغته فهو جاف خال من الروح لا ينير عقلاً، ولا يحيي قلباً، ولا يثير وجداناً، كما يصنعه الدليل الأول الذي ختمه بما يميت الجدل ويعقّم الفلسفة أي بقوله: «فإذا في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان».

---

(1) سورة إبراهيم آية 10.
(2) سورة لقمان آية 25.
(3) سورة الروم آية 30.
(4) كتاب الاحياء ج 1 ص 182 - 183.

وهذا من عطاء المعتدلين الذي لم تبهرهم الفلسفة، ولم يذهب بهم الجدل إلى إطفاء النور، وتعتيم الرؤية.

النموذج الثاني: من الفيلسوف الكبير والقاضي الفقيه ابن رشد قال ـ حول البرهان العقلي على وجود الله ـ :

(الطريق التي نبّه الكتاب العزيز عليها ودعا الكل من بابها، إذا استقرىء الكتاب العزيز وجدت ـ أي أدلة وجود الباري ـ.

تنحصر في جنسين: أحدهما طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجلها، ولنسم هذا دليل العناية.

والطريقة الثانية، ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء مثل اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية والعقل، ولنسمّ هذه دليل الاختراع.

فأما الطريقة الأولى فتنبني على أصلين: أحدهما أن جميع الموجودات التي ههنا موافقة لوجود الإنسان. والأصل الثاني أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق[1]. فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار، والشمس والقمر لوجود الإنسان وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة له، والمكان الذي هو فيه أيضاً، وهو الأرض.

وكذلك تظهر أيضاً موافقة كثير من الحيوان له. والنبات والجماد وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار. وبالجملة الأرض والماء والنار والهواء.

وكذلك أيضاً تظهر العناية في أعضاء الإنسان، وأعضاء الحيوان أعني كونها موافقة لحياته ووجوده. وبالجملة فمعرفة ذلك ـ أعني منافع الموجودات ـ

---

(1) أي الصدفة.

داخلة في هذا الجنس، ولذلك وجب على من أراد أن يعرف الله تعالىٰ المعرفة التامة أن يفحص عن منافع الموجودات[1].

وأما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله، ووجود النبات ووجود السموات، وهذه الطريقة تنبني على أصلين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس:

أحدهما، أن هذه الموجودات مخترعة، وهذا معروف بنفسه في الحيوان والنبات كما قال تعالىٰ: ﴿**إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له**﴾[2] فانا نرى أجساماً جمادية ثم تحدث فيها الحياة فنعلم قطعاً أن هناك موجداً للحياة، ومنعماً بها، وهو الله تبارك وتعالىٰ.

وأما السموات فنعلم من قبل حركاتها التي لا تفتر، أنها مأمورة بالعناية بما ههنا، ومسخّرة لنا، والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة.

وأما الفصل الثاني فهو أن كل مخترع فله مخترع فيصبح من هذين الأصلين أن للموجود فاعلاً مخترعاً له. وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات ولذلك كان واجباً على من أراد معرفة الله حقّ معرفة أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الاختراع الحقيقي[3] في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع وإلى هذا الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿**أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء**﴾[4] وكذلك أيضاً من تتبع معنى الحكمة في وجود موجود أعني معرفة السبب الذي من أجله خلق، والعناية المقصودة به، كان وقوفه على دليل العناية أتمّ.

---

(1) حيث اوجب الشرع استخدام العقل.

(2) سورة الحج آية 73.

(3) يقابل هنا ابن رشد بين الاختراع الحقيقي الذي هو من فعل الله والاختراع الانساني الذي يتم في نطاق ما خلق الله.

(4) سورة الأعراف آية 185.

فهذان الدليلان هما دليلا الشرع، وأما أن الآيات المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه وتعالىٰ من الكتاب العزيز هي منحصرة في هذين الجنسين من الأدلة فذلك بيّن لمن تأمل الآيات الواردة في الكتاب العزيز في هذا المعنى.

وذلك أن الآيات التي في الكتاب العزيز من هذا المعنى إذا تصفحت وجدت على ثلاثة أنواع: إما آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية وإما آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع. وإما آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعاً[1].

ثم أتى لكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة بالآيات التي تشير إليه.

فابن رشد ـ رغم أنه فيلسوف كبير، وحسب التعبير المعاصر ـ عميد الفلاسفة ـ ركّز الفلسفة، ودافع عنها، وأنقذها من ضربات الإمام الغزالي القاتلة.. فضّل استعمال المنهج القرآني في إقامة الدليل على وجود الله. فكان في اتجاهه هذا من المعتدلين الذين يؤمنون بأن الاستدلال على وجود غير المحدود، لا يمكن أن يأتي بطريقة يقينية لا شك فيها ولا ريب، يذعن لها العقل، ويطمئن لها القلب ويتذوقها الوجدان إلا من غير المحدود، أي من الوحي المقدس المكمل لنقص العقل البشري المحدود، والمنير له وأمامه مجالات الغيب المحجوبة عن الفلسفة من التأمل والتدبير في القرآن، وفي معطيات تأويل آياته ذات الأبعاد التي تتجاوز مجال العقل. وبهذا فابن رشد عندما فضّل منهج القرآن، عن منهج الفلسفة وعن منهج علماء الكلام المقلدين للفلاسفة في إقامة أدلتهم عندما فضّل منهج القرآن في مجال الغيب. لم ينل من نفسه ومن مكانته كفيلسوف ولم يعطل العقل عن عطائه في هذا المجال. بل أعطى للفلسفة ما لها، وأعطى للوحي ما له، وهو يدرك تمام الإدراك أن ما

---

(1) مناهج الأدلة... لابن رشد ص 151 - 153.

للوحي هو كل ما يملكه الإنسان ويقدر عليه، وفوق ما يملكه الإنسان، وفوق ما يقدر عليه. ومن هنا فقد أفسح للعقل المجال في كل ما يناله ويقدر عليه. وفي أن يتأول ويتدبر ويعتبر، ويستعين بالوحي في كل ما لا يناله بمفرده، وفي كل ما لا يقدر عليه. ليكمل ما به من نقص.

والنقد الذي وجهه ويوجهه دارسو الفلسفة الذين لم يتجاوزوا مستوى الإعجاب بها، والتقليد لما يقوله أصحابها ويذهبون إليه، لا يلتفت إليه لأنه ليس من النقد في شيء.

فلمجرد استدلال ابن رشد بالآيات القرآنية في إقامة الدليل على وجود الله. ولتفضيله منهج القرآن على منهج الفلسفة، وهو الإمام فيها والخبير بها، قالوا: إن صنيعه، هذا يسلكه في عداد «الحشوية»[1] وهذا القول يمثل وجهة نظر تقليدية متهافتة، تتهم كل من يتخذ الوحي المقدس من قرآن أو سنّة سنداً له فيما يتجه إليه من عطاء علمي أو فلسفي. بأنه ابتعد عن المنهج العقلي، ونال من حرية الفكر.

ولو انتبهوا وتأملوا في وجهة نظرتهم التقليدية المتهافتة، قبل أن يصرحوا بها لأدركوا تفاهة ما ذهبوا إليه من ناحيتين:

الناحية الأولىٰ: قد غاب عنهم أنه ليس هناك من حرر العقل، وفتح أمامه الأبواب المغلقة، وأنار له طرق البحث، وسبل التدبر والتأمل، وآفاق النظر والاعتبار مثل القرآن الكريم، والسنّة النبوية.

والناحية الثانية: أنهم لم يتفطنوا لرأي ابن رشد في الحشوية الذين سلكوه في عدادهم، ولو تفطّنوا لكان رأيهم غير هذا، ولما كانوا متهافتين فرأي ابن رشد في (الحشوية) هو ما يلي:

---

(1) رأي ذكره: محمد جعفر شمس الدين في كتابه: دراسات في العقيدة الإسلامية نشر دار الكتاب اللبناني - بيروت ودار الكتاب المصري - القاهرة ط اولى سنة 1977 ص 76.

أما الفرقة التي تدعى بالحشوية فإنهم قالوا: إن طريق معرفة وجود الله تعالىٰ هو السمع لا العقل، أعني أن الإيمان بوجوده، الذي كلّف الناس التصديق به، يكفي فيه، أن يتلقى من صاحب الشرع، ويؤمن به إيماناً، كما يتلقى منه أصول المعاد، وغير ذلك مما لا مدخل فيه للعقل ـ وهذه الفرقة الضالة ـ[1] الظاهر من أمرها أنها مقصرة عن مقصود الشرع في الطريق التي نصبها للجميع مفضية إلى معرفة وجود الله تعالىٰ، ودعاهم من قبلها إلى الإقرار به، وذلك انه يظهر من غير ما آية من كتاب الله تعالىٰ انه دعا الناس فيها إلى التصديق بوجود الباري سبحانه بأدلة عقليّة منصوص عليها فيها. مثل قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم**﴾الآيات[2] ومثل قوله تعالىٰ: ﴿**أفي الله شكٌ فاطر السموات**﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى[4].

فهؤلاء الناقدون المتهافتون، لو أدركوا أن ابن رشد عندما فضّل منهج القرآن الكريم يعلم يقيناً انه منهج عقلي إلى أبعد حدود العقل أي إلى حدود ما تنتهي عنده الفلسفة، ثم يعلم أيضاً أنه منهج غايته وهدفه إتمام ما عجز عنه العقل في ميدان المعرفة والعلم وإرشاده إلى كنه الحقيقة ومسلك الحق حتى لا يضيع في المتاهات.

لو أدرك هؤلاء هذا من ابن رشد لما أخرجوه من كونه فيلسوفاً كبيراً رائداً، ولما سلكوه في عداد (الحشوية) الذين وإن كانوا يمثلون العمق في الإيمان

---

(1) وصفهم بالضلال لا يقبل من ابن رشد الفيلسوف المؤمن، والقاضي الفقيه، فلو وصفهم بالتقصير في النظر ـ وقد وصفهم فعلاً به ـ او بالخطأ في الاجتهاد وفي الحكم، ربما كان ذلك مستساغاً، لأن قولهم لا يؤدي الى وصفهم بالضلال بل ينبىء عن عميق ايمانهم، وعن شديد تمسكهم بما يبعد الذات الإلهية عن مزالق العقل المجرد، وعن متاهات الفكر غير المستنير بالهدي الإلهي.

(2) سورة البقرة آية 21 وما بعدها.

(3) سورة إبراهيم آية 10.

(4) مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد ص 135.

والبعد عن مزالق العقل المجرد، فلا يمكن سلك ابن رشد في عدادهم.

وبعد هذا يبقى اختيار ابن رشد لمنهج القرآن في الاستدلال من عطاء المعتدلين الذين يضعون الفلسفة المؤمنة في مكانتها ذات العطاء الثري، ويؤمنون بقدسية القرآن الكريم والسنة النبوية، وبأبعادهما التي تزكي عطاء العقل الرشيد بعطاء ليس من مستواه المحدود، وليس في قدرته عطاؤه.

النموذج الثالث: عن الفيلسوف المؤرخ والعالم المحقق، الرائد في علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون، قال ـ مبيّناً سرّ العقيدة الإسلامية، أساسها الذي تبنى عليه ـ وهو التوحيد ـ ومقيماً برهاناً عقلياً ويكشف لنا عليه ـ كما قال ـ على أقرب الطرق والمآخذ.

قال مبيّناً ذلك ومقيماً البرهان العقلي عليه:

ان الحوادث في عالم الكائنات، سواء كانت من الذوات، أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية، فلابد لها من أسباب متقدمة عليها، بها تقع في مستقرّ العادة وعنها يتم كونها. وكل واحد من هذه الأسباب حادث أيضاً، فلابدّ له من أسباب أخر، ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا إلّه إلاَّ هو، وتلك الأسباب في ارتقائها تتفسح وتتضاعف طولاً وعرضاً، ويحار العقل في إدراكها. فإذا لا يحصرها الا العلم المحيط، سيما الأفعال البشرية والحيوانية، فإن من جملة أسبابها في الشاهد القصود والإرادات، إذ لا يتم كون الفعل إلا بإرادته والقصد إليه، والقصود والإرادات أمور نفسانية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضاً، وتلك التصورات هي أسباب قصد الفعل.

وقد تكون أسباب تلك التصورات تصورات أخرى، وكل ما يقع في النفس من التصورات مجهول سببه إذ لا يطلع أحد على مبادىء الأمور النفسانية ولا على ترتيبها، إنما هي أشياء يلقيها الله في الفكر يتبع بعضها بعضاً، والإنسان

عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها. وإنما يحيط علماً في الغالب بالأسباب التي هي طبيعة ظاهرة، ويقع في مداركها على نظام وترتيب، لأن الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها.

وأما التصورات فنطاقها أوسع من النفس لأنها للعقل الذي هو فوق طور النفس، فلا تدرك الكثير منها فضلاً عن الإحاطة. وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر إلى الأسباب والوقوف معها، فإنه واد يهيم فيه الفكر ولا يحلم منه بطائل، ولا يظهر بحقيقة: ﴿**قل الله. ثم ذرهم في خوضهم يلعبون**﴾[1] وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء إلى ما فوقه فزلت قدمه وأصبح من الضالين الهالكين. نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين ولا تحسبن أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه في قدرتك واختيارك بل هو لون يحصل للنفس، وصبغة تستحكم من الخوض في الأسباب على نسبة لا نعلمها، إذ لو علمناها لتحرزنا منها بقطع النظر عنها جملة. وأيضاً فوجه تأثير هذه الأسباب في الكثير من مسبباتها مجهول، لأنها إنما يوقف بالعادة لاقتران الشاهد بالإسناد إلى الظاهر، وحقيقة التأثير وكيفيته مجهولة: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾[2]، فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها وإلغائها جملة، والتوجه إلى مسبب الأسباب كلها وفاعلها وموجدها لترسخ صفة التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع الذي أعرف بمصالح ديننا، وطرق سعادتنا لإطلاعه على ما وراء الحسّ قال ﷺ: «من مات يشهد لا إله إلاَّ الله دخل الجنة». فإن وقف عند تلك الأسباب فقد انقطع وحقت عليه كلمة الكفر وإن سبح في بحر النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحداً بعد واحد فأنا الضامن له أن لا يعود إلا بالخيبة. فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب. وأمرنا بالتوحيد المطلق: ﴿**قل هو الله أحد* الله الصمد* لم يلد ولم يولد* ولم يكن له كفواً أحد***﴾[3].

---

(1) سورة الأنعام آية 91. (2) سورة الإسراء آية 85.

(3) مقدمة ابن خلدون ص 423 - 424 كتاب الشعب.

فابن خلدون في إقامته البرهان العقلي على التوحيد سلك بنا ـ في بيانه ـ الطرق التالية:

أولاً: بيّن أن جميع الحوادث في عالم الكائنات، سواء منها ما كان من جنس الذوات، أو من نوع الأفعال. لابدّ لها من أسباب متقدمة عليها. بها تقع في مستقرّ العادة، وعنها يتمّ كونها أي وجودها. وكل واحد من هذه الأسباب حادث، أي لم يكن موجوداً من قبل فوجد.

ثانياً: هذه الأسباب لم توجد من ذاتها بل وراءها أسباب أخرى بها وقعت وعنها وجدت.

ثالثاً: هذه الأسباب تتسع وتبتعد في ارتفاعها حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا إلّه إلاّ هو.

رابعاً: تلك الأسباب في ارتقائها تتفسح وتتضاعف طولاً وعرضاً ويحار العقل في إدراك ارتقائها، لأن تصور هذا الارتقاء وإدراك أبعاده ـ وهو يتسع طولاً وعرضاً ـ يخرج عن نطاق العقل البشري المحدود. ويؤول الأمر به إلى العجز. حيث لا يحصر الأسباب في تفسحها وتضاعفها طولاً وعرضاً. وفي ارتقائها حتى تنتهي إلى مسببها وخالقها إلاّ العلم المحيط أي علم الله الذي ﴿**لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر**﴾[1].

خامساً: ان الأفعال البشرية والحيوانية من جملة أسبابها ـ حسب ما هو مشاهد في عالم الطبيعة ـ القصود الدافعة إليها، والإرادات الآمرة والحاثة على فعلها. والقصود والإرادات أمور نفسانية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضاً. وتلك التصورات هي أسباب قصد الفعل. وقد تكون أسباب تلك التصورات تصورات أخرى. وهكذا إلى مستوى يعجز العقل عن إدراك تتابع التصورات بعضها وراء بعض.

---

(1) سورة سبأ آية 3.

سادساً: كل ما يقع في النفس من التصورات مجهول سببه. إذ لا يطلع أحد على مبادىء الأمور النفسانية، ولا على ترتيبها. إنما هي أشياء يلقيها الله في الفكر يتبع بعضها بعضاً.

سابعاً: إذا كانت التصورات الواقعة في النفس هكذا شأنها من جهل لبدايتها ولترابطها ولتتابع بعضها مع بعض. فالإنسان عاجز عن إدراك سرّ مبادىء الأمور في ذاتها وفي داخله. إذ لا يحيط علماً إلا بالأسباب التي هي طبيعة ظاهرة وقريبة منه، والتصورات ليست من الأمور الظاهرة، ولا الواضحة المنبع، وبذلك كان نطاقها أوسع من النفس ومدركاتها، فلا تدرك منها إلاّ القليل الملاصق لظاهر الطبيعة. أما البعيد منها فليس في استطاعتها الإحاطة به.

ثامناً: من أجل أن التصورات نطاقها أوسع من النفس، ومما تملك من وسائل الإدراك، فعلى الإنسان ذي العقل الواعي الرشيد أن يمعن النظر، ويتأمل بعمق في حكمة الشارع، في نهيه عن النظر إلى الأسباب والوقوف معها. حتى يتبين له أن الشارع لم ينهه ليحدد من عقله، وإنما نهاه ليضعه في النهج الواضح. في المعالم الهادية، وبذلك لا يقع في تيه النظر وفي الضياع وراء الاحتمالات، وسراب التخيلات، وهي واد يهيم فيه الفكر ويتسع به الهيام ثم يرجع بعد طول العناء لم يحصل منه على طائل، ولم يظفر بحقيقة.

تاسعاً: النهج الواضح ذي المعالم الهادية، في مجال الغيب ذلك الغيب الذي غاب عن الحواس وعجز عن إدراكه العقل هو الوحي المقدس بعطائه غير المحدود.

وعطاء الوحي الشامل لعالمي الغيب والشهادة هو العطاء الحق الذي ينير للعقل الطريق فيوصله إلى يقين المعرفة ومسلمات العلم.

عاشراً: إذا ما قطع الإنسان نظره عن متابعة الأسباب ولم يقصر همّه في الوقوف عندها، وتوجّه بكليته إلى معرفة ومسبب الأسباب كلّها وفاعلها وموجدها

لترسخ صفة التوحيد في نفسه. على ما علّمه الشارع الذي هو أعرف بمصالح دينه، وطرق سعادته، لإطلاعه على ما وراء الحسّ كان من الواعين المدركين للحقيقة، ومن المؤمنين الصادقين الذين بشّرهم الرسول الأكرم ﷺ بقوله: «من مات يشهد لا إلّه إلا الله دخل الجنة»[1].

ومن قصّر همّه في متابعة الأسباب، وفي الوقوف عندها وقوفاً ينسيه التوجه إلى موجد الأسباب وخالقها، تاه وضلّ الطريق وحقّت عليه كلمة الكفر وكان من الخاسرين.

وهذا من ابن خلدون عطاء يمثل الاعتدال، وتأويل سنده الوحي المقدس، وصدق التأمل، وعمق النظر.

النموذج الرابع: من الإمام الشهيد، حسن البنا في كتابه «العقائد» قال ـ متحدثاً عن ذات الله تعالىٰ، ومبيناً أنها أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية ـ: اعلم يا أخي، هدانا الله وإياك إلى الحق، ان ذات الله تبارك وتعالىٰ أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية، أو تدركها الأفكار الإنسانية لأنها مهما بلغت من العلو والإدراك محدودة القوة، محصورة القدرة[2]. ثم بيّن أن عقولنا، ومن أكبرها إلى أصغرها تنتفع بكثير من الأشياء ولا تعلم حقائقها مثل الكهرباء والمغناطيس، وغيرهما. مع إبداء رأيه في أن معرفة حقائق الأشياء وذواتها لا تفيد الناس بشيء ويكفيهم أن يعرفوا من خواصها ما يعود بالفائدة عليهم. إلى أن قال:

فإذا كان هذا شأننا في الأمور التي نلمسها ونحسها فما بالك بذات الله تبارك وتعالىٰ؟!![3].

---

(1) حديث صحيح اخرجه البخاري ومسلم بصيغة «ما من عبد قال: لا إله إلّا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنّة» وبصيغة «ذاك جبريل اتاني فقال: من مات من امتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» (من كتاب: شرح السنة للإمام البغوي ج 1 ص 96 وص 100.

(2) (3) من كتاب العقائد لمؤلفه حسن البنا تحقيق، رضوان محمد رضوان سنة 1371هـ ص 13 - 14.

وهنا بين أن التكلم عن ذات الله يؤدي إلى الضلال، وإلى ابتغاء الفتنة المؤدية إلى الهلاك، وأيد ما ذهب إليه بحديث مروي عن ابن عباس فقال: وقد ضلّ أقوام تكلموا في ذات الله تبارك وتعالىٰ فكان كلامهم سبباً لضلالهم وفتنتهم واختلافهم لأنهم يتكلمون فيما لا يدركون تحديده ولا يقدرون على معرفة كنهه، ولهذا نهى رسول الله ﷺ عن التفكير في ذات الله وأمر بالتفكر في مخلوقاته.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن قوماً تفكروا في الله ـ عزّ وجلّ ـ فقال النبي ﷺ: «تفكّروا في خلق الله، ولا تفكّروا في الله فإنكم لم تقدروا قدره». وعلّق على هذا الحديث بقوله: قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب بإسناد أصحّ منه ورواه أبو الشيخ كذلك، وهو على كل حال صحيح المعنى[1].

ثم تأول المعنى المراد من الحديث فقال:

وليس ذلك حجراً على حرية الفكر، ولا جموداً في البحث، ولا تضييقاً على العقل، ولكنه عصمة له من التردّي في مهاوي الضلالة، وإبعاده له عن معالجة أبحاث لم تتوفر له وسائل بحثها ولا تحتمل قوته مهما عظمت، علاجها[2].

وبعد هذا انتقل إلى بيان صفاته تبارك وتعالىٰ في نظر العقل السليم فقال: أنت إذا نظرت إلى هذا الكون وما فيه من بدائع الحكم، وغرائب المخلوق، ودقيق الصنع، وكبير الاحكام، مع العظمة والاتساع، والتناسق والإبداع، والتجدد والاختراع ورأيت هذه السماء الصافية بكواكبها وأفلاكها وشموسها وأقمارها ومداراتها ورأيت هذه الأرض بنباتها وخيراتها ومعادنها وكنوزها وعناصرها وموادّها ورأيت عالم الحيوان وما فيه من غريب الهداية والإلهام، بل

---

(1) (2) من كتاب «العقائد» لمؤلفه حسن البنا تحقيق رضوان محمد رضوان سنة 1371هـ ص 13 - 14.

لو رأيت تركيب الإنسان وما احتواه من أجهزة كثيرة، كل يقوم بعمله، ويؤدي وظيفته، ورأيت عالم البحار وما فيه من عجائب وغرائب، وعرفت القوى الكونية وما فيها من حكم وأسرار من كهرباء ومغناطيس وأثير، وراديوم، ثم انتقلت من النظر إلى ذوات العالم وأوصافها، إلى الروابط والصلات فيما بينها، وكيف أن كلا منها يتصل بالآخر اتصالاً محكماً وثيقاً بحيث يتألف من مجموعها وحدة كونية كل جزء منها يخدم الأجزاء الأخرى كما يخدم العضو في الجسم الواحد بقية الأعضاء لخرجت من كل ذلك، من غير أن يأتيك دليل أو برهان، أو وحي أو قرآن بهذه العقيدة النظرية السهلة وهي:

أن لهذا الكون خالقاً صانعاً موجوداً، وان هذا الصانع لابدّ أن يكون عظيماً فوق ما يتصوّر العقل البشري الضعيف من العظمة، وقادراً فوق ما يفهم الإنسان من معاني القدرة، وحيّا بأكمل معاني الحياة، وانه مستغن عن كل هذه المخلوقات لأنه كان قبل أن تكون، وعليماً بأوسع حدود العلم، وانه فوق نواميس هذا الكون لأنه واضعها، وانه قبل هذه الموجودات لأنه خالقها، وبعدها لأنه الذي سيحكم عليها بالعدم، واجمالاً سترى نفسك مملوءاً بالعقيدة بأن صانع هذا الكون ومدبّره: متصف بكل صفات الكمال فوق ما يتصورها العقل البشري الصغير، ومنزّه عن كلّ صفات النقص، وسترى هذه العقيدة وحي وجدانك لوجدانك وشعور نفسك لنفسك: ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم**﴾[1] ـ[2].

ثم أعقب بيانه هذا بملاحظات ثلاث:

الأولىٰ: لفت بها النظر إلى الهواء وما فيه من أسرار، وما في تركيبه من إبداع ومن خصائص بعضها ينفع النبات وبعضها ينفع الإنسان فيتنفس كل منهما ما ينفعه ويطرد عن نفسه وعن غيره ما يضره.

---

(1) سورة الروم آية 30.

(2) كتاب «العقائد» ص 27 - 28.

ومن دقيق الحكمة في هذا ما يجعلنا ننتبه إلى الرابطة التعاونية بين الإنسان والنبات، في أن كلا منهما يأخذ من الهواء الذي هو عنصر أساسي من عناصر الحياة ما ينفعه ويحفظ له حياته.

ومن دقيق الحكمة في هذا المجال أيضاً ما نجده في الوجود من دقائق الارتباط بين وحداته ارتباطاً يعجز الإنسان عن إدراك كنهه عجزاً يؤدي به إلى أن يسلم بعقله وبجميع ما يملك من مواهب إلى أنه لا يفعل هذا في الكون الا خالق مبدع عظيم ليس لعظمته نهاية، قادر ليس لقدرته حدود، واسع العلم ويحيط علمه بكل شيء، دقيق الحكمة ويشمل بحكمته كل مخلوق.

الثانية: لفت بها النظر إلى الطعام وإلى عناصره النباتية والحيوانية وكيف تطالبه وتتلقاه أجهزة الغذاء في الإنسان والحيوان، ثم كيف توزعه بأسلوب وبطرق على غاية من الفاعلية ومن الإحكام والدقة، بداية من هضم الريق ومن إذابته للمواد القابلة للذوبان، إلى هضم المعدة وما يصنعه عصيرها في المواد الزلالية، إلى ما تقوم به أجهزة الهضم، من هضم وتجزئة وامتصاص وهي متعددة منها الصغير والكبير، ومنها المصفي والموزع، والمحول والعازل، والممتص والمتغذي والمتخلص والدافع، وفي خاتمة الملاحظة لفت النظر إلى ما بين جميع هذه الأجهزة من ارتباط عجيب، تتم به عملية الهضم والتغذية بأيسر وأتقن وأحسن عمليات الطلب والتلقي والانتفاع. كما لفت النظر في مجال الطعام والغذاء إلى ما يوجد بين عناصر الجسم البشري وعناصر النبات والأغذية التي يتغذى بها الإنسان من ارتباط عجيب ينبىء عن عظيم القدرة وبالغ الحكمة. وكل ذلك لا يكون إلا من خالق قادر، مبدع حكيم، يتصف بكل كمال ويتنزّه عن كل نقص.

الثالثة: لفت بها النظر إلى عالم النبات وما فيه من دقائق الإبداع ومن مختلف الألوان، ومن عديد الأصناف،ومن شتى ما يجذب حواسنا وما لها من

رؤية وسماع وشمّ، وذوق، ولمس، وما يسمو بالعقل ليرى جلال الخالق القادر الذي لا إلّه غيره، ويحلق بالوجدان ليدرك عظمة المبدع المصور الذي لا يشاركه في ملكه وفيما يبدع ويصور أحد.

ثم ختم هذه الملاحظات بقوله:

كل ما في هذا الكون ينبئك بوجود حكمة عالية، وإرادة سامية، وسيطرة قويّة ونواميس في غاية الدقة والإحكام يسير عليها هذا الوجود. وربّ هذه الحكمة، وصاحب هذه العظمة، وواضع هذه النواميس هو: الله.

وقد أفاض القرآن في ذلك، وفي لفت الأنظار إلى هذه الحكم البارعة، والأسرار العالية، فلا تكاد تخلو سورة من سوره من ذكر آلاء الله ونعمه ومظاهر قدرته وحكمته، وحثّ الناس على تجديد النظر في ذلك، ودوام التفكر فيه.

قال تعالىٰ: ﴿**ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم إن في ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿**الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون* وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين* فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إنّ ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير***﴾[2].

(1) سورة الروم آيات 20 - 24.

(2) سورة الروم آيات 48 -49 -50.

وغير ذلك كثير من صورة الرعد والقصص، والأنبياء، والنمل وق، وغيرها من سور القرآن الكريم[1] وأعقب هذا بذكر جملة من الآيات التي تلفت نظر العباد إلى بعض الصفات الواجبة لله تعالىٰ، والتي يقتضيها كمال الألوهية، وهي في لفتها الأنظار توجه العباد إلى ما تحمله من حيث إشاراتها وإيحاءاتها ومن حيث أبعاد معانيها، من أدلة تجعل العقل يقتنع بيسر، ويسلم بأجلى المعالم، وأوضح الأدلة، وأكمل البراهين بوجود الله، وباتصافه بكل كمال، وتجعل القلب يؤمن بذلك كمال الإيمان كما تجعلهما ـ أي العقل والقلب ـ عند أولي الوعي واليقظة والرشد في غنى عما يريد الفلاسفة والمقلدون لهم المتأثرون بأساليبهم أن يجروهم إليه ويشغلوهم به، من أدلة ـ في أغلبها عقيمة لا تعطي يقيناً، ومن براهين أكثرها ممعن في الافتراضات التي يناقض بعضها بعضاً، ثم تنتهي في آخر مطافها إلى هدم ما بنته، وإلى تسليم من يرجو منها يقين المعرفة، الى الفراغ وإلى المتاهات التي تضيع فيها الحقيقة، وتنعدم عندها المعرفة.

وتتناول هذه الآيات بما فيها من لفت النظر. وبما تحمله من تدليل وبرهنة بيان الصفات الواجبة لله تعالىٰ والتي يريد القرآن الكريم بذكرها وتعدادها إرشاد العقول إلى معرفة الله تعالىٰ وإلى تقريب مواهبها من إدراك كمال الذات العلية وهذه الصفات التي تناولتها الآيات بالذكر هي:

الوجود والقدم، والبقاء، ومخالفته سبحانه وتعالىٰ للحوادث، وقيامه بنفسه، ووحدانيته وحياته، والقدرة والإرادة، والعلم، والسمع، والبصر والكلام.

ثم ختم ما ذكره من آيات وما بينه من صفات بما عنونه بقوله (صفات الله لا تتناهى) فقال: وصفات الله تبارك وتعالىٰ في القرآن الكريم كثيرة، وكمالاته

---

(1) كتاب «العقائد» للشيخ البنا ص 31 - 33.

تبارك وتعالىٰ لا تتناهى، ولا تدرك كنهها عقول البشر، سبحانه لا نحصي ثناء عليه كما هو أثنى على نفسه[1].

وبما ذكرت ـ في مجال العقيدة ـ من نماذج ـ وإن كانت غير عامة وشاملة ـ فهي تمثل عطاء المعتدلين، وهو ـ سواء كان من القدامى او الجدد ـ عطاء يثري الفكر الإسلامي بصفة خاصة، ويجدي العقل البشري بصفة عامة، بأسلوب ينطلق أساساً من الوحي المقدس ـ القرآن والسنّة ـ لأنهما يمدان البشر بما ليس في مستطاع مداركهم المجردة الوصول إليه ولا يهمل ـ مع انطلاقه من الوحي المقدس ـ العقل الواعي الرشيد في أن تكون له مساهمة في التأمل والتدبر، وفي الاعتبار والاستنتاج، وفي الاجتهاد والاستنباط. وفي تتبع مسالك العلم ودروب المعرفة للوصول إلى معرفة الحقيقة وإلى الإيمان بالحقّ.

ـ في مجال الفقه والتشريع، أعطى المعتدلون عطاء لا يجد الناس مثله، في الاتساع والإحاطة والشمول، حيث اتسع وأحاط وشمل جميع شؤون الناس ومشاكلهم وقضاياهم الحياتية العاجلة منها والآجلة.

وتكونت من عطائهم هذا الواسع اتساع الحياة، اتجاهات مختلفة ومدارس شتى ومذاهب عديدة، منها الفردية ومنها الجماعية. وقد تقدم في الفصل الثالث من الباب الأول الحديث عن المدارس الفقهية وما تولد منها من مذاهب جماعية بما فيه الكفاية.

وإتماماً لما تقدم اشير هنا إلى أنه مع المذاهب الجماعية قد وجدت مذاهب فردية تمثّلت في فتاوى بعض التابعين وبعض تابعيهم الذين لم يتح لهم نشر آرائهم مختلطة بآراء أصحابهم وأتباعهم حتى تصبح مذاهب جماعية مثل غيرها من المذاهب التي أتيح لها الانتشار واستجاب لها الأتباع والأنصار، ومع ذلك فقد بقيت فتاويهم تعطي عطاءها المثمر وتنفع الناس.

---

(1) كتاب العقائد ص 48.

ومن هذه المذاهب الفردية، مذهب عبد الله بن شبرمة (المتوفى سنة 144 هـ) ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قاضي الكوفة المتوفى سنة (148 هـ) والأوزاعي المتوفى سنة (157 هـ) وسفيان الثوري المتوفى سنة (161 هـ) والليث بن سعد المتوفى سنة (175 هـ) وشريك النخعي المتوفى سنة (177 هـ) وسفيان بن عيينة المتوفى سنة (198 هـ) واسحاق بن راهويه المتوفى سنة (238 هـ) وابراهيم بن خالد البغدادي المعروف بأبي ثور المتوفى سنة (246 هـ) وابن جرير الطبري المتوفى سنة (310 هـ).

فجملة هذه المذاهب بما فيها الفردية والجماعية قد بلغت بضعة عشر مذهباً بقي منها الجماعية منتشرة ومستمرة بعطائها في مجتمعات وشعوب الأمة الإسلامية، كما بقي عطاء المذاهب الفردية ـ رغم انقراضها كمذاهب ، يثري الفكر الإسلامي ويعين بمدده العلماء ويفيد الناس بما له من فتاوى وأنظار. وبعد هذه الإشارة أعود إلى بيان عطاء المعتدلين في مجال الفقه والتشريع وبيان الأسباب التي جعلت منه عطاء متسعاً، محيطاً وشاملاً، لا يجد الناس مثله في أي مجتمع من المجتمعات، وفي أي أمة من الأمم غير الأمة الإسلامية.

وأسباب اتساعه وإحاطته وشموله، هي اتساع وإحاطة وشمول المصادر التي استند عليها ومنها نبع فسالت أوديته وانسابت جداوله تروي الناس وتنفعهم وتستجيب لهم في حل مشاكلهم ومعالجة قضاياهم، بما يجعلهم يعيشون حياة طيبة ومستقيمة ـ إذا ما تحاكموا إليها وامتثلوا لقضائها ـ حيث تنير لهم الدروب وتوضح لهم المسالك وتحكم بينهم بالعدل، كما تستجيب في حلها لمشاكلهم، وفي معالجتها لقضاياهم ـ لتقدمهم وتطورهم، ما دام تقدماً مجدياً، وتطوراً رشيداً.

وهذه المصادر أربعة بنص القرآن الذي جددها لنا وأرشدنا إليها بقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم**

في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[1].

فبنصّ هذه الآية الكريمة مصادر الفقه والتشريع أربعة وهي؟ القرآن والسنة، والإجماع، والقياس.

فالأمر بإطاعة الله واطاعة رسوله، أمر باتباع القرآن والسنة، والأمر بإطاعة أولي الأمر من المسلمين أمر باتباع ما اتفقت عليه كلمة المجتهدين من الأحكام لأنهم أولو الأمر التشريعي من المسلمين والأمر برد الوقائع المتنازع فيها إلى الله والرسول، أمر باتباع القياس حيث لا نص ولا اجماع، لأن القياس في ردّ المتنازع فيه إلى الله وإلى الرسول، لأنه إلحاق واقعة لم يرد نصّ بحكمها بواقعة، ورد النص بحكمها في الحكم الذي ورد به النص لتساوي الواقعتين في علّة الحكم، فالآية تدل على اتباع مصادر التشريع الأربعة.

وهذه الآية قد تقدم ذكرها وذكر ما يستفاد منها في الفصل الثالث من الباب الأول[2] وإنما أعدت ذلك هنا لأبني عليه ـ بتفصيل ـ بيان الاتساع والاحاطة والشمول المستفادة من المصادر الأربعة التي استند عليها عطاء المعتدلين في مجال الفقه والتشريع.

ـ فاتساع القرآن، واحاطته وشموله لكل شؤون الحياة وقضاياها نستنتجه ونأخذه من القرآن ومن السنة، ومن الدليل العقلي.

ـ من القرآن: فقد وصف الله سبحانه وتعالىٰ كتابه بقوله: ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان**﴾[3].

فالآية افتتحت ببيان الظرف الزماني الذي بدأ فيه نزول القرآن وهو شهر

---

(1) سورة النساء آية 59.
(2) الباب الأول الفصل الثالث.
(3) سورة البقرة آية 185.

رمضان ـ في ليلة القدر منه ـ تلك الليلة التي وقع التصريح بها في قوله تعالىٰ: ﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر**﴾[1].

وبعد بيان الظرف الزماني الذي بدأ فيه نزول القرآن، أبان سبحانه وتعالىٰ المقصود والهدف من إنزاله. ويتضح ذلك. في:

أولاً: أن إنزاله كان لهداية الناس إلى الصراط المستقيم، وإلى النهج السوي الذي يقيهم ـ إن اهتدوا به ـ من سلوك الطرق المنحرفة ومن اتباع السبل الضالة.

ثانياً: أن آياته بيّنة واضحة يجد فيها العقل ما ينير له طريق يقين المعرفة ويمده بثمرة العلم النافع، ويجد فيها القلب ما يفتح أمامه معالم الإشراق، ويركّز في أعماقه حلاوة الإيمان، وتجد فيها النفس، ما ينمّي في أرجائها الأشواق، ويجلي في آفاقها الآفاق.

ثالثاً: أن هذه الآيات لما لها من وضوح بيان، ومن غزارة عطاء ومن تدفّق إيحاء ودقة إشارة، ولما لها أيضاً من أحكام وعمق في لفت الانتباه، ومن حسن مواجهة في مخاطبة العقل والقلب والنفس، هي فارقة بين الحق والباطل، بين الفضائل والرذائل.

ولفتاً لأنظار الناس حتى لا يغفلوا عما جاءهم به القرآن الكريم من هداية تشمل جميع قضاياهم وشؤونهم في الحياة الدنيا، وترشدهم إلى ما ينتظرهم من جزاء على ما قدّموا لحياتهم الأخرى.

أثنى الله تعالىٰ على كتابه، وبيّن أنه يهدي إلى الصراط المستقيم ويبشّر الصالحين من عباده بالأجر والثواب العظيم، وينذر الكافرين بالعذاب الأليم فقال: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون**

---

(1) سورة القدر آية 1.

الصالحات أن لهم أجراً كبيراً* وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً*﴾[1].

فالذي يستفاد من هاتين الآيتين: أن الله ـ عزّ وجلّ ـ مدح كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ووصفه بما يوضح للناس أنه يشمل ويحيط بهديه جميع ما يهمهم أمره، ويبصرهم بما يجعلهم واعين لرسالتهم ولنتائجها المسرّة، إن أحسنوا القيام بها، ولتبعاتها المحزنة إن أساؤوا القيام بها.

فجاء هذا الوصف الموضح يبيّن للناس ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن القرآن يرشد من اهتدى به للسبيل التي هي أقوم السبل وهي الدين الإسلامي، وملّته الحنيفية السمحاء التي أمر نبيه بأن يعلنها للناس ويدعوهم إليها فقال: **﴿قل إنني هداني ربّي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين*﴾**[2].

الأمر الثاني: أنه يبشر المؤمنين بالله ورسوله الذين يعملون صالح الأعمال فيأتمرون بما أمرهم به وينتهون عما نهاهم عنه، بالأجر العظيم يوم القيامة جزاء ما قدّموا لأنفسهم من عمل صالح.

الأمر الثالث: أنه ينذر الذين لا يصدقون بالمعاد، ولا يقرّون ـ كفراً وعناداً ـ بالثواب والعقاب، فلا يتحاشون ركوب المعاصي ولا يتورعون في التمرغ في أوحال الآثام، ينذرهم بالعذاب الأليم جزاء كفرهم وعنادهم، واجتراحهم الآثام.

وهي أمور توضح ما للقرآن من عموم وشمول ومن إحاطة لا يخرج عن دائرتها شأن من شؤون الناس في دنياهم وأخراهم.

وقد وصف الله كتابه العزيز أيضاً بما يفيد أنه أنزله ليحيط بهديه وبيانه

---

(1) سورة الإسراء آيتا 9 - 10.

(2) سورة الأنعام آية 161.

شؤون الحياة وقضايا الناس فقال تعالىٰ ـ مخاطباً محمداً عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿**ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾[1].

يستفاد من الآية أن القرآن يحيط ببيانه ويشمل بأحكامه كلّ شيء، أي كل ما يحتاج إليه الناس في مسيرتهم الحياتية، سواء في مظهرها الدنيوي أو مآلها الأخروي، إذ هو بأحكامه الكلية والجزئية وبقواعده العامة، وبتوجيهاته الشاملة، لم يترك شيئاً من أمور الناس وقضاياهم إلا وأبانه.

ولتوضيح كيف أن القرآن يحيط ببيانه كل شيء ـ كما يستفاد من الآية ـ اتجه العلماء المفسرون بأنظارهم إلى الكشف عن ذلك، اعتماداً على ما أثر عن بعض الصحابة من بيان وتأويل، واستناداً على أقوال بعض الأئمة المجتهدين وعلى تعليل الفقهاء المبين لمعطيات العموم والشمول.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: قال ابن مسعود: قد بيّن لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء[2].

وهذا من ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ الصحابي الجليل، الآخذ مباشرة من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمتخرج من مدرسته، بيان لعموم القرآن، وشموله لكل شيء من قضايا الناس ومن شؤون الحياة.

وأضاف ابن كثير لبيان ابن مسعود وتأويله بياناً وتأويلاً فقال: إن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون من أمر دينهم ودنياهم، ومعاشهم ومعادهم[3].

ثم أشار إلى أن القرآن كان مبيناً لكل شيء بضميمه بيان السنة إليه فقال: قال الأوزاعي: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء**﴾ أي بالسنة[4].

---

(1) سورة النحل آية 89.

(2) (3) (4) تفسير ابن كثير ج 4 ص 513.

وقال الخازن في تفسيره «لباب التأويل في معاني التنزيل»: وقال أهل المعاني: ﴿تبياناً لكل شيء﴾ يعني من أمور الدين، اما بالنص عليه أو بالإحالة على ما يوجب العلم به من بيان النبي ﷺ لأن النبيّ ﷺ بيّن ما في القرآن من الأحكام والحدود، والحلال والحرام وجميع المأمورات والمنهيات، وإجماع الأمة، فهو أيضاً أصل ومفتاح لعلوم الدين[1].

وقال الفخر الرازي في تفسيره ـ مبيناً رأي الفقهاء في تعليلهم أن القرآن تبيان لكل شيء ـ : وأما الفقهاء فإنهم قالوا: القرآن إنما كان تبياناً لكل شيء، لأنه يدل على أن الإجماع وخبر الواحد والقياس حجة، فإذا ثبت حكم من الأحكام بأحد هذه الأصول كان ذلك الحكم ثابتاً بالقرآن[2].

وبهذا فالقرآن الكريم بهدايته وإرشاده، وبدلالة آياته وأبعاد معانيها، وبأحكامه الكلية والجزئية، وبقواعده العامة، وبتوجيهاته الشاملة يحيط بجميع ما يجعل الناس ـ إذا ما اهتدوا به ـ يسلكون في مسيرتهم مسلك الحق ويتجنبون طريق الباطل، كما يعمّ ويشمل جميع القضايا والشؤون شمولاً يجعلهم على بيّنة من أمرهم، وعلى وضوح في رؤيتهم من معارف إلهية تزكي نفوسهم وتطهر قلوبهم، وتنير عقولهم.

ومن أحكام عملية تعرفهم بواجبهم وتبصرهم بحقوقهم وتعلمهم تنظيم معاملاتهم وترشدهم إلى طرق الوفاء بعهودهم سواء منها التي بينهم وبين خالقهم أو بينهم وبين أنفسهم أو بينهم وبين غيرهم من الناس، أو بينهم وبين عناصر الكون وأجناس الخلق التي تحيط بهم ويتفاعلون معها.

ولكون القرآن يحيط ويعمّ ويشمل كل قضايا الناس وجميع شؤونهم في حياتهم العاجلة منها والآجلة، وأنه موجه ومخاطب به كل العباد لا فرق بين

---

(1) تفسير الخازن ج 3 ص 172.

(2) تفسير الرازي مج (19 - 20) ج 20 ص 99.

أجناسهم ونحلهم وأديانهم ومذاهبهم، خاطب نبيّه محمداً عليه الصلاة والسلام ـ الذي أنزل عليه كتابه، بما يبيّن له ولكافة الناس:

أولاً: أن القرآن حقّ من كل الوجوه فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿**وبالحق أنزلناه وبالحق نزل**﴾[1] فالمستفاد من هذه الآية هو أن الله تعالىٰ ما أنزل كتابه إلا لتقرير الحق، وقد جعله لا يشتمل إلا على الحق، فهو كتاب أنزل إلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ محفوظاً محروساً لم يشب بغيره، ولا زيد فيه ولا نقص.

ونزل متضمناً للحق أي لما أراد الله أن يطلع عباده عليه من أحكامه وأمره ونهيه ومن كل ما تنتظم به حياتهم وعليه تستقيم.

جاء في تفسير الفخر الرازي ضمن تأويله لهذه الآية قوله: **الحق** هو الثابت الذي لا يزول كما أن الباطل هو الزائل الذاهب.

وهذا الكتاب الكريم مشتمل على أشياء لا تزول وذلك لأنه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والإكرام، وعلى تعظيم الملائكة، وتقرير نبوة الأنبياء، وإثبات الحشر والنشر والقيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال، ومشتمل أيضاً على شريعة باقية لا يتطرق إليها النسخ والنقص والتحريف، وأيضاً فهذا الكتاب كتاب تكفّل الله بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ فكان هذا الكتاب حقّاً من كل الوجوه[2].

ثانياً: أنه ليس لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا للذين آمنوا به وصدقوا برسالته أن يحكموا بين الناس بغير ما أنزل عليه فقال تعالىٰ: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله**﴾[3].

فالمستفاد من الآية هو أن الله أنزل كتابه الكريم على محمد صلوات الله

---

(1) سورة الاسراء آية 105.
(2) تفسير الرازي مج (21 - 22) ج 21 ص 67.
(3) سورة النساء آية 105.

وسلامه عليه ـ لأجل أن يحكم بين الناس بما أعلمه الله به من الأحكام التي تمثل الحق في أجلى مظاهره والعدل في أروع صوره والتي لا يتمايز الناس أمامها، وهي لخيرهم وإسعادهم في كل زمان ومكان إلى آخر مرحلة من مراحل حياتهم على سطح الأرض لأنها أحكام من الله العليم بما يصلحهم، والخبير بما يسعدهم والحكيم في كل ما يفعل ويريد.

ثالثاً: أنه بعد إنزاله ليس للناس من شريعة غير شريعته، وليس لهم من هدي غير هديه لأن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة على عباده، ونسخ بشريعته جميع الشرائع وجعله الحاكم والمهيمن على سائر الكتب المنزلة من قبله فقال تعالىٰ: ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم عما جاءك من الحق**﴾[1].

فالمستفاد من الآية هو أن الله سبحانه وتعالىٰ خاطب نبيه محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفي ذلك من التعظيم والتشريف ما لا يخفى كسائر ما في خطابه سبحانه وتعالىٰ لنبيه الأكرم وبيّن له عظمة وشرف ما أنزل عليه وهو القرآن الكريم الذي أكمل به الدين ونسخ بشريعته جميع الشرائع السابقة له، وجعله مشتملاً على الحق، ومقرراً له لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مصدقاً لما تقدمه من الكتب الإلٰهية ومهيمناً وشهيداً عليها بما بينه من حقيقة أمرها وما آلت إليه من تحريف وتبديل على أيدي من خوطبوا بها الذين وصفهم الله فقال ـ عن اليهود ـ: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظّاً مما ذكروا به**﴾[2].

وقال ـ عن النصارى ـ: ﴿**ومن الذين قالوا: إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظّاً مما ذكّروا به**﴾[3].

---

(1) سورة المائدة آية 48.
(2) سورة المائدة آية 13.
(3) سورة المائدة آية 14.

وإذا كان شأن القرآن من الكتب السابقة ومكانته منها هو أنه رقيب وشهيد عليها وإن شريعته ناسخة لجميع الشرائع، فلا هدي إلا هديه، ولا شريعة إلا شريعته تبين أنه كتاب الله إلى الناس جميعاً وأن شريعته تحيط وتعمّ جميع قضاياهم وشؤونهم وأنهم مخاطبون به إلى يوم القيامة، ومن هنا كان الحكم به يمثّل الحقّ والعدل والحكم بسواه يمثّل الباطل والجور، حيث لا يخلو من الاستجابة للهوى المضلّ وللشهوات الآثمة.

وهذا ما يستفاد من ختام الآية حيث أمر الله رسولـه بقوله: ﴿**فاحكم بينهم بما أنزل الله**﴾ أي بالقرآن والوحي الذي نزّله الله تعالىٰ عليك. ﴿**ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحقّ**﴾ أي لا تنحرف عما جاءك من الحقّ متّبعاً أهواء الناس التي تحجب بصائرهم عن إدراك الحقّ. وشهواتهم التي تعمي أبصارهم عن رؤيته.

هذا من حيث استنتاج اتساع وإحاطة وشمول القرآن من القرآن.

ـ وأما من السنة فنستنتج ذلك ونأخذه من بيانات الرسول الأكرم الفعلية والقولية والتقريرية التي كشفت للناس ودلّتهم على أبعاد القرآن التي تحيط وتسع وتشمل كل الكائنات، وجميع ما للناس من قضايا وشؤون مادية وروحيّة ومن طلبات ورغبات تعينهم وتيسر لهم السير في دروب الحياة، ومن تشوّفات وتطلعات تكشف لهم الحجب عما ينتظرهم في الحياة الأخرى.

ومن أقواله ـ عليه الصلاة والسلام ـ المبينة لما في القرآن الكريم من اتساع في هديه وتشريعه، ومن إحاطة وشمول لكل ما يهم العباد من قضايا وشؤون ومن رغبات وتطلعات. ومن كل ما يتصل بحياتهم القريب منه والبعيد، والحاضر منه والغائب، الحديث المروي عن الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ[1] الذي يصف القرآن ويحدثنا عن أبعاده التي تسع الحياة في ماضيها وحاضرها

(1) تقدم ذكره وتخريجه في الفصل الأول من الباب الثاني ص 288.

ومستقبلها وهو حديث يدلّنا على أن استمداد الناس من القرآن، واستهداءهم بهديه في كل ما تستقيم عليه حياتهم، وينتظم به سلوكهم، ويصلح عليه حالهم، لا ينقطع لأن فيه نبأ الماضي، وخبر المستقبل، وحكم الحاضر، وإن هداه هو الهدى الحقّ، وإن مدده وعطاءه لجميع الخلق ولكل مستويات البشر، لا ينتهي سواء منه المزكّي لنفوس العامة والخاصة من الناس، أو المنمي لمواهبهم والمهذب لمشاعرهم وأحاسيسهم، والمطهر لقلوبهم، والمنظم لعلاقتهم، والمثمّر لمعاملاتهم، وكذلك سواء منه المشبع لنهم العلماء في مجال المعرفة والعلم، أو المغذي لقرائح الحكماء لتفجير منابع الحكمة فيهم لتنساب منهم فتنفع الناس أو الملبي لحاجيات المربين والمعلمين بما يعينهم على الإفادة في مجال التربية والتعليم، أو المستجيب لتطلعات المرشدين والمصلحين بما يقوّيهم على تحمل أعباء الإرشاد والإصلاح . أو المنجد والموجه للقادة وأولي الأمر بما يمكنهم من التغلب على تبعات الريادة وبما يبصرهم بمعالم الحقّ والعدل في ميدان الحكم ، وفي مجال إعطاء المثل في حسن القيادة.

ـ ومن حيث استنتاج سعة هدي القرآن وإحاطته وشموله بطريقة عقلية سندها الدليل والبرهان، هو أن العقل المؤمن بأن القرآن هو آخر الكتب المنزّلة من الله لهداية وتوجيه عباده، وبأن ما اشتمل عليه من هدي وتشريع هو آخر هدي يهدي الناس ويرشدهم، وآخر تشريع أراده الله لهم ليحتكموا إليه فيحكم بينهم بالعدل والإنصاف وبمنهج مبرأ من الهوى المضلّ الذي يدفع بهم إلى الفساد والإفساد، ومن الشهوات الآثمة التي تسوقهم إلى مراتع الخسران ومواطن الهلاك.

والمؤمن أيضاً بأن هديه سيصحب العباد يهديهم ويوجههم إلى آخر مرحلة من مراحل مسيرتهم الكبرى التي لا تنتهي إلا بانتهاء مسيرة الكون المحيط بهم

في مظهره المشاهد﴿يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات﴾[1] وبأن شريعته هي التي تحكم بينهم بالعدل من أجل العدل، وتحملهم على الحق من أجل الحقّ، وتنظم حياتهم على الإخاء والمودة من أجل الإخاء والمودة، وعلى الرحمة والشفقة من أجل الرحمة والشفقة، وعلى التعاون على البرّ ونشر الخير من أجل البرّ والخير.

فالعقل المؤمن والمصدق بكل هذا لا يسعه إلا أن يؤمن ويصدّق بكل ما في الإيمان من معنى، وبكل ما في التصديق من دلالة، بأن القرآن تام في هديه، كامل في تشريعه، وإلا لما كان الكتاب الخاتم المهيمن، ولما كان الخطاب الموجّه من الله لكافة عباده في جميع أمكنتهم وأزمنتهم إلى يوم القيامة.

ومن هذه الرؤية الواضحة لا يسع العقل أيضاً أمام تمام هدي القرآن وكمال تشريعه إلا أن يسلم بأنه يسع ويحيط ويشمل بهديه وتشريعه جميع شؤون الحياة وقضايا الناس، وبأنه صالح لكل زمان ومكان، وبأن الناس كلما التجؤوا إليه وطلبوا منه أن يمدهم بما عليه تصلح حياتهم وتنتظم به مسيرتهم إلا وأمدهم من غير أن ينقطع مدده، وأغدق عليهم من عطائه من غير أن ينفد عطاؤه، وهذا ما تقدم التصريح به في الحديث النبوي الشريف من قوله عليه الصلاة والسلام، وهو يصف عطاء القرآن الذي لا ينفد: «ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه».

ومن هذه الرؤية الواضحة أيضاً التي لا شكّ فيها ولا ريب حيث هي مؤيدة بأدلة يقينية وبتصديق الواقع لها لا يسع العقل البشري الواعي وخاصة العقل المصدق برسالة الله للعباد إلا أن يسلم ويؤمن بأن سعة القرآن الكريم وشموله وإحاطته بكل القضايا والشؤون يحصل ذلك بأمرين:

---

(1) سورة ابراهيم آية 48.

الأمر الأول: بهديه الشامل الواضح الجلي، وبأحكامه الصريحة البينة في عبارتها ونظمها، الجلية في معانيها ومقاصدها، المحكمة في مراميها وأهدافها.

الأمر الثاني: بتدبر المؤمنين المجتهدين من أولي العلم والمعرفة الفقهاء في أبحاثهم وأنظارهم، آياته وتأويلهم لأبعاد معانيها، ولمرامي إيحائها وإشاراتها وباستعاناتهم في تدبرهم وتأويلهم بالسنة النبوية المبينة له. وبإخلاصهم وبذل أقصى ما عندهم من جهد في استنباطهم واستنتاجهم للأحكام المسايرة لقضايا الناس المستجدة، ولتطورهم الرشيد غير المنحرف عن جادة الصواب، وسبل الحق، بهذين الأمرين يسلم العقل ويؤمن بأن القرآن الكريم يشمل بهديه وتشريعه جميع شؤون الحياة وقضايا الناس، وبأنه صالح لكل زمان ومكان.

ـ واتساع السنة، نستنتجه كذلك من القرآن، ومن السنة، ومن الدليل العقلي.

ـ من القرآن: نستنتج من قوله تعالىٰ: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل إليهم**﴾[1].

في هذه الآية الكريمة بيان من الله لوظيفة السنة، وهي بيان القرآن الكريم ومعلوم أن السنة من حيث المعاني وأبعادها هي من القرآن وإليه ترجع وهذا يؤخذ من قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فأجابت بقولها: «كان خلق رسول ﷺ القرآن»[2] أي لا يخرج في أقواله وأفعاله، وإقراره وفي سلوكه ـ في حياته الخاصة والعامة ـ عن هدي القرآن وتشريعه ومن حيث المبنى هي أوسع لأنها تبين مجمله، وتقيّد مطلقه، وتخصص عامه، وتكشف للناس ما في أمثاله وقصصه من دروس وعبر، ومن هداية وتوجيه، ومن أحكام وتشريع.

---

(1) سورة النحل آية 44.

(2) أخرجه الطبري في تفسيره حول قوله تعالىٰ ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ ج 29 ص 13 وابن كثير في تفسيره حول الآية نفسها ج 8 ص 215 والامام احمد في مسنده ج 6 ص 188.

ومن هنا كانت سعة السنة وشمولها كسعة القرآن وشموله، لأنها مأخوذة منه، وراجعة إليه.

ـ ومن السنة نستنتج ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»[1] ومن المجالات التي شملتها السنة بخطابها وتناولتها ببيانها كما هو مثبت في كتب الصحاح، وفي مقدمتها صحيح البخاري الذي اتفق جمهور العلماء على أنه أصح الكتب بعد القرآن. هذا الكتاب وإن لم يحط بجميع الأحاديث الصحيحة التي يجدها الباحث في بقية كتب الأحاديث من جوامع ومسانيد وسنن ومستدركات فإن ما اشتمل عليه يدل على ما للسنة النبوية من سعة وإحاطة وشمول، فقد اشتمل على سبعة وتسعين كتاباً وضمن كل كتاب عدة أبواب وهي مرتبة في الذكر كما يلي:

1 ـ كتاب: بدء الوحي وهو يشتمل على ستة أبواب.
2 ـ كتاب: الإيمان، وهو يشتمل على اثنين وأربعين باباً.
3 ـ كتاب: العلم وهو يشتمل على ثلاثة وخمسين باباً.
4 ـ كتاب: الوضوء وهو يشتمل على خمسة وسبعين باباً.
5 ـ كتاب: الغسل وهو يشتمل على تسعة وعشرين باباً.
6 ـ كتاب: الحيض وهو يشتمل على ثلاثين باباً.
7 ـ كتاب: التيمم وهو يشتمل على تسعة أبواب.
8 ـ كتاب: الصلاة وهو يشتمل على تسعة ومائة باب.
9 ـ كتاب: مواقيت الصلاة، وهو يشتمل على واحد وأربعين باباً.
10 ـ كتاب: الأذان وهو يشتمل على ستة وستين ومائة باب.
11 ـ كتاب: الجمعة، وهو يشتمل على واحد وأربعين باباً.
12 ـ كتاب: صلاة الخوف، وهو يشتمل على ستة أبواب.

---

(1) تقدم ذكره وتخريجه في الفصل الثالث من الباب الأول ص 93.

13 ـ كتاب: العيدين، وهو يشتمل على ستة وعشرين باباً.
14 ـ كتاب: الوتر وهو يشتمل على سبعة أبواب.
15 ـ كتاب: الاستسقاء، وهو يشتمل على تسعة وعشرين باباً.
16 ـ كتاب: الكسوف وهو يشتمل على تسعة عشر باباً.
17 ـ كتاب: سجود القرآن وهو يشتمل على اثني عشر باباً.
18 ـ كتاب: تقصير الصلاة وهو يشتمل على عشرين باباً.
19 ـ كتاب: التهجّد وهو يشتمل على سبعة وثلاثين باباً.
20 ـ كتاب: فضل الصلاة وهو يشتمل على ستة أبواب.
21 ـ كتاب: العمل في الصلاة وهو يشتمل على ثمانية عشر باباً.
22 ـ كتاب: السهو، وهو يشتمل على تسعة أبواب.
23 ـ كتاب: الجنائز، وهو يشتمل على ثمانية وتسعين باباً.
24 ـ كتاب: الزكاة وهو يشتمل على ثمانية وسبعين باباً.
25 ـ كتاب: الحج، وهو يشتمل على واحد وخمسين ومائة باب.
26 ـ كتاب: العمرة، وهو يشتمل على عشرين باباً.
27 ـ كتاب: المحصر، وهو يشتمل على عشرة أبواب.
28 ـ كتاب: جزاء الصيد وهو يشتمل على سبعة وعشرين باباً.
29 ـ كتاب: فضائل المدينة وهو يشتمل على اثني عشر باباً.
30 ـ كتاب: الصوم، وهو يشتمل على تسعة وستين باباً.
31 ـ كتاب: صلاة التراويح وهو يشتمل على باب واحد.
32 ـ كتاب: فضل ليلة القدر وهو يشتمل على خمسة أبواب.
33 ـ كتاب: الاعتكاف وهو يشتمل على تسعة عشر باباً.
34 ـ كتاب: البيوع وهو يشتمل على ثلاثة عشر ومائة باب.
35 ـ كتاب: السلم وهو يشتمل على ثمانية أبواب.
36 ـ كتاب: الشفعة وهو يشتمل على ثلاثة أبواب.

37 ـ كتاب: الإجارة، وهو يشتمل على اثنين وعشرين باباً.
38 ـ كتاب: الحوالة وهو يشتمل على ثلاثة أبواب.
39 ـ كتاب: الكفالة وهو يشتمل على خمسة أبواب.
40 ـ كتاب: الوكالة وهو يشتمل على ستة عشر باباً.
41 ـ كتاب: الحرث والمزارعة وهو يشتمل على واحد وعشرين باباً.
42 ـ كتاب: الشرب والمساقاة وهو يشتمل على سبعة عشر باباً.
43 ـ كتاب: الاستقراض وهو يشتمل على عشرين باباً.
44 ـ كتاب: الخصومات وهو يشتمل على عشرة أبواب.
45 ـ كتاب: اللقطة وهو يشتمل على اثني عشر باباً.
46 ـ كتاب: المظالم والغصب وهو يشتمل على خمسة وثلاثين وباباً.
47 ـ كتاب: الشركة وهو يشتمل على ستة عشر باباً.
48 ـ كتاب: الرهن وهو يشتمل على ستة أبواب.
49 ـ كتاب: العتق وهو يشتمل على عشرين باباً.
50 ـ كتاب: المكاتب وهو يشتمل على خمسة أبواب.
51 ـ كتاب: الهبة وهو يشتمل على سبعة وثلاثين باباً.
52 ـ كتاب: الشهادات وهو يشتمل على سبعة وثلاثين باباً.
53 ـ كتاب: الصلح وهو يشتمل على أربعة عشر باباً.
54 ـ كتاب: الشروط وهو يشتمل على تسعة عشر باباً.
55 ـ كتاب: الوصايا وهو يشتمل على ستة وثلاثين باباً.
56 ـ كتاب: الجهاد والسير، وهو يشتمل على تسعة وتسعين ومائة باب.
57 ـ كتاب: فرض الخمس، وهو يشتمل على عشرين باباً.
58 ـ كتاب: الجزية والموادعة وهو يشتمل على اثنين وعشرين باباً.
59 ـ كتاب: بدء الخلق وهو يشتمل على سبعة عشر باباً.
60 ـ كتاب: الأنبياء، وهو يشتمل على أربعة وخمسين باباً.

61 ـ كتاب: المناقب، وهو يشتمل على ثمانية وعشرين باباً.

62 ـ كتاب: فضائل الصحابة، وهو يشتمل على ثلاثين باباً.

63 ـ كتاب: مناقب الأنصار وهو يشتمل على ثلاثة وخمسين باباً.

64 ـ كتاب: المغازي وهو يشتمل على تسعة وثمانين باباً.

65 ـ كتاب: تفسير القرآن، (وهو يشمل سور القرآن من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، وفي كل سورة عدة أبواب حسب الأحاديث الواردة في تفسير السورة من باب واحد في بعض السور كسورة الرعد إلى خمسة وخمسين باباً في سورة البقرة.

66 ـ كتاب: فضائل القرآن، وهو يشتمل على سبعة وثلاثين باباً.

67 ـ كتاب: النكاح، وهو يشتمل على خمسة وعشرين ومائة باب.

68 ـ كتاب: الطلاق وهو يشتمل على ثلاثة وخمسين باباً.

69 ـ كتاب: النفقات، وهو يشتمل على ستة عشر باباً.

70 ـ كتاب: الأطعمة، وهو يشتمل على تسعة وخمسين باباً.

71 ـ كتاب: العقيقة وهو يشتمل على أربعة أبواب.

72 ـ كتاب: الذبائح والصيد وهو يشتمل على ثمانية وثلاثين باباً.

73 ـ كتاب: الأضاحي وهو يشتمل على ستة عشر باباً.

74 ـ كتاب: الاشربة وهو يشتمل على واحد وثلاثين باباً.

75 ـ كتاب: المرضى، وهو يشتمل على اثنين وعشرين باباً.

76 ـ كتاب: الطب وهو يشتمل على ثمانية وخمسين باباً.

77 ـ كتاب: اللباس وهو يشتمل على ثلاثة ومائة باب.

78 ـ كتاب: الأدب وهو يشتمل على ثمانية وعشرين مائة باب.

79 ـ كتاب: الاستئذان وهو يشتمل على ثلاثة وخمسين باباً.

80 ـ كتاب: الدعوات وهو يشتمل على تسعة وستين باباً.

81 ـ كتاب: الرقاق، وهو يشتمل على ثلاثة وخمسين باباً.

82 ـ كتاب: القدر وهو يشتمل على ستة عشر باباً.
83 ـ كتاب: الأيمان والنذور وهو يشتمل على ثلاثة وثلاثين باباً.
84 ـ كتاب: كفارات الأيمان وهو يشتمل على عشرة أبواب.
85 ـ كتاب: الفرائض وهو يشتمل على واحد وثلاثين باباً.
86 ـ كتاب: الحدود وهو يشتمل على ستة وأربعين باباً.
87 ـ كتاب: الديات، وهو يشتمل على اثنين وثلاثين باباً.
88 ـ كتاب: استتابة المرتدين، وهو يشتمل على تسعة أبواب.
89 ـ كتاب: الإكراه، وهو يشتمل على سبعة أبواب.
90 ـ كتاب: الحيل، وهو يشتمل على خمسة عشر باباً.
91 ـ كتاب: التعبير وهو يشتمل على ثمانية وأربعين باباً.
92 ـ كتاب: الفتن، وهو يشتمل على ثمانية وعشرين باباً.
93 ـ كتاب: الأحكام وهو يشتمل على ثلاثة وخمسين باباً.
94 ـ كتاب: التمنّي وهو يشتمل على تسعة أبواب.
95 ـ كتاب: أخبار الآحاد، وهو يشتمل على ستة أبواب.
96 ـ كتاب: الاعتصام بالسنة وهو يشتمل على ثمانية وعشرين باباً.
97 ـ كتاب: التوحيد وهو يشتمل على ثمانية وخمسين باباً[1].

فهذه الكتب بمختلف عناوينها تدل على ما للسنّة من سعة وشمول وإحاطة حيث أبوابها لم تترك ناحية من نواحي العناوين الداخلة تحت شمولها إلّا وبيّنتها، بل هناك أبواب تبيّن نواحي تتصل بها من بعيد لا نتفطن لها بمجرد عناوين الكتب المشتملة عليها، وإنما نتفطن لها بتتبعها باباً باباً.

وكمثال على ذلك أذكر كتابين بما اشتملا عليه من المعاني والقضايا التي تتعرض لها عناوين أبوابها:

(1) عن كتاب فتح الباري لابن حجر بأجزائه 13.

الأول: كتاب بدء الوحي، وعناوين أبوابه هي كما يلي:

1 ـ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ وقول الله ـ جلّ ذكره ـ **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنّبيين من بعده﴾**[1].

2 ـ باب: حديث الحارث بن هشام: كيف يأتيك الوحي.

3 ـ باب: حديث عائشة: أول ما بدىء به ﷺ من الوحي.

4 ـ باب: حديث ابن عباس: كان يعالج من التنزيل شدّة.

5 ـ باب: حديث ابن عباس: كان أجود ما يكون في رمضان.

6 ـ باب: حديث أبي سفيان عند هرقل، والكتاب النبوي إلى هرقل، فهذا الباب السادس، لا يشعر به عنوان الكتاب، ولا يتفطن إليه إلا بالوقوف عليه، وبالتأمل فيما يحتوي عليه من معان.

الثاني: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، وعناوين أبوابه هي كما يلي:

1 ـ :باب قول النبيّ ﷺ ـ :بعثت بجوامع الكلم.

2 ـ : باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ وقول الله تعالىٰ: **﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾**[2].

3 ـ : باب ما يكره من كثرة السؤال، ومن تكلف ما لا يعنيه، وقوله تعالىٰ: **﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾**[3].

4 ـ : باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ .

5 ـ : باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلّو في الدّين والبدع، لقوله

---

(1) سورة النساء آية 163.
(2) سورة الفرقان آية 74.
(3) سورة المائدة آية 101.

تعالىٰ: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحقّ﴾[1].

6 ـ : باب اثم من آوى محدثاً، رواه عليّ عن النبي ﷺ .

7 ـ : باب ما يذكر من ذمّ الرّأي، وتكلف القياس ﴿ولا تقف﴾ لا تقل ﴿ما ليس لك به علم﴾[2].

8 ـ : باب ما كان النبيّ ﷺ يسأل مما لم ينزل عليه الوحي فيقول: لا أدري، أو لم يجب حتى ينزل عليه الوحي، ولم يقل برأي ولا قياس لقوله تعالىٰ: ﴿بما أراك الله﴾[3].

وقال ابن مسعود: سئل النّبيّ ﷺ عن الرّوح فسكت حتى نزلت الآية.

9 ـ : باب تعليم النبيّ ﷺ أمّته من الرجال والنّساء مما علّمه الله ليس برأي ولا تمثيل[4].

10 ـ : باب قول النبيّ ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ ـ هم أهل العلم ـ».

11 ـ : باب قول الله تعالىٰ: ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾[5].

12 ـ : باب من شبّه أصلاً معلوماً بأصل مبيّن وقد بيّن النبيّ ﷺ حكمها ليفهم السائل.

13 ـ : باب ما جاء في اجتهاد القضاء بما أنزل الله تعالىٰ لقوله: ﴿ومن لم

---

(1) سورة النساء آية 171.
(2) سورة الاسراء آية 36.
(3) سورة النساء آية 105.
(4) المراد بالتمثيل القياس وهو إثبات مثل حكم معلوم في آخر لاشتراكهما في علّة الحكم والرأي أعمّ.
(5) سورة الأنعام آية 65.

يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[1] ومدح النبي ﷺ صاحب الحكمة حين يقضي بها ويعلمها، ولا يتكلّف من قبله، ومشاورة الخلفاء، وسؤالهم أهل العلم.

14 ـ : باب قول النبيّ ﷺ : «ولتتبعنّ سنن من كان قبلكم».

15 ـ : باب اثم من دعا إلى ضلالة، أو سنّ سنّة سيّئة. لقول الله تعالىٰ: ﴿**ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم**﴾ الآية[2].

16 ـ : باب ما ذكر النبي ﷺ وحض على اتفاق أهل العلم وما اجتمع عليه الحرمان مكة والمدينة، وما كان بهما من مشاهد النّبيّ ﷺ والمهاجرين والأنصار، ومصلّى النّبيّ ﷺ والمنبر والقبر.

17 ـ : باب قول الله تعالىٰ: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾[3].

18 ـ : باب ﴿**وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً**﴾[4] وقوله تعالىٰ: ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن**﴾[5].

19 ـ : باب ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً**﴾[6] وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم.

20 ـ : باب إذا اجتهد العامل ـ أو الحاكم ـ فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود، لقول النبي ﷺ «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ».

21 ـ : باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ.

---

(1) سورة المائدة آية 45.
(2) سورة النحل آية 25.
(3) سورة آل عمران آية 128.
(4) سورة الكهف آية 54.
(5) سورة العنكبوت آية 46.
(6) سورة البقرة آية 43.

22 ـ : باب الحجّة على من قال إن أحكام النّبيّ ﷺ كانت ظاهرة وما كان يغيب بعضهم عن مشاهدة النّبيّ ﷺ وأمور الإسلام.

23 ـ : باب من رأى ترك النكير من النّبي ﷺ حجة، لا من غير الرسول.

24 ـ : باب الأحكام التي تعرف بالدلائل، وكيف معنى الدلالة وتفسيرها، وقد أخبر النّبي ﷺ أمر الخيل وغيرها، ثم سئل عن الحمر فدلّهم على قوله تعالىٰ: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره**﴾[1]. وسئل النبي ﷺ عن الضبّ فقال: لا آكله ولا أحرّمه، وأكل على مائدة النبي ﷺ الضبّ، فاستدلّ ابن عبّاس بأنه ليس بحرام.

25 ـ : باب قول النبي ﷺ : «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء».

26 ـ : باب كراهية الاختلاف.

27 ـ : باب نهي النبيّ ﷺ على التحريم، إلا ما تعرف إباحته.

28 ـ : باب قول الله تعالىٰ: ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾[2] ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾[3].

فالأبواب: التاسع وهو: باب تعليم النّبي ﷺ أمّته من الرجال والنساء مما علّمه الله ليس برأي ولا تمثيل. والعاشر، وهو: باب قول النّبي ﷺ : «لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ ـ وهم أهل العلم ـ والثاني والعشرين وهو باب الحجّة على ما قال: إن أحكام النّبيّ ﷺ كانت ظاهرة وما كان يغيب بعضهم عن مشاهد النّبيّ ﷺ على التّحريم. إلا من تعرف إباحته، والثامن والعشرين، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ ﴿**وشاورهم في**

---

(1) سورة الزلزلة آية 7.

(2) سورة الشورى آية 38.

(3) سورة آل عمران آية 159.

الأمر﴾ لا يشعر بها عنوان الكتاب المندرجة تحته وإنما يتفطّن إليها بالوقوف عليها، وبالتأمل في أبعاد معانيها، وهذا من بعد نظر الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ ومن عمق تأمله في إيجاد الصلة بين عنوان الكتاب وأبوابه المبّينة له، والمؤلفة بين مختلف مسائله والجامعة بين عديد قضاياه وإن كانت في بادي الرأي لا ترتبط ببعضها ولا تجتمع تحت عنوان واحد.

ـ ومن الدليل العقلي، يكون استنتاج سعة وشمول السنّة لكل القضايا والشؤون كالتالي:

بما أن وظيفة السنّة، بيان القرآن ـ ومن المعلوم المسلم به هو أن المبيّن يكون ـ حسب أقوم تقدير ـ مساوياً للمبيّن من حيث المعنى والدلالة عليه، وأوسع منه من حيث المبنى ومن حيث منهج التأويل ومن جهة ما يقوم به من شرح وتفسير، ومن بيان وتفصيل.

ومن هنا لا يسع المؤمن بالقرآن، وبوظيفة السنّة، إزاءه، إلا أن يسلم منطقياً وبمقتضى الاستنتاج العقلي، وأن السنة تسع وتشمل وتحيط بكل قضايا الحياة، وبجميع شؤون الناس، وتمدهم بما هم في حاجة إليه من سائر القضايا والشؤون، ومن جميع ما يهمهم أمره.

وبهذا كله يتضح بجلاء سعة وشمول وإحاطة السنة بقضايا الحياة وشؤون الناس وأنها صنْو القرآن في ذلك، وأن المسلمين لا هدي لهم ينير لهم الدروب والسبل إلا هديهما ولا شريعة تقيهم العثرات وتجعل حياتهم مقامة على العدل والإنصاف، وسائرة في منهج الحقّ وطريق الاستقامة إلا شريعتهما.

وهذا ما يستنتج من قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «تركت فيكم شيئين لن تضلّوا بعدهما، كتاب الله وسنّتي ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض»[1].

(1) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ج 1 حرف التاء، وعلق عليه بقوله: اخرجه الحاكم عن أبي هريرة.

ومن وحي هذا التوجيه النبوي اتفق علماء الإسلام وأئمتهم المجتهدون على اعتبار القرآن الكريم والسنّة النبوية هما المصدران الأساسيان في مجال الهدي وفي ميدان التشريع.

وأما المصدران الآخران: الإجماع والقياس. إنما اعتبرا مصدرين من مصادر التشريع الإسلامي من جهة أنهما يرجعان إلى القرآن والسنة، ومن هنا فما يستفاد منهما من إحاطة وشمول ومن سعة لكل القضايا والشؤون، هو تبع لما يستفاد من القرآن والسنة والإجماع ـ حسب اصطلاح الأصوليين ـ هو اتفاق جميع المجتهدين من المسلمين في عصر من العصور بعد وفاة الرسول ﷺ على حكم شرعي في واقعة. وله أركان أربعة:

الأول: أن يوجد في عصر وقوع الحادثة عدد من المجتهدين، لأن الاتفاق لا يتصور إلا في عدّة آراء يوافق كل رأي منها سائرها.

الثاني: أن يتفق على الحكم الشرعي في الواقعة جميع المجتهدين من المسلمين في وقت وقوعها بصرف النظر عن بعدهم، أو جنسهم أو طائفتهم.

الثالث: أن يكون اتفاقهم بإبداء كل واحد منهم رأيه صريحاً في الواقعة سواء أكان إبداء الواحد منهم رأيه قولاً بأن أفتى في الواقعة بفتوى أو فعلاً بأن قضى فيها بقضاء وسواء أبدى كل واحد منهم رأيه على انفراد وبعد جمع الآراء تبين اتفاقها، أم أبدوا آراءهم مجتمعين بأن جمع مجتهدو العالم الإسلامي في عصر حدوث الواقعة وعرضت عليهم، وبعد تبادلهم وجهات النظر اتفقوا جميعاً على حكم واحد فيها.

الرابع: أن يتحقق الاتفاق من جميع المجتهدين على الحكم.

ولصعوبة تحقق هذه الأركان هناك سؤال يثار هو: هل في الإمكان انعقاد الإجماع؟.

وللإجابة عن هذا السؤال للعلماء رأيان:

هناك طائفة قالت: إن الإجماع بأركانه هذه لا يمكن انعقاده[1] وذلك لأن هذه الأركان يتعذر تحققها لانعدام المقياس الذي به يعرف ما إذا كان الشخص بلغ مرتبة الاجتهاد أو لم يبلغها، ولتعذر حصول اليقين من جميع المعطيات والملابسات التي على أساسها يتيّقن من وقوع الإجماع بدون استثناء.

وهناك طائفة أخرى وهم جمهور العلماء، ذهبوا إلى أن الإجماع يمكن انعقاده عادة وقالوا: إن ما ذهب إليه منكرو إمكانه وما استدلوا به لا يخرج عن أنه تشكيك في أمر واقع.

وذلك أن الإجماع قد وقع فعلاً عندما كان المجتهدون معروفين ومجتمعين في مدينة واحدة وهي المدينة المنورة مدينة الإسلام الأولى التي فيها تكوّن المجتمع الإسلامي بجميع خصائصه وتأسست الدولة الإسلامية بكل أبعادها.

ومن أمثلة ما ثبت انعقاد الإجماع عليه: خلافة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وتحريم شحم الخنزير، وتوريث الجدات السدس وحجب ابن الابن من الإرث بالابن وغير ذلك من أحكام جزئية وكلية.

ويعجبني كحلّ توفيقي بين الرأيين، ما ذهب إليه عبد الوهاب خلاف حيث قال: والذي أراه الراجح أن الإجماع بتعريفه وأركانه التي بيناها لا يمكن عادة انعقاده إذا أوكل أمره إلى أفراد الأمم الإسلامية وشعوبها، ويمكن انعقاده إذا تولت أمره الحكومات الإسلامية على اختلافها.

فكل حكومة تستطيع أن تعين الشروط التي بتوافرها يبلغ الشخص مرتبة

---

(1) منهم النظام وبعض الشيعة.

الاجتهاد[1] وأن تمنح الإجازة الاجتهادية لمن توافرت فيه هذه الشروط، وبهذا تستطيع كل حكومة أن تعرف مجتهديها وآراءهم في أي واقعة.

فإذا وقفت كل حكومة على آراء مجتهديها في واقعة واتفقت آراء المجتهدين جميعهم في كل الحكومات الإسلامية على حكم واحد في هذه الواقعة كان هذا إجماعاً، وكان الحكم المجمع عليه حكماً شرعياً واجباً اتباعه على المسلمين جميعهم[2] وفعلاً فإن الحكومات الإسلامية، إذا ما رجعت إلى منهج الرشد وتعالت عن اتباع الهوى الآثم وعن الاستجابة للشهوات الشخصية الأنانية أو المذهبية الضيقة، وأخلصت النصح للإسلام والمسلمين فعادت إلى العمل بالهدي القرآني وبالتوجيه النبوي، كل ذلك منها يمهد السبيل إلى انعقاد إجماع المجتهدين من المسلمين وإلى الاستفادة بثمرات أنظارهم المتابعة للقضايا وللوقائع المستجدة في حياة الناس عامة، وفي حياة المسلمين خاصة لإحاطتها وشمولها بالضبط والتحديد، وبإعطائها أحكاماً ـ حسب الهدي الإسلامي وتشريعه.

خصوصاً والوسائل الميسرة لانعقاد إجماع المجتهدين ـ عند وجودهم ـ والتي لم تكن متوفرة في العصور الماضية، أصبحت متوفرة اليوم، من سرعة الاتصال، ويسر التجمع عند الحاجة في صعيد واحد، وكذلك يسر تبليغ وحدة أنظارهم واتفاقهم على ما استنبطوا واستنتجوا من أحكام، إلى كافة المسلمين في الشرق والغرب.

بجميع هذا ـ إذا ما جدّت الحكومات الإسلامية، وعادت إلى السير في المنهج المستقيم السليم، فمكّنت العلماء المجتهدين ـ عند وجودهم كما قلت ـ

---

(1) في هذا القول نظر لأن الشروط التي يصبح من توفرت فيه اهلاً للاجتهاد لا تعينها الحكومات بل هي معلومة قد اتفق عليها أئمة العلم وأهل الاجتهاد.

(2) كتاب علم أصول الفقه لمؤلفه عبد الوهاب خلاف ص 48 الطبعة العاشرة سنة 1392هـ/ 1972م الناشر دار القلم ـ الكويت.

من فرص التجمع واللقاء، ومن وسائل البحث المعينة على الأخذ والتعمق، والاستنباط والاستنتاج، ومن حرية إبداء آرائهم حسب الهدي الإسلامي، وحكم تشريعه وأبعاد ما يرمي إليه من مقاصد، وما يهدف إليه من مصالح، من تبليغ ما أجمعوا عليه إلى كافة المسلمين في جميع شعوبهم، بمختلف وسائل التبليغ، قصد نشره بينهم والعمل به.

بجميع هذا، يصبح انعقاد الإجماع، وإثماره ممكناً اليوم عكس ما كان عليه في الماضي ـ بعد عهد الصحابة وتجمعهم بالمدينة ـ من صعوبة تصل إلى مستوى الاستحالة.

وإذا ما أمكن انعقاد الإجماع في واقع حياة المسلمين اليوم عاد عطاؤه المفيد بواسطة متابعة القضايا والوقائع المستجدة وإحاطتها بالأنظار والآراء وشمولها باستنباط الأحكام لها وبالحلول النابعة من فيض هدي القرآن والسنة الذي لا ينضب معينه إلى نهاية حياة الناس، وانتهاء دور المسلمين على سطح الأرض. وحجية الإجماع عند جمهور الفقهاء واعتباره المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي يؤخذ من طرق ثلاثة:

الأول: من القرآن الكريم، فالمولى عزّ وجلّ كما أمر المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله أمرهم بطاعة أولي الأمر منهم فقال:

﴿يا أيها الذين آمنو أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

ولفظ الأمر ـ كما جاء في تفسير وتأويل العلماء ـ معناه الشأن وهو عام يشمل الأمر الديني، والأمر الدنيوي، وأولو الأمر الدنيوي هم الملوك والرؤساء وكل من له سلطة عامة دنيوية تجعله من أولي الأمر في المجال الدنيوي. وأولو الأمر الديني هم المجتهدون وأهل الفتيا.

وقد فسر بعض المفسرين وعلى رأسهم ابن عباس: أولي الأمر في هذه الآية بالعلماء وبه قال مجاهد، وعطاء والحسن البصري وأبو العالية. وفسره

آخرون بالأمراء والولاة، والظاهر والأولى التفسير بما يشمل الجميع، وبما يوجب طاعة كل فريق فيما هو من شأنه. فإذا أجمع أولو الأمر في التشريع وهم المجتهدون على حكم وجب اتباعه وتنفيذ حكمهم بنص القرآن وهو قوله تعالىٰ: ﴿**ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم**﴾[1] فأولو الأمر في هذه الآية هم أهل العلم والمعرفة وذوو التعمق في الاستنتاج والتأويل. والله أعلم.

وقد توعّد سبحانه وتعالىٰ من يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين فقال ـ عزّ شأنه: ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيّن له الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيراً**﴾[2] فجعل من يخالف سبيل المؤمنين قرين من يشاقق الرسول وقد ذهب العلماء المفسرون في تأويلهم إلى أن الإجماع هو سبيل المؤمنين الذي يجب اتباعه.

الثاني: من أحاديث الرسول حيث قال عليه الصلاة والسلام: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»[3] وقال: «يد الله على الجماعة»[4] ومن أقوال بعض الصحابة، فقد روي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح»[5].

---

(1) سورة النساء آية 83.

(2) سورة النساء آية 115.

(3)(4) أوردهما صاحب كتاب «تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث» الحديث الأول في صفحة 189 وعلق عليه بقوله: رواه احمد في مسنده والطبراني في الكبير عن أبي نضرة الغفاري مرفوعاً في حديث «سألت ربي ان لا تجتمع أمتي على ضلالة» وفي مسند الحاكم عن ابن عباس ـ رفعه ـ «لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة ويد الله مع الجماعة». الحديث الثاني في ص 193 وعلق عليه بقوله: رواه الترمذي عن ابن عباس به مرفوعاً ـ والله اعلم.

(5) اورده الدكتور صبحي محمصاني في كتابه «فلسفة التشريع في الإسلام» الطبعة الثالثة سنة 1380هـ/ 1961م دار العلم للملايين ـ بيروت. ص 160 وعلق عليه بقوله: قال بعضهم هو =

الثالث: من الاستدلال العقلي، وهو أن العقل ينفي عادة أن يخطىء جميع المجتهدين إذا اتّفقوا على أمر من الأمور، دون أن ينتبه إلى الخطأ واحد منهم. وبما تقدم يتضح أن الإجماع ـ إذا ما توفرت أركانه ـ يمكن أن يقع في أي عصر من عصور المسلمين، على امتداد الحياة، فيحيط بالقضايا المستجدة ويشملها بأنظاره وآرائه وبعطائه المستمدّ من هدي القرآن والسنة.

والقياس ـ حسب اصطلاح الأصوليين ـ هو إلحاق واقعة لا نصّ على حكمها بواقعة ورد النص بحكمها في الحكم الذي ورد به النص لتساوي الواقعتين في علّة هذا الحكم. وهو عند جمهور علماء المسلمين المصدر الرابع من مصادر التشريع، وهذه الرتبة والمكانة ثابتة له بالقرآن والسنة والعقل.

من القرآن يستنتج ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول**﴾ فالمراد بالرد إلى الله وإلى الرسول ـ والله أعلم ـ البعد عن الهوى في استنباط الأحكام، ووجوب الرجوع في ذلك إلى ما شرع الله وذلك يكون:

إما بالبحث عما قد يكون خافياً أو غائباً عن البال من النصوص. وإما بتطبيق القواعد العامة بإلحاق الشبيه بشبيهه. وإما بالتوجه إلى تحقيق المقاصد التي اعتبرها الشارع. فكلّ هذا ردّ إلى الله ورسوله.

ومن السنّة يستنتج من عدّة أحاديث نبويّة:

من الحديث الذي روي عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ـ لما أراد أن يبعثه إلى اليمن قال له: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟» قال: أقضي بما في كتاب الله. فقال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟» قال: فبسنّة رسول الله ﷺ قال: «فإن لم يكن في سنّة رسول الله؟».

= حديث شريف مثلاً الآمدي في الأحكام. ج 1 ص 112 ولكن هذا خطأ. والصحيح انه قول عبدالله بن مسعود كما بينه السخاوي في المقاصد الحسنة، والعلائي وغيرهما. وقد رواه احمد في كتاب السنة. انظر شرح الحموي على الأشباه (ج 1 ص 127) وشرح المجامع (ص 308).

قال: أجتهد رأيي ولا آلو. قال معاذ فضرب رسول الله ﷺ صدري. وقال: «الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»[1].

ومن الحديث الذي رواه سعيد بن المسيب عن علي ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: قلت يا رسول الله، الأمر ينزل بنا، لم ينزل فيه القرآن، ولم تمض منك سنّة؟» قال: «اجمعوا له العالمين ـ أو العابدين ـ من المؤمنين، فاجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأي واحد»[2].

ثم مما روي ـ بصفة عامة ـ من اجتهاده ـ ﷺ وأمره أصحابه بالاجتهاد، وإقراره من اجتهد منهم على اجتهاده.

ومن العقل يستنتج كما يلي:

قد جعل الله الإسلام خاتم الأديان، وجعل شريعته صالحة لكل زمان ومكان ونصوص الشريعة من الكتاب والسنة محدودة، وقضايا الحياة وحوادث الناس، ووسائلهم إلى مقاصدهم متجدّدة وغير محدودة، ولا يمكن أن تفي النصوص المحدودة بتعداد القضايا المتطورة وضبطها، وبأحكام الحوادث المتجددة، غير المحدودة، والجزئيات التي لا حصر لها إلا إذا كان هناك مجال

---

(1) (2) أوردهما ـ علي حسب الله ـ في كتابه «اصول التشريع الإسلامي» ص 68 ط الثالثة سنة 1383هـ/ 1964 م نشر دار المعارف بمصر، وعلق على الحديث الأول فقال: أخرجه أبو داود (ص 116 ج 2) والترمذي (ص 616 ج 3) والدارمي في سننه (ص 34) عن الحارث بن عمرو عن اناس من اهل حمص من اصحاب معاذ عن معاذ. وقال فيه الغزالي: «تلقته الأمة بالقبول ولم يظهر احد فيه طعناً او انكاراً، فلا يقدح فيه كونه مرسلاً» ـ ص 254 ص 2: المستصفى. وعلّق على الحديث الثاني بقوله: هذا الحديث ـ وان قيل: انه غريب من حديث مالك وفي روايته من لا يحتج به (72 - 73 ج 1: اعلام الموقعين) معناه في غاية الصدق والصحة لأنه دعوة الى الشورى في مهام الأمور، يؤيدها حثّ القرآن الكريم على ذلك، وعمل الرسول ﷺ، وعمل أصحابه من بعده. وروى الطبراني مثله في «مجمع الزوائد الأوسط» (ص 178 ج 1 ط مصر س 1352 هـ) ورجاله ثقات من أهل الصحيح. ورواية «العالمين» ارجح عندي من رواية «العابدين» لأن الغرض من الاجتماع التشاور للوصول إلى رأي فيما نزل بالناس، وهذا يكون بذوي العلم والرأي لا بالمتعبدين المتباعدين عن شؤون الناس، فإن من هؤلاء من تستحب في الصلاة امامته، ولا تقبل عند القاضي شهادته.

لتعرف أحكام الحوادث الطارئة بالاجتهاد في قياسها على نظائرها، أو توجيهها إلى تحقيق المصالح التي ترمي إليها الشريعة. وبغير هذا تفقد الشريعة مرونتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

وبهذا يتضح أن القياس مناط الاجتهاد الذي هو اصطلاح الأصوليين: بذل الفقيه جهده العقلي في استنباط حكم شرعي من دليله، على وجه يحس فيه العجز عن المزيد، مصدر من مصادر التشريع، وهو حجّة شرعيّة على الأحكام العملية وفي المرتبة الرابعة من الحجج الشرعية عند جمهور المسلمين، ولا عبرة بقول من خالفهم، لأنه محجوج بما ثبت في القرآن والسنة، وبما يعطيه الدليل العقلي.

وبالاجتهاد المستند على ما ثبت بالنص أو بالإجماع، وبقياس غير المنصوص على حكمه، على المنصوص على حكمه، لاجتماعهما في علة الحكم، كانت الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ولكل مكان، ومحيطة وشاملة لكل قضايا الحياة، ولجميع شؤون الناس، وبذلك أيضاً كان عطاء المعتدلين في مجال الفقه يمثل الاتسام والإحاطة والشمول.

فالفقهاء أحاطوا بأنظارهم وآرائهم، وشملوا باستنباطهم واستنتاجهم كل القضايا وجميع المسائل في مجالي العبادات والمعاملات.

ـ عطاؤهم في مجال العبادات: قد أحاطوا وشملوا ببيانهم كل ما يتعلق بالعبادات ويتصل بها من قريب أو من بعيد، فقد حددوها بتعاريف وأبانوا مواقيتها الاختيارية منها والضرورية، وأحكامها التي هي من نوع الواجب والفرض، أو من نوع السنة والندب، وشروطها، وما منها من شروط الوجوب أو من شروط الصحة، أو من شروط التمام والكمال، وأركانها الفعلية والقولية وما لا تتم ولا تكمل إلا به.

أبانوا جميع ذلك ولم يغفلوا عن الصغير منه والكبير.

ومع بيانهم لذلك أبانوا الحكمة والغاية من كل عبادة وما تحققه للأفراد وللجماعات وللمجتمع الإسلامي بصفة عامة.

فأبانوا ما في الصلاة ـ زيادة عن المراد منها من عبادة المخلوق للخالق عبادة تمثل الطاعة والانقياد والحمد والشكر على نعمائه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ التي لا تحصى ـ أبانوا ما فيها من تربية للأفراد حيث تزكي نفوسهم وتطهر قلوبهم وتصقل عقولهم وتنمي مواهبهم، وتجعلهم بجميع ذلك أعضاء نافعين، يعملون الصالحات ويحققون الخير لأنفسهم وللناس، ومن تربية وتعليم لهم وللجماعات بطريقة ومنهج يجعلهم جميعاً يتعودون على الانضباط وعلى احترام الوقت والمواعيد، وعلى النظام ووحدة الصفّ وعلى إيجابية القيادة وحسن الاقتداء.

كل ذلك يدفع بالمسلمين إلى الاتحاد وإلى جدّية العمل في صفّ واحد وإلى مصداقية التعاون على البر والتقوى من أجل توفير أسباب الخير، وعوامل النفع ونشر مردودها فيما بينهم، ومن أجل غرس روح الأخوة والمودة والرحمة في نفوسهم، وجعلها بالتعهد المتجدد حيّة نابضة في أعماق مشاعرهم وأحاسيسهم لا تفارقهم ما داموا مستجيبين لحكمة الصلاة ولبعدها الروحي كل يوم بالليل والنهار.

أبانوا كل ذلك واستنتجوه من تفسيرهم وتأويلهم لآيات القرآن الكريم، التي أمرنا الله فيها بالصلاة ووجهنا إلى ما فيها من أبعاد. ومن خير عميم وإصلاح عظيم، لا يستغنون عنه عبر أجيالهم وعصورهم ما دامت الحياة وما دام الناس الصالحون منهم يؤدون رسالتهم فيها.

من هذه الآيات قوله تعالىٰ: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين**﴾[1] وقوله: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين**﴾[2] وقوله: ﴿**فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً**

(1) سورة البقرة آية 43.
(2) سورة البقرة آية 45.

موقوتاً﴾[1] وقوله: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾**[2] وقوله: **﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾**[3].

كما أبانوا ذلك واستنتجوه من تفسيرهم وتأويلهم للحديث المروي عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[4].

وللحديث المروي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الصلوات المكتوبات كمثل نهر جار عذب على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات»[5].

ومثلما أبانوا ما في الصلاة من حكمة وأبعاد تربية وتعليم أبانوا ما في الزكاة والصوم والحج من حكمة ومن أبعاد تربية وتعليم ومن هداية وتوجيه بعد بيانهم لجميع ما يتعلق بها من تحديد وتعريف، ومن أنواع ومن أركان وشروط ومن كل ما تتم به وعليه تصحّ، فقد أوضحوا ـ بعد بيانهم لكل ذلك ـ ما في الزكاة من تربية للأفراد وللمجتمع. حيث تجعل الأفراد قادرين:

أولاً: على التحكم في المال تحكماً متبصراً مجدياً لهم ونافعاً للمجتمع الذي يعيشون فيه.

ثانياً: على وقاية أنفسهم من الشحّ. ومن نتائجه السيئة التي تؤذي غيرهم

---

(1) سورة النساء آية 103.

(2) سورة البقرة آية 238.

(3) سورة العنكبوت آية 45.

(4)(5) الحديثان اخرجهما الإمام البغوي في كتابه «شرح السنة» ج 2 ص 125 وعلّق على الأول بقوله: هذا حديث متفق على صحته أخرجه محمد ـ يعني البخاري ـ عن إبراهيم بن حمزة عن ابن ابي حازم، وأخرجه مسلم عن قتيبة عن ليث وبكر كلهم عن يزيد بن الهاد. وعلّق على الثاني بقوله: هذا حديث صحيح اخرجه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن ابني معاوية، عن الأعمش.

وقد يشملهم أذاها إذا تجذّر فيهم الشحّ فحرموا أنفسهم وأهليهم من ثمرات وخير ما يكسبون استجابة لبواعثه التي إذا طغت في الشخص دمرته وجعلته من المحرومين.

ثالثاً: على حماية المجتمع من حدّة التفاوت الطبقي الذي يؤدي ـ إذا ما تعاظم واستفحل ـ إلى نشر مشاعر الحقد، وإلى غرس بذور التحاسد والتباغض والتناحر في النفوس، وبحماية المجتمع من ذلك، يقترب الأغنياء من الفقراء بأموالهم التي يعطونهم حقّهم المعلوم منها، ويدنو الفقراء من الأغنياء بمشاعرهم وأحاسيسهم الطيبة، فيعمّهم الأمن، ويشملهم الاطمئنان. وتجعل المجتمع ـ نتيجة ما تحققه لأفراده من تربية بهذا المستوى ـ تجعله في تماسك متين يبعد طوائفه وفئاته عن التدافع والتصادم وفي تعاون مثمر يجعل كلا من الأغنياء والفقراء ينفع بعضهم بعضاً. وفي تفاعل نافع مجد، به يرتاح الفقراء للأغنياء ويطمئن الأغنياء للفقراء.

هذا هو المراد من الزكاة والغاية من حكمتها والهدف من أبعاد تربيتها. أبانوا هذا كله واستنتجوه من تفسيرهم وتأويلهم لقوله تعالىٰ: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[1] ولقوله سبحانه تعالىٰ ـ: ﴿وفي أموالهم حقّ للسائل والمحروم﴾[2] ولقوله: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾[3] ومن تفسيرهم وتأويلهم للحديث النبوي المروي عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال: «إنك تأتي قوماً أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم

(1) سورة التوبة آية 103.
(2) سورة الذاريات آية 19.
(3) سورة البينة آية 5.

صدقة أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وتردّ إلى فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك، فإيّاك وكرائم أموالهم، واتّق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»[1].

وللحديث المروي عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر وكفر من كفر من العرب، فقال عمر: كيف تقاتل الناس. وقد قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلّه إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقّه، وحسابه على الله؟» فقال : والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حقّ المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها قال عمر: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر فعرفت أنه الحق[2].

---

(1) (2) أخرج الحديثين الإمام البغوي في كتابه «شرح السنة ج 5. الأول في ص 472 والثاني في صفحة 488 وعلق على الأول بقوله: هذا حديث متفق على صحته، أخرجه مسلم عن ابن كريب وأخرجه محمد عن حبان وغيره، عن عبدالله عن زكريا. وعلق على الثاني بتعليق طويل لنفاسته ولما فيه من فقه أورد أغلبه كما يلي: رواه البخاري عن يحيى بن بكير، عن الليث، عن عقيل، عن الزهري بإسناده، وقال: والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه.

هذا حديث متفق على صحته، أخرجه مسلم عن قتيبة، عن ليث، عن عقيل، عن الزهري، قال سليمان الخطابي: هذا الحديث أصل كبير في الدين، وفي أنواع من العلم، وأبواب من الفقه ومما يجب تقديمه ان يعلم ان اهل الردة بعد الرسول ﷺ كانوا صنفين: صنف منهم ارتدوا عن الدين وعادوا الى الكفر، وهذه الفرقة طائفتان: طائفة منهم أصحاب مسيلمة من بني حنيفة وغيرهم، وأصحاب الأسود العنسي من أهل اليمن وغيرهم الذين صدقوهما على دعوى النبوة وطائفة ارتدوا عن الدين وانكروا الشرائع وعادوا الى ما كانوا عليه من امر الجاهلية، حتى لم يكن يسجد لله تعالىٰ على وجه الأرض الا في ثلاث مساجد: مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد عبد القيس بالبحرين في قرية يقال لها: جواثاً.

وعنى أبو هريرة بقوله: «وكفر من كفر من العرب» هؤلاء الفرق، ولم يشك عمر ـ رضي الله عنه ـ في قتل هؤلاء ولم يعترض على أبي بكر في أمرهم، بل اتفقت الصحابة على قتالهم وقتلهم، ورأى أبو بكر سبي ذراريهم ونسائهم ، وساعده على ذلك أكثر الصحابة، واستولد عليّ بن أبي طالب جارية من سبي بني حنيفة فولدت له محمد بن علي الذي يدعى: ابن الحنفية. ثم لم ينقرض عصر الصحابة حتى أجمعوا على ان المرتد لا يسبى ـ والصنف الآخر قوم لم يرتدوا عن =

وهي تربية اجتماعية بمظهريها الروحي والمادي تجدد كل حول توجه الأفراد والجماعات الإسلامية إلى ما يحملهم على إزالة مظاهر الفقر والخصاصة من أوساطهم، وعلى التعاون والتراحم ودعم وحدة الصف فيما بينهم.

وأوضحوا أيضاً ما في الصوم من تربية جد مفيدة للأفراد والتي يؤول مردودها إلى المجتمع حيث الصوم يغرس في النفوس الصبر وجلد التحمل، وقوّة الإرادة، للتغلب على ما يفرضه التعوّد، وتدفع إليه الشهوات، يعمق فيها دوافع الشعور بالغير، وإرادة الخير له والعمل على إيصال النفع له.

= الدين لكنهم فرقوا بين الصلاة والزكاة فأقروا بالصلاة وأنكروا فرض الزكاة، وزعموا ان الخطاب في قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ ـ التوبة: آية 105 ـ خاص للنبي ﷺ وعرضت الشبهة لعمر في قتال هؤلاء لتمسكهم بكلمة التوحيد، وهؤلاء في الحقيقة أهل بغي، وإنما لم يدعوا بهذا الاسم في ذلك الزمان لدخولهم في غمار اهل الردة. فأضيف الاسم في الجملة الى الردة إذ كانت اعظم الأمرين وأهمهما.

والردّة: اسم لغوي ينطلق على كل من كان مقبلاً على أمر فارتدّ عنه، وقد وجد من هؤلاء القوم الانصراف عن الطاعة، ومنع الحق، وكان الاعتراض من عمر تعلقاً بظاهر الكلام، فقال له أبو بكر: ان الزكاة حق المال، يريد ان القضية قد تضمنت عصمة الدم والمال بإيفاء شرائطها ثم قايسه بالصلاة، ورد الزكاة اليها، فكان في ذلك من قوله دليل على ان قتال الممتنع عن الصلاة كان اجماعاً من رأي الصحابة، فردّ المختلف فيه الى المتفق عليه، فاجتمع في هذه القضية الاحتجاج من عمر بالعموم، ومن أبي بكر بالقياس ثم تابعه عمر عليه، فدل ذلك على ان العموم يخص بالقياس.

وقول عمر: «ما هو الا أن قد شرح الله صدر أبي بكر، فعرفت أنه الحق» إشارة إلى أنه لم يكن في تلك الموافقة مقلداً، بل انشرح صدره بالحجة التي أدلى بها أبو بكر، والبرهان الذي أقامه نصًّا ودلالة.

وفي هذه القضية دليل على تصويب رأي علي في قتال اهل البغي في زمانه، وانه اجماع من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: أما اليوم في زماننا إذا انكرت طائفة من المسلمين فرض الزكاة وامتنعوا من أدائها، كانوا كفاراً بإجماع المسلمين، والفرق بين هؤلاء وبين أولئك القوم حيث لم يقطع بكفرهم، وكان قتال المسلمين اياهم على استخراج الحق منهم دون القصد الى دمائهم انهم كانوا قريبي العهد بالزمان الذي كان يقع فيه تبديل الأحكام ووقعت الفترة بموت النبي ﷺ وهم جهال بأمور الدين لحدوث عهدهم بالإسلام فدخلتهم الشبهة فعذروا. وأما اليوم فقد استفاض علم وجوب الزكاة حتى عرفه الخاص والعام فلا يعذر احد بتأويل يتأوله في انكارها....

وفي ذلك الربح كل الربح للأفراد وللمجتمع الذي يعيشون فيه.

والصائمون حقّاً ـ إذا ما تأدبوا بآداب الصوم، والتزموا بأبعاد تربيته المفيدة جدّاً، والمصلحة بعمق ـ حقّقوا لأنفسهم وللمجتمع الذي يعيشون فيه ويتعاملون مع أناسه، فوائد الصوم وثماره المرجوة منه، مما يعود بالفائدة على جوانبهم المادية والروحية، فيصحح أبدانهم ويزكي نفوسهم، ويطهر قلوبهم، ويصقل عقولهم، وينمي مواهبهم، ويعمّق إيمانهم، وييسر لهم سبل الطاعة والامتثال لخالقهم. ويجعلهم يتذوقون روح العبادة وثمرة التقوى التي أساسها الإحسان الذي هو خشية الله في السرّ والعلن، النابعة من مراقبتهم المستمرة لله خالق الكون ومبدع الإنسان، ومن أعظم العبادات التي تعلم الإنسان حسن المراقبة، وتيسرها له، عبادة الصوم.

أوضحوا كل ذلك وأبانوا بواسطة تفسيرهم وتأويلهم لقوله تعالىٰ: **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾**[1].

ولقوله عزّ وجلّ ـ: **﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدّة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾**[2].

ومن تفسيرهم وتأويلهم للحديث النبوي الذي جاء فيه: «أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس فقال: يا رسول الله. أخبرني ماذا فرض الله عليّ من الصلاة؟ فقال: الصلوات الخمس إلا أن تطوّع شيئاً فقال: أخبرني ما فرض الله عليّ من الصيام؟ فقال: شهر رمضان إلا أن تطوّع شيئاً. فقال: أخبرني ما

(1) سورة البقرة آية 183.
(2) سورة البقرة آية 185.

فرض الله عليّ من الزكاة؟ قال: فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام. قال: والذي أكرمك بالحق، لا أتطوّع شيئاً ولا أنقص مما فرض الله عليّ شيئاً. فقال رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق. أو دخل الجنة إن صدق»[1].

وللحديث الذي جاء فيه: («أن رسول الله ﷺ قال: الصيام جنّة فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم ـ مرتين ـ والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها»)[2].

وهي تربية تتجدّد أيضاً كل سنة، بحساب شهر كامل، وهو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، تربية تصحب المؤمن في سرّه وعلنه فتقوده إلى الخير وتهديه إلى الحق وإلى اتباع طريق الرشد والاستقامة.

وأوضحوا كذلك ما في الحج من تربية عميقة في حكمتها، بعيدة في أهدافها فالمسلمون إذا ما اجتمعوا في موسم الحج ـ مستحضرين في أنفسهم حكمته مدركين لأبعاده، واعين لغاياته وأهدافه التي أرادها الله لهم وأرشدهم إليها من أنهم يعبدونه أمام وحول بيته الحرام حق العبادة، ويؤدون مناسك حجهم على الوجه الذي طلبه منهم، ويشهدون أثناء ذلك، وفي أيام الحج المشهودة منافع لهم. تحقق لهم الخير والسعادة في الحياة الدنيا، والفوز بالنعيم المقيم في الحياة الأخرى.

من ذلك ما يجدونه في بيت الله الحرام، وفي مكة المكرمة ـ مع الأمن الروحي والإيمان الصافي، من ظروف زمانية ومكانية، ومن عطاء روحي إشراقي ما يمكنهم ـ وهم في أجلى مواقف الصفاء والإخلاص من تبادل المنافع فيما بينهم ولفائدة مجتمعاتهم وشعوبهم، سواء كانت منافع علمية ثقافية، أو

---

(1)(2) الحديثان أخرجهما الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الصوم الأول في باب وجوب صوم رمضان ج 4 فتح الباري ص 102 والثاني في باب فضل الصوم ج 4 فتح الباري ص 103.

اجتماعية حضارية، أو اقتصادية مالية، أو سياسية محلية ودولية، أو تخطيطية تنظيمية، أو إعدادية مستقبلية. يتبادل العلماء وأولو الثقافة في ميادين العلم والمعرفة، وفي مجالات الثقافة الواسعة الأرجاء.

ويتبادل الاجتماعيون، والمختصون في مواصلة بناء أسس الحضارة، والأنظار والآراء التي تقود المسلمين وتعينهم على بناء نهضتهم الاجتماعية، وتشييد معالمهم الحضارية. ويتبادل الاقتصاديون والماليون، وجهات النظر التي بتبلورها تحمل الشعوب الإسلامية على بناء اقتصادها وتوظيف أموالها على أسس سليمة، وعلى مخططات ومشاريع جدّ قويمة، وعلى إنماء ثـرواتهم المالية، وعلى حسن التصرف فيها من حيث مواردها ومصادرها ومن حيث استغلالها والاستفادة منها، ومن عوائدها.

ويتبادل السياسيون أولو الحل والعقد اليوم حول توضيح السبل وإنارة الطرق التي يتحتم عليهم وعلى شعوبهم، وعلى أمتهم الإسلامية بصفة عامة، السير فيها ليحققوا لأنفسهم المناعة والقوّة، وليكون لهم رأي يحسب غيرهم من الشعوب والأمم حسابه، ويمكنهم من أن يكونوا من بين قادة العالم الذين يطمئن الناس لقيادتهم ويرتاحون لسياستهم، ومن بين شعوبه التي يستضاء بمنهجها، ويقتدى بسيرتها.

فهذا التبادل بجميع أنواعه ـ إذا ما تمّ بين المسلمين وتجدّد في كل موسم من مواسم حجهم، بروح الحكمة المقصودة من الحج، وعلى أساس الأهداف التي أراد الله من المسلمين أن يحققوها ـ إذا ما استجابوا لهديه وامتثلوا لأوامره ـ في كل موسم من مواسم حجهم ـ سيكون عبر مسيرتهم في الحياة، وفي جميع عصورهم وأجيالهم، أنفع تبادل وأجداها عليهم، وعلى الإسلام، لأنه تبادل وقع ويقع في الأراضي المقدسة بجوار بيت الله الحرام، وبجوار نبيه الأكرم، وهو جوار يجعل تبادل المتبادلين ينبع من إيمان صادق، ومن عهود وثيقة، ومن

مواثيق تؤكد انبرامها طاعة الله وطاعة رسوله، وأخوة الإيمان، وما تغرسه في أعماق مشاعرهم وأحاسيسهم من توادد وتعاطف وتراحم، ومن صدق تعاون، حيث هم ـ في مكة ـ أمام بيت الله، وفي عبادة جمعت مختلف أنواع الطاعة والانقياد للخالق جمعاً يعمق الإيمان، ويزكي النفس، ويصقل العقل، ويزيل ما في القلب من حقد وغدر، ومن خداع ونفاق، وحيث هم في المدينة ـ من قبل أو من بعد ـ وأمام مواجهة الرسول الأكرم، وأمام قبره الذي يملأ نفوسهم ثقة واطمئناناً، ويملأ قلوبهم مودة ورحمة، ويملأ جميع كيانهم بدوافع الاقتداء، وحسن السلوك، فيزداد شعورهم بأن مناعتهم وقوتهم مربوطة بتحقيق ما حققه الرسول الأكرم في العهد الإسلامي الأول، ومن قوة تماسك ومن وحدة صفّ، ومن تحمل مسؤولية وتبليغ هدى الله وشريعته إلى الناس.

كما يزداد شعورهم ـ وهم يسلمون على رسولهم الأكرم، ويواجهونه بكل ما يملكون من أدب واحترام. ومن فيض شعور وصدق إيمان ـ بأبعاد وصيته عليه الصلاة والسلام ـ للمسلمين، وهو في الأيام الأخيرة من حياته. فقال لهم: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[1].

وبأبعاد المثل الذي أوضح لهم فيه قوّة الرباط الذي ينبغي أن يرتبطوا به حتى يحققوا لأنفسهم القوّة والمناعة، ويدفعوا عنهم كل من يريد أن ينال من قوتهم ومناعتهم فقال: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمىّ»[2]. وأوضحوا كل ذلك وأبانوه بواسطة تفسيرهم وتأويلهم لقوله تعالىٰ: ﴿وأذّن في

---

(1) أخرجه الإمام البغوي في كتابه «شرح السنة» ج 10 ص 221 وعلق عليه بقوله: هذا حديث متفق على صحته أخرجه مسلم عن عبيدالله بن معاذ عن أبيه عن شعبة.

(2) أخرجه الإمام البغوي في كتابه «شرح السنة» ج 13 ص 46 وعلق عليه بقوله: هذا حديث متفق على صحته، أخرجه محمد عن أبي نعيم وأخرجه مسلم عن محمد بن عبدالله بن نمير عن أبيه عن زكريا.

الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيّام معلومات﴾[1].

ولقوله سبحانه وتعالىٰ: **﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكّة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بيّنات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على النّاس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنيّ عن العالمين *﴾**[2] ومن تفسيرهم وتأويلهم للحديث المروي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ : قال رسول الله ﷺ : «أيها الناس قد فرض عليكم الحجّ فحجّوا»[3].

والحديث المروي عنه أيضاً ـ قال: سئل النّبيّ ﷺ أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «ثمّ حجّ مبرور»[4].

ـ ومن مجال العبادات، ومن الدعائم الأساسية في الإسلام (الجهاد) فقد أوضح المعتدلون وأبانوا أنه الدعامة الكبرى التي على أساسها شيّد بناء صرح الإسلام وذلك لأنه فتح ويفتح الطريق لتبليغ رسالة الإسلام ودين الله إلى الناس، وما جاءهم به من عقيدة وهداية وتشريع.

وقد شملوا بتوضيحهم وبيانهم النواحي التالية:

1 ـ **معنى الجهاد:** وهو مكافحة أعداء الله ورسوله. أعداء أوليائه ودينه، ومقاومة الظلم والفساد في الأرض بالنفس والمال وبكل نوع من أنواع التضحية لإعلاء كلمة الله ونصرة الحق.

---

(1) سورة الحج آيتا 27'28.

(2) سورة آل عمران آيتا 97'97.

(3) أخرجه مسلم (1337) في الحج: باب فرض الحج مرة في العمر.

(4) أخرجه البغوي ج 7 ص 3 وعلق عليه بقوله: هذا حديث متفق على صحته، اخرجه محمد عن احمد بن يونس وغيره، وأخرجه مسلم عن منصور بن أبي مزاحم وغيره كل عن إبراهيم بن سعد.

2 ـ أقسامه وهي قسمان:

(أ) **الجهاد الأكبر**: وهو مقاومة العدو الداخلي الذي لا يفارق الإنسان، وهو النفس مقاومة هواها المضلّ وشهواتها الآثمة، مقاومة كل ما يواجهها من الصفات الذميمة، والأخلاق الرذيلة، كالجهل والجبن، والظلم والغرور، والحقد والحسد، والشحّ وغيرها من كل صفات الرذيلة.

ولدوام هذا الجهاد، ولملازمته للإنسان المؤمن، ولصعوبة المواجهة مع دوافعه ولعظم البذل لتحقيق النصر فيه، سمي ـ حسب وجهة نظر التربية الإسلامية ـ بالجهاد الأكبر.

(ب) **الجهاد الأصغر**: وهو مقاومة العدو الخارجي، عدو الحق والعدل، عدو الصلاح والخير، عدو الاستقامة والرشد، عدو الدين والفضيلة، عدو الإسلام والسلام، وبعبارة عامة شاملة عدو الله ورسوله والمؤمنين.

وكل قتال في سبيل الحق وحمايته، في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دينه، من أجل تبليغ هديه وشريعته، من أجل محاربة الباطل ونصرة الحق هو من الجهاد في سبيل الله.

ولخطورة هذا القسم من الجهاد، ولمدى ما فيه من أعباء جسيمة، ومن مسؤولية كبرى ومن نتائج مصيرية، ومن تبعات ثقيلة أفاض المعتدلون فيه وحوله، القول والتأويل والاستنتاج فبيّنوا:

أولاً: متى وقع الإذن به للمسلمين، ومتى يتجدد الإذن به، وما هي شروط وجوبه؟ وعلى من يجب، وما هي شروط مواجهة الأعداء به؟ ومن يأمر بالمواجهة ومن يقودها وما تتطلبه المواجهة من مثل وأخلاق، ومن آداب في بدايتها، وفي أثنائها، وفي خاتمتها وفيما يترتب عليها بعد كل ذلك.

ثانياً: متى يكون القتال واجباً كفائياً، ومتى يكون عينياً على كل قادر، ومتى يكون هجوماً، ومتى يكون دفاعاً.

ثالثاً: هدف ودوافع القتال، التي من بينها: الدفاع عن النفس، ورد أهل البغي عن بغيهم، ومنع انتشار الكفر بالله، وإظهار الإسلام وإعلاء كلمته على الكفر.

أوضحوا كل ذلك وأبانوه بواسطة تفسيرهم وتأويلهم لقوله تعالىٰ: ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير* الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلا أن يقولوا ربّنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقويّ عزيز***﴾[1].

بتفسيرهم وتأويلهم لهاتين الآيتين أوضحوا أن الله أذن للمؤمنين بالقتال وعلّل إذنه لهم بذلك بما مني به المسلمون من الظلم والاعتداء المسلط عليهم من المشركين وما أكرهوهم عليه من الخروج من الديار والأوطان بغير الحق.

وتبعاً لتوضيحهم هذا استنتجوا أن الحرب ضرورة اجتماعية تلجأ إليها الجماعات البشرية لحل بعض المشاكل الاجتماعية التي تستعصي على الحلول السليمة، استنتجوا ذلك ممّا ذكره تعالىٰ في قوله: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض**﴾ الآية من أنه سبحانه وتعالىٰ لولا ما شرعه لأنبيائه وللمؤمنين من قتال الأعداء في كل عصر، **لهدمت** في شريعة كل نبّي معابد أمته ومنعوا من أن يعبدوا الله فيها ويهتدوا بهدي ما أنزله إلى أنبيائه ورسله، فهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى، وصلوات اليهود، ومساجد المسلمين التي يذكرون فيها اسم الله كثيراً، وفي هذا إشارة إلى أن مساجد المسلمين هي التي ستبقى بيوت الله حقّاً يعبد فيها بحقّ، ويشعّ فيها نور دينه الحقّ وتنطلق منها هدايته إلى الناس بحقّ.

ولقوله تعالىٰ: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا**

---

(1) سورة الحج آيتا 39'40.

يحبّ المعتدين* وقاتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين* فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم* وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدّين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين *﴾[1] يستفاد من هذه الآيات ما يلي:

1 ـ قد أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا أعداءهم، إعزازاً لدين الله، وإعلاء لكلمته لا لهوى النفس وشهواتها، ولا حبّاً في سفك الدماء.

2 ـ نهاهم عن أن يعتدوا بالقتال فيبدؤون به، أو أن يعتدوا فيه بأن يقاتلوا من لا يقاتل من النساء والصبيان، والشيوخ والمرضى، ولا من ألقى لهم السّلم وكفّ عن حربهم، ولا بغير ذلك من أنواع الاعتداء كالتخريب، قطع الأشجار، فإن الاعتداء من السيئات التي يكرهها الله تعالىٰ، ولا سيما حين الإحرام وفي أرض الحرم وفي الأشهر الحرم.

3 ـ أمرهم ـ إذا شبّ القتال بينهم وبين أعدائهم المعتدين عليهم ـ بأن يقاتلوهم ويقتلوهم أينما أدركوهم، ولا يصدّهم عن قتلهم حتى وجودهم في أرض الحرم وبأن يخرجوا مشركي مكّة منها كما أخرجوهم منها ظلماً وعدواناً.

وعلى هذه الحالة الخاصة بمشركي مكّة الذين ظلموا محمداً عليه الصّلاة والسلام والذين هاجروا معه واعتدوا عليهم أشدّ الاعتداء تقاس الحالات التي تشبهها والتي تقع بين المسلمين وأعدائهم إلى يوم القيامة.

4 ـ أبان الله سبحانه وتعالىٰ للمسلمين العلّة التي من أجلها أذن لهم بأن يقاتلوا أعداءهم الذين اعتدوا عليهم، ولو في أرض الحرم وفي الأشهر الحرم، وهي أن فتنة المشركين لهم عن دينهم بالإيذاء والتعذيب والإخراج من الديار والوطن ومصادرة أموالهم، أشدّ قبحاً من قتالهم في داخل الحرم وفي الأشهر الحرم.

---

(1) سورة البقرة آيات 190'193.

وذلك لأنه ليس هناك بلاء على الإنسان أشدّ من إيذائه واضطهاده وتعذيبه على اعتقاده الذي تمكّن من عقله ونفسه، واستقرّ في أعماق قلبه، وأصبح يراه سعادته في مسيرته الحياتية وفي عاقبة أمره.

5 ـ قتال المحاربين المعتدين وملاحقتهم في كل مكان، قد استثنى منه قتالهم في المسجد الحرام، فإذا دخلوه فلهم الأمن إلا إذا انتهكوا حرمته وقاتلوا فيه. فلا آمان لهم ووجب قتالهم فيه، ولا إثم على المسلمين في ذلك لأنهم مدافعون، والإثم كل الإثم على الظالمين الذين بدؤوا القتال في المسجد الحرام.

6 ـ جرت سنّة الله في الكافرين المعتدين أن يجازيهم بما يستحقون عن ظلمهم واعتدائهم من قتل وتعذيب، ومن كل سوء ينالهم أثناء الحرب التي أشعلوها، وبعدها وهو جزاء تسببوا فيه لأنفسهم بتعديهم الحدود التي شرّعها الله، فهم الظالمون لأنفسهم لأنهم قد بدؤوا بالعدوان فيلقون جزاء ما صنعوا وتلك سنّة الله في الظالمين.

7 ـ إن كفّ المعتدون عن القتال أو عن الكفر، فإن الله يقبل منهم عملهم فهو رحيم بعباده يغفر لهم ما سبق من زلّاتهم ويمحو خطيئاتهم إذا هم تابوا عما اقترفوا وأحسنوا واتقوا ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾[1].

8 ـ أبان الله سبحانه وتعالىٰ للمؤمنين الغاية التي من أجلها أذن لهم بقتال الكافرين المعتدين، وهي أن لا تكون للكافرين قوّة تمكّنهم من أن يفتنوا المؤمنين في دينهم، ويؤذوهم بها في سبيله، وأيضاً من أجل أن يكون دين كل شخص خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه، فلا يفتن بصده عنه، ولا يؤذي فيه، ولا يحتاج فيه إلى مداهنة ومحاباة أو استخفاء ومداراة.

---

(1) سورة الأعراف آية 56.

وإذا ما تحققت هذه الغاية للمؤمنين وانتهى أعداؤهم عما كانوا يواجهونهم به من ظلم واعتداء، ومن صدهم عن تبليغ دين الله إلى الناس، فليس للمؤمنين قتالهم ولا الاعتداء عليهم. لأن العقوبة والعدوان إنما تكون على الظالمين تأديباً لهم وكفّاً لظلمهم واعتدائهم.

فالقتال في الإسلام له فلسفة كاملة تتمثل في الحكمة منه، وفي أنه وسيلة لا غاية وفي العوامل الدافعة إليه، وفي الشروط التي يجب أن تتوفر له وفيه، وفي الأهداف التي يرمي إليها، وفي الغاية التي يهدف إلى تحقيقها، وفي إبلاغ رسالة الله الخاتمة إلى كافة الناس، وتبصيرهم بهدايتها، وحملهم على تطبيق شريعتها فيما بينهم، وبناء حياتهم على المثل والمبادي التي جاءتهم بها من عدالة ونشر أمن. ومن حرية متبصرة وتحقيق مساواة، ومن تعاون على البرّ والتقوى، ومن سلم بين فئاتهم وجماعاتهم وشعوبهم ومن سلام عام للجميع.

هذا من حيث أبعاد فلسفته النظرية، وأما من ناحية منهجه التطبيقي، فإن الاستجابة لنداء السلم ولروحه الداعية للحياة مقدمة على الاستجابة لداعي القتال ولهوله الناشر للموت، وهذا ما يستنتج من قوله تعالىٰ: ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم**﴾[1].

ومن منهج تقديم السلم على الحرب، فمن ناحية أخرى تقديم منهج الحزم واليقظة، منهج الاستعداد للحرب لفرض السلم على حياة الاستكانة والغفلة حياة الاستسلام لقهر الظلم والاعتداء، عملاً بهدي الله واستجابة لقوله: ﴿**وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾[2].

وذلك لأن أعداء الإسلام والسلام لا ينتهي وجودهم من الأرض بل

(1) سورة الأنفال آية 61.
(2) سورة الأنفال آية 60.

عددهم أكثر وجوداً وهم لا يتخلون ولا يتخلصون مما طبعوا عليه من عداء للإسلام والسلام، ومن حقد وبغض للمسلمين، ومن تربص الدوائر بهم، ومن صدّهم عن تبليغ دين الله إلى الناس. وهذا ما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا**﴾[1].

ولهذا فالإسلام في جهاد دائم لا ينقطع أبداً لتحقيق كلمة الله في الأرض، أي تحقيق النظام السوي الذي عليه تصلح حياة الناس وتستقيم، وبه يسعدون.

والأمة الإسلامية بحكم ما كلّفها الله به من تبليغ هديه وشريعته الخاتمة إلى الناس، منتدبة لإقرار الحق ونشر العدالة، وذلك بمحاربة الباطل وبرفع الظلم عن الأفراد والجماعات في أقطار الأرض كافة بقطع النظر عن ألوانهم وأجناسهم وأديانهم، وهذا يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾[2].

وهذه الرسالة الملقاة على كاهل المسلمين، وهم مسؤولون عن تبليغها إلى الناس كافة وأيضاً هم مسؤولون ـ عملاً بهديها وشريعتها ـ على محاربة الظلم والظالمين، وعلى نصرة الحق وإلزام الناس به يؤكدها رسول الله ﷺ ويوجب مواصلة القيام بها بقوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»[3].

---

(1) سورة البقرة آية 217.

(2) سورة البقرة آية 143.

(3) أخرجه البغوي في كتابه «شرح السنة» ج 1ص 66 وعلق عليه بقوله: هذا حديث متفق على صحته، أخرجاه من أوجه عن أبي هريرة. ثم قال: وقوله: «حتى يقولوا لا إله الا الله» أراد به عبدة الأوثان دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: لا إله الا الله، ثم لا يرفع عنهم السيف حتى يقرّوا بنبوة محمد ﷺ أو يعطوا الجزية.

وقوله: «وحسابهم على الله» معناه فيما يستسرّون به دون ما يخلّون به من الأحكام الواجبة عليهم في الظاهر، فإنهم إذا أخلوا بشيء مما يلزمهم في الظاهر، يطالبون بموجبه، كما قاتل الصديق

وبقوله: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحقّ ظاهرين إلى يوم القيامة»[1].

ـ هذا بعض عطائهم في مجال العبادات، وأما عطاؤهم في مجال المعاملات، فقد أحاطوها، وشملوا جميع ميادينها وسائر مجالاتها، ببيانهم وبأنظارهم، وباستنباطهم واستنتاجهم إلى مستوى من الإحاطة والبيان لم يتركوا فيه نوعاً من الأنواع أو قضية من القضايا، أو مسألة من المسائل تخرج عن بيانهم، أو تتعاصى عن أنظارهم واستنباطهم واستنتاجهم.

أفاضوا البحث والبيان والاستنباط والاستنتاج في ميدان الأسرة، فأعطوا كل ما تتطلبه في مراحل تأسيسها وبنائها، وفي مرحلة اكتمال بنائها، وفيما تحتاجه من تعهد وإصلاح لمنع تصدّعها وانهيارها، وفيما يلزمها من جبر الضرر وإزالة آثاره ومخلفاته، إذا ما وقع التصدّع أو حصل انهيار. واستمدّوا ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل**

= رضي الله عنه القوم على منع الزكاة، يدل على أنه صريح ببعضه في حديث ابن عمر.
وعلق محققا الكتاب زهير الشاوش وشعيب الأرناؤوط على قوله: متفق على صحته بقولهما: البخاري 211/3 في الزكاة، باب وجوب الزكاة، وفي استتابة المرتدين، باب قتل من أبى قبول الفرائض، وفي الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.
ومسلم رقم (21) في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله الا الله، وهو في «الصحيح» ايضاً من رواية انس بن مالك، وجابر بن عبدالله.
وعلقا على قوله: (يدل عليه انه صرح ببعضه في حديث ابن عمر) بقولهما: وهو الحديث التالي، وقال النووي ـ رحمه الله ـ في شرح مسلم 207/1: ولابدّ مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ كما جاء في رواية أبي هريرة وهي في صحيح مسلم (921)(34) وفيها... «ويؤمنون بي وبما جئت به».

(1) بهذه الصيغة من التعبير، أورده محمد عزة دروزة في كتابه «الدستور القرآني...» ج 1 ص 392'391 وقال: رواه مسلم والترمذي وأبو داود عن جابر عن النبي ﷺ وأخرجه الشيخ منصور علي ناصف في كتابه «التاج...» مج 5 ص 344 من طريق (ثوبان) وبالتعبير التالي: عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ عني النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من امتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من يخذلهم، حتى يأتي أمر الله» ثم ذكر من رواه فقال: رواه الترمذي وأبو داود ومسلم.

بينكم مودّة ورحمة إن في ذلك آيات لقوم يتفكّرون﴾[1].

وقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾[2].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾[3].

وقوله عزّ من قائل: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفّق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً﴾[4].

وقوله جلّ جلاله: ﴿وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم * والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحقّ بردّهنّ في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهنّ درجة والله عزيز حكيم * الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون * فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾[5].

ومن غيرها من الآيات المتعلقة بالحياة الزوجية وبقضايا الأسرة بصفة عامة. كما استمدّوا ذلك من الحديث: عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج

(1) سورة الروم آية 21.
(2) سورة النساء آية 3.
(3) سورة النساء آية 128.
(4) سورة النساء آية 35.
(5) سورة البقرة آيات 227'230.

فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1].

والحديث: عن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى النّبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله أصبت امرأة ذات جمال وحسب غير أنها لا تلد أفأتزوجها؟ فقال: لا، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة، فقال: «تزوجوا الولود فإنّي مكاثر بكم الأمم»[2].

والحديث: عن أبي حاتم المزني ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد. . . .»[3] والحديث: عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «أبغض الحلال إلىّ الله عزّ وجلّ الطلاق»[4].

وغيرها من الأحاديث التي تناولت موضوع الزواج والأسرة.

كما أفاضوا ذلك أيضاً في مجال البيوع، وما فيها من أنواع كثيرة وقضايا عديدة وما تحتاج إليه من أسباب، وما تتطلبه من شروط، وما يكون لها من أركان، وما تستدعيه من صيغ، وما تتعرض له من تغييرات وما يلزمها من ضمانات، وما يسبقها من اتفاقات، وما يلحقها من تابعات، وما تخضع له من أحكام من حيث الحرمة والجواز.

استمدوا ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿وأحل الله البيع وحرّم الربا﴾[5] وغيرها من الآيات التي تتعلق بأنواع البيوع وقضاياه.

ومن قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «أفضل الكسب بيع مبرور، وعمل

---

(1)(2)(3)(4) أخرج هذه الأحاديث صاحب كتاب «التاج» ج 2 الأول في ص 278 وعلق عليه بقوله: رواه الخمسة. والثاني في ص 283 وعلق عليه بقوله: رواه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه. والثالث في ص 284 وعلق عليه بقوله: رواه الترمذي وحسّنه. والرابع في ص 337 وعلق عليه، رواه أبو داود والحاكم وصححه.

(5) سورة البقرة آية 275.

الرجل بيده»[1] وفي هذا المجال أفاضوا البحث والبيان والاستنتاج في أنواع خاصة من البيوعات بما يدل على سعة التشريع الإسلامي، وعلى أبعاد معالم حضارته منذ البداية وفي جميع عطاء الحلقات المتولدة عن البداية مثل:

(**الصرف**) وما فيه من صور ومسائل، وما يحيط به من شروط، وما يجوز منه وما لا يجوز. و(**السلم**) وبيان محله وشروطه المجمع عليها والمختلف فيها، وما يجوز منه وما لا يجوز وما يعرض له من إقالة وتعجيل وتأخير، واختلاف المتبايعين فيه، وفي أي شيء يكون الاختلاف، ولمن يكون القول فيه. ومن بين تعاريف (السلم) اصطلاحاً هو: شراء آجل بعاجل.

و(بيع الخيار) هل يجوز أم لا، وإن جاز فكم مدة الخيار؟ وهل يشترط النقد فيه أم لا؟ ومن ضمان المبيع في مدة الخيار؟ وهل يورث الخيار أم لا؟ وما يصح خياره مما لا يصح؟ وما يكون من الأفعال خياراً؟.

و(بيع المرابحة) وتعريفهم لها بأنها: هي أن يذكر البائع للمشتري الثمن الذي اشترى به السلعة، ويشترط عليه ربحاً ما للدينار والدرهم.

ثم بيانهم ما يعد من رأس المال مما لا يعد، وصفة رأس المال الذي يجوز أن يبنى عليه الربح، وحكم ما وقع من الزيادة أو النقصان في خبر البائع بالثمن.

و(بيع العرية) وهي في مذهب مالك: أن يهب الرجل ثمرة نخلة أو نخلات من حائطه لرجل بعينه، فيجوز للمعري شراؤها من المعرى له بخرصها تمراً على شروط. وهي وإن اختلف العلماء في معناها فقد أبانوا شروطها، وما هي الرخصة فيها، ولمن الرخصة فيها، وهل تكون من نوع التمر فقط، أو فيه

---

(1) أورده عبد الرحمن الجزيري في كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» ج 2 ص 154 ط 6 دار احياء التراث العربي. وعلق عليه بقوله: رواه احمد والطبراني وغيرهما.

وفي العنب، أو في كل ما ييبس ويدخر، وهل تكون في الخمسة أوسق، أو فيما دونها؟ آراء وأنظار عديدة في كل ذلك.

ومثل ما أفاضوا في مجال البيوع، أفاضوا في مجال العقود المشاكلة لها، مثل الإجارة فأبانوا جوازها، ودليل جوازها من القرآن كقوله تعالىٰ: ﴿**إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك**﴾[1].

وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿**فإن أرضعن لكم فآتوهنّ أجورهنّ**﴾[2] ومن السنّة الثابتة ما خرّجه البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «استأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدّيلي هادياً خرّيتاً وهو على دين كفار قريش، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما»[3].

وحديث جابر: «أنه باع من النّبيّ ﷺ بعيراً وشرط ظهره إلى المدينة»[4].

وأبانوا أنواعها وشروطها وأحكامها وما يطرأ عليها من مشاكل الفسخ ومن تبعات الضمان ولمن القول إذا ما حصل الخلاف بين الطرفين أي من يعتبر مدعياً ومن يعتبر مدعى عليه.

وفي هذا المجال أفاضوا البحث والبيان والاستنتاج في أنواع خاصة تتدرج في مجال الإجارة مثلٰ:

(**الجعل**) وهو الإجارة على منفعة مظنون حصولها، وقد اختلف العلماء

---

(1) سورة القصص آية 27.

(2) سورة الطلاق آية 6.

(3) (4) الحديثان أوردهما ابن رشد في كتابه «بداية المجتهد» وعلق على الثاني بقوله: وما جاز استيفاؤه بالشرط جاز استيفاؤه بالاجر (ج 2 كتاب الاجارات ص 165'166) والحديث الأول أخرجه البخاري في صحيحه، باب استئجار المشركين عند الضرورة (فتح الباري ج 4 ص 442) والثاني أخرجه في باب اذا اشترط البائع ظهر الدابة (فتح الباري ج 5 ص 314).

في منعه وجوازه، وسند من أجازه قوله تعالىٰ: ﴿**ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم**﴾[1] وسند من منعه ما فيه من الضرر.

و (**القراض**) وصفته أن يعطي الرجل الرجل المال على أن يتجر به على جزء معلوم يأخذه العامل من ربح المال أيّ جزء كان مما يتفقان عليه ثلثاً أو ربعاً أو نصفاً وأنه مستثنى من الإجارة المجهولة، وأن الرخصة في ذلك إنما هي لموضع الرفق بالناس وأنه لا ضمان على العامل فيما تلف من رأس المال إذا لم يتعدّ.

وهو من أجدى أنواع الإجارة التي تفيد الناس فتنمي أموالهم، وتوسع الاستفادة بعوائدها وتعمل على إيجاد مواطن الشغل للعاطلين، وعلى توسيع مجالات العمل للعاملين.

وفي ذلك من المردود المثمر الحسن لتيسير الكسب على الأفراد والجماعات ولفتح الأبواب لسيولة الأموال في مجالات الإنماء، وفي ميادين الإنتاج وتحسين الثروات. وفي هذا النفع كل النفع للأفراد والأسر، وللفئات وللجماعات، ولاقتصاد الأمة بصفة عامة.

ولما في هذا النوع من الجدوى البعيدة المدى، فصلوا القول وأفاضوا البيان في مسائله وشروطه وأحكامه، وفي أحكام طوارئه، وفيما يترتب عليه إذا فسد، وفي من يكون له القول إذا اختلف العامل وربّ العمل في تسمية الجزء الذي تقارضا عليه؟.

وبهذا الأسلوب من البحث والبيان، ومن الاستنباط والاستنتاج أحاطوا بكل المسائل وبجميع القضايا المندرجة تحت عنوان المعاملات والتي هي بصورة إجمالية محوصلة:

---

(1) سورة يوسف آية 72.

الكـراء ـ والمساقـاة ـ والمزارعـة ـ والمغارسـة ـ والشركـة، والقسمة، والشفعـة، والرهن، والحجـر، والتفليس، والصلح، والكفالـة، والوكـالة، واللقطة، واللقيط، والوديعة، والعاريـة، والغصب، والاستحقاق، والهبـة، والوصية، والفـرائض، والولاء، والعتق، والكتـابة، والمكـاتب، والتدبيـر، وأمهات الأولاد، والجنايات، والقصاص، والجراح، والديات، والقسامـة، وأحكام الزنا، والقذف، والخمر والسرقة والحرابة والردة، والأقضية وما يتبعها من طرق ووسائل وبينات، أي جميع القضايا والوسائل المنضوية تحت عنوان من العناوين التالية:

(أ) البيوع وما شاكلها.

(ب) الأقضية وما شاكلها، والشهادات.

(ج) العتق وتوابعه[1].

(د) الفرائض والوصايا.

(هـ) الدماء والحدود.

وهي حسب العناوين المعاصرة: الأحكام المدنية، والأحكام الجنائية، وأحكام الأقضية والمرافعات[1].

ومع هذه الأحكام فقد فصلوا القول، وأفاضوا البيان فيما يسمى اليوم بالأحكام الدستورية والأحكام الدولية، والأحكام الاقتصادية والمالية.

وهنا لا بدّ من طرح بعض الأسئلة، ومن إبداء بعض الملاحظات، لإبراز كيف أفاض المعتدلون القول وعمقوا البيان بما قاموا به من شرح وتفسير وتأويل لآي القرآن الكريم حول هذه الأحكام وما تشرعه للمسلمين وتحـدده لهم ليتعاملوا به فيما بينهم ومع غيرهم من الناس.

---

(1) قضايا الرق وان عطل العمل بها بعد الغاء الرق في عصرنا وهو ما هدف اليه الإسلام وشرع له فجانب التشريع فيها لا يزول من التشريع الإسلامي، لأنه صالح لكل زمان ومكان.

الملاحظة الأولى: لسائل أن يسأل، عن منهج الإسلام في السياسة والحكم؟.

للإجابة أقول:

منهج الإسلام في السياسة والحكم، من حيث إطاره العام، ومن حيث دعائمه وأسسه ومن حيث علّو مثله، وشرف أهدافه، لا يساويه ولا يطاوله، ولا يسمو إليه، بل لا يدنو منه أي منهج من مناهج البشر.

فمنهج الإسلام من حيث هديه العام، ودستوره الكامل ومن حيث معالمه الواضحة، وطرقه المستقيمة، يعتمد على دعامة أساسية ثابتة الجذور، امتاز بها عما سواه، وهي أنه دين ودولـة، وعبادة وقيادة، ومصحف وسيف.

ومن هنا فالحكم والسياسة في المنهج الإسلامي جزء جوهري من تعاليم الإسلام. وبهذه الرؤية كانت معالم السياسة والحكم في الإسلام واضحة في خطابها وفي أسلوب تعاملها، وفي انطلاقها وأبعادها، متّخذة وجهتها ـ في تعاملها مع غير المسلمين ـ قوله تعالىٰ: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحبّ المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون *﴾**[1].

ومتخذة وجهتها ـ في تعاملها مع كافة الناس مسلمين وغير مسلمين ـ قوله تعالىٰ: **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾**[2] وقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله**

---

(1) سورة الممتحنة آيتا 8'9.

(2) سورة النساء آية 58.

خبير بما تعملون﴾[1] ومتخذة وجهتها ـ في تعاملها مع المؤمنين خاصة ـ قوله تعالىٰ: **﴿والذين يؤذون المؤمنين بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾**[2].

ولتحقيق منهج الإسلام في السياسة والحكم كانت إقامة الحكومة فريضة على المسلمين يأثمون إن أهملوا إقامتها أو قصروا فيها.

ولتحمل عبء القيام بهذه الفريضة من غير إهمال ولا تقصير بادر صحابة رسول الله ﷺ بعد وفاته وقبل دفنه إلى إقامة الحكومة على ضوء هدى الله وتوجيه رسوله.

ومن أبرز مميزاتها أنها لا تخضع للهوى، ولا تستجيب لدوافع الشهوات وأن إطارها مأخوذ من القرآن من مثل قوله تعالىٰ: **﴿إن الحكم إلا لله﴾**[3] وقوله مخاطباً نبيّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وآمراً له: **﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾**[4] وقوله: **﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾**[5].

ليس في منهج السياسة والحكم في الإسلام، اتّباع للهوى، أو استجابة للشهوات، بل ما فيه إلا هدى الله والأمر بالاهتداء به، والحق والأمر بالاستجابة له، وحكم الله والأمر بالامتثال له والعمل به، إذ الحكم لله وحده، والأمر كله له، ،وليس لغيره شيء إلا في إطار ما شرع، وفي دائرة ما أنزل.

ومن أجل أن لا يخرج بالمنهج الإسلامي في مجال السياسة والحكم من مساره الإلٰهي أقيم على دعائم قارة لا يوهنها الزمان بتعاقبه، ولا ينال منها تشابك

---

(1) سورة المائدة آية 8.
(2) سورة الأحزاب آية 58.
(3) سورة يوسف آية 40.
(4) سورة المائدة آية 49.
(5) سورة النساء آية 105.

القضايا، وثقل الأحداث، ولا يمس من جدتها ودوام صلاحها تطور الناس في تجاربهم، وتجدد حضاراتهم، واختلاف أنظارهم، وتعدد آرائهم، وهذه الدعائم هي الشورى في إبداء الآراء وفي رسم المخططات وفي اتخاذ القرار، والعدالة في الحكم وفي توزيع المسؤوليات والمساواة في الحقوق وفيما يعادلها من واجبات.

ـ فالشورى هي أحكم أسلوب، وأقوم منهج لتوضيح وجهة السير، وإنارة دروب الحكم، ولإسناد المسؤولية وتعيين أهلها.

وأمام بعد «الشورى» الحضاري لا يقف أمامها ما يتغنى به الناس اليوم ويسمونه «الديموقراطية» أو ما سيتغنون به في مستقبل الأيام من كلمات واصطلاحات، لأن شحنة كلمة «الشورى» وأبعادها حسب المعنى المراد منها لا تملكها أي كلمة أخرى، ولا أي مصطلح من مصطلحات البشر لا يستند إلى هدى الله المنزّل على خاتم الأنبياء والمرسلين، وذلك لأن كلماتهم الحاملة لما يريدونه من معان ومصطلحات تشريعية لا تخلو من مرامي هواهم، ومن أهداف شهواتهم، والحق لا يتّبع هواهم ولا يستجيب لشهواتهم. ﴿**ولو اتّبع الحقّ أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهنّ**﴾[1].

وبفرض الشورى على المسلمين وشدّهم إليها حدّد الله لهم منهج الحكم والسياسة.

وحتى لا تكون الشورى في مجال التطبيق تمثل ـ من حيث الشكل والأسلوب ـ التحجّر والجمود. جعلها مبدأ أساسياً من حيث معناها العام، ومن حيث بعدها الحضاري في بناء حياة المسلمين وفي تنظيم سيرهم، مع قضاياهم العامة، ومشاكلهم الكبرى وفي اتخاذ القرار في ميادين الحكم ومجالات السياسة.

---

(1) سورة المؤمنون آية 71.

وترك صور تطبيقها وأساليب العمل بها من حيث الشكل لاجتهاد المسلمين ولأنظارهم حسب ما يصلح لكل بيئة من بيئاتهم، وما يتماشى مع ظروفهم ويتجاوب مع قضاياهم وأحداثهم، وذلك لأن في مجال التطبيق تتغير الأحوال وتتبدل الظروف، ومع التغيير والتبدل قد تجدي هذه الصورة، وينفع هذا الأسلوب، وقد لا تجدي ولا ينفع، لأن ما يكون في هذا الزمان والمكان وفي هذه البيئة وهذا المجتمع ومع هؤلاء الناس وهذه الفئات، شكلاً مجدياً وأسلوباً نافعاً من أساليب الشورى لا يكون مجدياً ولا نافعاً مع غيرها وغيرهم لتطور الظروف وتبدل الأحوال، فما يصلح اليوم وينفع لا يصلح غداً ولا ينفع.

فالشورى أساس جوهري، مقرّر من الله للأمة الإسلامية، ومفروض عليها في جميع عصورها، ومراحل سيرها، وهذا ما يؤخذ من قوله تعالىٰ: ـ مخاطباً نبيه الأكرم عليه الصلاة والسلام ـ وآمراً له: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر**﴾[1] ومن قوله تعالىٰ واصفاً المؤمنين ومادحاً لهم ـ: ﴿**والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم**﴾[2].

وصور تطبيقها وأساليب تنفيذها موكول للمسلمين حسب ما تمليه الظروف، ويفرضه التطور، وحسب ما يتماشى مع المصلحة العامة، والتنظيم الحضاري، شرط أن لا ينافي الهدي الإسلامي وأن لا يخرج عن مبدأ من مباديه.

وهذا ما سار عليه المسلمون وطبقوه بإخلاص ـ استجابة لهدى الله ولإيمانهم الصادق ـ في عصرهم الأول، عصر الصحابة الأبرار والخلفاء الراشدين الذين تخرّجوا من مدرسة رسول الله ﷺ مباشرة وتمسكوا بهديه وساروا

---

(1) سورة آل عمران آية 159.

(2) سورة الشورى آية 35.

على منهجه واتّبعوا سنّته فقد بنوا حكومة الإسلام بعد وفاته عليه الصلاة والسلام على أساس الشورى وبأسلوب من أساليبها. فقد اختير أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وقبل أن يدفن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ يوم السقيفة بعد مفاوضة ومشاورة وجدل ومناقشة بين المهاجرين والأنصار، روى الإمام البخاري في صحيحه ما يلي:

(اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: منا أمير، ومنكم أمير.

فذهب إليهم أبو بكر وعمر، وأبو عبيدة بن الجرّاح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر. وكان عمر يقول: والله ما أردت إلا أني قد هيّأت كلاماً قد أعجبني، خشيت ألّا يبلغه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ.

فتكلم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فتكّلم أبلغ الناس، فقال في كلامه: «نحن الأمراء وأنتم الوزراء» فقال الحباب بن المنذر: لا والله لا نفعل! منّا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: لا: ولكنّا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب داراً، وأعربهم أنساباً، فبايعوا عمر، أو أبا عبيدة فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ.

فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس[1].

فخلافة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ كانت بصورة من صور الشورى، وبأسلوب من أساليبها، الذي بفضله برزت أمور أربعة تنبىء على الأسلوب الحضاري الذي انبنى عليه، منذ البداية ـ منهج الحكم والسياسة في بناء الدولة الإسلامية استنتاجاً من هدي القرآن الكريم، واستمداداً من توجيهه عليه الصلاة والسلام: وهي: الشورى، والانتخاب المباشر، وأخذ البيعة للمنتخب لتثبيت

(1) فتح الباري ج 7 ص 20.

وتأييد انتخابه، وتحديد برنامج الحكم الذي سينهجه المنتخب لقيادة الأمة، وللإشراف على تسيير شؤونها وتحقيق مصالحها.

وحول هذا المنهج الانتخابي الأول للمسلمين إثر وفاة الرسول الأكرم وقبل دفنه عليه الصلاة والسلام، والذي يدل على مدى حرص المسلمين على أن لا يبقوا ـ ولو لوقت قصير ـ من غير قيادة مسؤولة، وفي غير وضع حضاري منظم، وهذا بدوره يدل من ناحية أخرى على مدى استجابتهم لتوجيه الرسول الأكرم، ومدى تمسكهم لسنته، ومدى إسراعهم لتنفيذ قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (من مات وليس عليه إمام مات ميتة جاهلية)[1].

قلت حول هذا المنهج الانتخابي الأول للمسلمين أثار المستشرقون الحاقدون على الإسلام والمسلمين بعض شبهاتهم فقالوا:

لقد تمّ انتخاب أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ بمخطط تآمري ثلاثي عناصره أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الحراج، وشاركتهم فيه أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها وعنهم ـ وهذا منهم، وممن يثق بأبحاثهم العدائية المتحاملة، جهل بتاريخ الإسلام الحق وبأخلاق صحابة رسول الله ﷺ وبمثاليتهم التي هزّت الدنيا وأقعدتها، وأبهرت الناس، وجعلتهم يدخلون في دين الله أفواجاً، وجهل أيضاً بمدى إيمانهم وصدقهم ـ رضي الله عنهم ـ وبمدى صراحتهم وإعلانهم

(1) اخرجه الحافظ بن أبي عاصم في كتابه «السنة» وعلق عليه محمد ناصر الدين الألباني بما يلي: «اسناده حسن، ورجاله ثقات على ضعف يسير في عاصم وهو ابن ابي النجود وابي بكر بن عياش والحديث اخرجه احمد (96/4): ثنا أسود بن عامر: أنا أبو بكر به الا انه لم يذكر ابا هريرة، وذكره الهيثمي (218/5) عن معاوية بهذا اللفظ: وبلفظ: «من مات وليس في عنقه بيعة...» وقال: «رواه الطبراني واسنادهما ضعيف». كذا قال، ولعل في اسناد الطبراني من هو ضعيف قولاً واحداً، والا فإسناد احمد لا يحتمل هذا الجزم بالمصنف، ويستغرب منه ان لا يعزوه اليه، لا سيما وقد اعاد ذكره في موع آخر (225/5) باللفظ الأول وقال: «رواه الطبراني في الأوسط» وفيه العباس بن الحسن القنطري ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح. قلت الظاهر انه العباس بن الحسين ـ مصغراً ـ القنطري، وهو ثقة من شيوخ البخاري، فلا ادري هل تحرف «الحسين» من نسخة «الطبراني» فلم يعرفه الهيثمي أم ماذا؟ ـ كتاب «السنة» ج 2 ص 503'504.

لكلمة الحق، وعدم خوفهم في سبيل إعلانها وتأييدها وتجذيرها في نفوس الأفراد، وفي تقاليد المجتمع، من لومة لائم، وعدم سكوتهم على من يريد دوس الحقّ، وتجاوز حدوده لتحقيق مآرب شخصية، أو لتأييد اتجاه لا يصدق عليه كتاب الله وسنّة نبيه وجهل منهم كذلك بمدى زهد المؤمنين الصادقين بصفة عامة وزهد رسول الله ﷺ بصفة خاصة، في تحمّل أعباء السلطة، وتولي الإمارة إلا إذا تعينت في حقّهم وفرض عليهم تحملها، فإنهم يتحملونها بصدق وإيمان، وقوة إرادة وثبات عزم.

وجهل المستشرقين ومن لفّ لفّهم من الموتورين المتحاملين بكل هذا أدّى بهم إلى أن يقارنوا ـ سفاهة ـ بين ما عليه محترفو القيادة القهرية، وصانعو الأحزاب الضالة من تكالب على السلطة، ومن تآمر للوصول إليها، ومن نصبهم لرعاع الناس فخاخ ما يسمونه لهم، ويغررونهم به، من كلمات معسولة، ومن مصطلحات ذات تأثير واغراء مثل الديموقراطية والاشتراكية، والحرية، والعدالة، والمساواة، بواسطة أبواق الدعاية المكذوبة، والنفاق المقنع، وبين ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ وهم ما زالوا لم يواروا جسده الطاهر، وما زال صوته الهادي يرّن في آذانهم ويوصيهم بقوله: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[1].

ويعلمهم الجد والحزم في التزام الجماعة بقوله: «من خرج على أمتي وهم مجتمعون يريد أن يفرّق بينهم، فاقتلوه كائناً من كان»[2].

---

(1)(2) اخرج الحديثين الإمام البغوي في كتابه «شرح السنة» ج 10 الأول في ص 43 والثاني في ص 55 وعلق على الأول بقوله: هذا حديث متفق على صحته (أي اخرجه الإمام البخاري ومسلم، البخاري اخرجه في (الأحكام) باب: السمع والطاعة للإمام، وفي الجهاد باب: السمع والطاعة للإمام. ومسلم أخرجه في (الامارة) باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وعلق على الثاني بقوله: هذا حديث صحيح اخرجه مسلم (في الامارة) باب: حكم من فرق امر المسلمين وهو مجتمع عن محمد بن بشار عن غندر عن شعبة، عن زياد بن علاقة.

ويوجههم بقوله: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة، لله ولكتابه ولنبيه، ولأئمّة المسلمين وعامتهم»[1].

ويحملهم المسؤولية بقوله: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير على الناس راع عليهم، وهو مسؤول عنهم، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولدها، وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيّده، وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[2].

ويحذرهم بقوله: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[3].

فالمقارنة بين عهدين: عهد الإيمان الصادق والعمل الصالح، والالتزام الجاد، وعهد العبث بالقيم والتلاعب بالمبادي، الذي اشتهر أهله المسيرون لشؤونه والماسكون بزمامه بالفراغ من الإيمان الحق، وبعدم الاستقامة في العمل، وبعدم الجدّ في الالتزام، مقارنة مرفوضة من الأساس غير موثوق بها لأنها تنافي الحقيقة وتعادي الحق، وتشوّه الواقع، وتفتري على التاريخ.

ولهذا فالشبهات التي يثيرها المستشرقون حول الإسلام والمسلمين وخاصة حول صحابة رسول الله ﷺ الأبرار، لا يعطيها المسلمون الصادقون أيّ اهتمام، بقدر ما يولونها من سخرية وتهكم، وذلك لأنها صادرة من أناس حاقدين متحاملين، جاهلين بالإسلام، غير مدركين عن علم وبحياد، لمبادئه السامية،

(1)(2)(3) اخرج الثلاثة البغوي في «شرح السنة» الأول في ج 13 ص 93 وعلق عليه بقوله: هذا حديث صحيح اخرجه مسلم (في ـ الإيمان ـ باب: بيان انه لا يدخل الجنة الا المؤمنون) عن محمد بن عبّاد المكي عن سفيان بن عيينة. والثاني في ج 10 ص 61 وعلق عليه بقوله: هذا حديث متفق على صحته أخرجه محمد بن إسماعيل عن مالك، وأخرجه مسلم عن علي بن حجر، عن إسماعيل، كلّ عن عبد الله بن دينار. والثالث في ج 10 ص 221 وعلق عليه بقوله: هذا حديث متفق على صحته (أخرجه البخاري في (الفتن) وفي (العلم) وفي المغازي) وفي (الديات) ومسلم في (الإيمان).

ولمثله العليا، ولأخلاق وشمائل بناته الذين شيّدوا قواعده ونشروا هديه بين الناس.

لكن وإن كانوا لا يهتمون بشبهات المستشرقين بقدر ما يسخرون منها، فإنهم يأسفون من بعض الغافلين الذين يتأثرون بها، ويعتبرونها من الأبحاث التاريخية الصادقة، ومن التحقيق العلمي الموثوق به، غير منتبهين لما وراءها من دوافع الحقد، وعوامل العداء، ومن رواسب الجهل، وبقايا الوثنية، ومن تمسك بالضلال، وحب للتشويه، ومن محاربة للحق، وكذب على الواقع، مما يجردها من التحقيق العلمي ويخرجها من دائرة الصدق والنزاهة، ويرمي بها إلى منحدر الكذب والبهتان.

وذلك لأن ما تمّ في السقيفة من مفاوضة ومشاورة، ومن جدل ومناقشة، أدت إلى انتخاب مباشر لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ثم تأييد ذلك بأخذ البيعة العامة له من المسلمين الذين جمعهم أبو بكر في الغد الموالي لبيعة السقيفة في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وعرض عليهم ما تمّ له في السقيفة من بيعة مباشرة فأيدوا ببيعتهم العامة له، وبذلك تمّ انتخابه بالإجماع[1].

ثم وقع تتويج هذه الصورة الجادة من صور الشورى في مجال الحكم والسياسة بالخطاب السياسي الذي تقدم به المنتخب لمنتخبه.

قال ابن اسحاق: حدثني الزهري، قال: حدثني أنس بن مالك، قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة، وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله.

ثم قال: «أيها الناس إني كنت قلت لكم بالأمس مقالة[2] ما كانت مما

---

(1) هناك روايات تقول: ان سعد بن عبادة، والحباب بن المنذر، اللذين امتنعا عن البيعة في السقيفة، استمرا على امتناعهما حتى عند اخذ البيعة العامة (انظر الطبري ج 3 ص 203).

(2) هي قوله ـ عندما توفي رسول الله ـ ﷺ: «ان رجالاً من المنافقين يزعمون ان رسول الله ﷺ قد توفّي =

وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهده رسول الله ﷺ ولكني قد كنت أرى رسول الله ﷺ سيدبّر أمرنا يقول: يكون آخرنا، وأن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى الله رسوله ﷺ فإن اعتصمتم به هداكم لما كان هداه له. وأن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة.

فتكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإني قد ولّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوّي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحقّ منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع فاحشة في قوم قطّ إلّا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[1].

في هذا الخطاب السياسي من أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ بعد انتخابه وبيعته بالخلافة، أبعاد تدل على مدى إيمانه وصدقه، ومدى تمسّكه بهدي الله ورسوله، ومدى إرادته لتحمل أعباء المسؤولية ومدى بعد نظره في بيان وتوضيح ما يصلح الراعي والرعية، وما يحمل المجتمع على وحدة الصف، وعلى ما ينشر الأمن والاستقرار في أرجائه، وبين أفراده وطوائفه وفئاته. وما يحيط الأمة بالصيانة والمناعة، ويشدّها دائماً ـ ما دامت متصفة به ـ إلى قوتها وهيبتها، وإلى مركز الريادة والقيادة.

= وان رسول الله ﷺ والله ما مات، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه، أربعين ليلة ثم رجع اليهم بعد ان قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن ايدي رجال وارجلهم زعموا ان رسول الله ﷺ مات» ـ السيرة النبوية لابن هشام ج 4 ص 305 نشر دار احياء التراث العربي: بيروت لبنان ـ حققها الاساتذة: مصطفى السّقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي.

(1) السيرة النبوية لابن هشام ج 4 ص 311.

كل ذلك كان منه في غزارة معنى، ومتانة أسلوب، وقوة مبنى وبلاغة تعبير، وروعة إيجاز.

فالبعد الأول: في هذا الخطاب السياسي، أنه ـ رضي الله عنه ـ بانتخابه خليفة لرسول الله ﷺ وأميراً على المؤمنين، سوف لا يعتبر نفسه أفضل منهم، ولا أعلى مستوى، وإنما هو أحدهم وهذا من أبي بكر الصديق مستمد من روح التربية الإسلامية التي تجعل المؤمنين سواسية لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[1].

وهذا لا يوجد بصدق إلا في التشريع الإسلامي، وعند من سار على منهجه واهتدى بهديه. (فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم).

والبعد الثاني: هو أن الأمة الإسلامية، كما أن لها حقّ الانتخاب لها حقّ مراقبة من انتخبته، ومحاسبته، وميزانها في المراقبة والمحاسبة ليس الهوى والشهوات ولا العصبية بعامل الجنس أو اللـون أو بدافع التمذهب أو التحزّب، إنما هو ميزان التفريق بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين العمل الصالح النافع والعمل الطالح الضار، وبمعنى أشمل ميزان الإقبال على طاعة الله سبحانه وتعالىٰ. والبعد عن معصيته.

(فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم).

وهذا الحق الممنوح لـلأمة في الاختيـار والانتخاب، وفي المـراقبة والمحاسبة، هو (الديموقراطية) حسب التعبير المعاصر، في أصح معانيها، وفي أنبل مقاصدها وفي أجدى معطياتها، وفي أفضل مراميها وأهدافها.

والبعد الثالث: هو ما ينبغي أن يتوفر لضمان سلامة العلاقة بين الراعي

---

(1) سورة الحجرات آية 13.

والرعية وإنتاجها الإنتاج الطيب، من تبادل الصدق بينهما أي بين جميع أعضاء العائلة الإسلامية، ومن إزالة الكذب من ساحاتهم (الصدق أمانة، والكذب خيانة).

والبعد الرابع: نشر العدالة بين الناس وذلك بإعطاء كل ذي حق حقه حيث الكل أمامها ـ في الهدي الإسلامي ـ سواسية، القوي منهم والضعيف في مستوى واحد في مجال الحقوق لا يهضم حقّ الضّعيف لضعفه، ولا يترك حقّه للقويّ لقّوته، بل يصبح القوي أمام العدالة الإسلامية ضعيفاً حتى يؤخذ الحق منه، والضعيف قوياً حتى يؤخذ الحق له، ويمكن منه (والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقّه إن شاء الله، والقوّي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحقّ منه إن شاء الله).

والبعد الخامس: مواصلة الجهاد، ومداومة الاستعداد له، لتحتفظ الأمة بمناعتها وقوّتها، ولتبقى قادرة على تبليغ هدى الله وشريعته إلى الناس، وذلك لأن من رسالتها تبليغ ذلك، والدفاع على الحق، وإعلاء كلمة الله، ومحاربة الباطل، وبذل غاية الجهد لإزالته.

والأمة التي تتحمل القيام بهذه الرسالة ـ وهي الأمة الإسلامية ـ لا بدّ أن تكون محاربة من أهل الباطل أعداء الحقّ، ولكي تنتصر عليهم، عليها أن تكون مستعدة للمواجهة وقادرة عليها، ولا يتم لها ذلك إلا بمواصلة الجهاد وبمداومة الاستعداد له. وأما إذا استعذبت حياة الدعة والارتخاء وأضاعت حزمها وتغافلت عن بناء قوّتها، وتهاونت في طلب أسبابها. دبّ إليها الضعف والانهيار واستسلمت لحياة الذل والمهانة (لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ).

والبعد السادس: تبصير الأمة أفراداً وجماعات إلى ما يجعلهم في أمن واستقرار، وفي يسر ورخاء. وهذا التعبير تمثل في تحذير الأمة من اجتراح

السيئات ومن الوقوع في مراتع الإثم، ومن إشاعة الفاحشة التي كلما فتحت أبوابها أفقدت الناس الأمن والاستقرار وأفسدت عليهم الحياة (ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمّهم الله بالبلاء).

والبعد السابع: حثّ الأمة وحملها على ملازمة الصلاة والقيام بها في أوقاتها مهما كانت الظروف والملابسات لأنها عماد الدين وهي العبادة التي فرضها الله على المسلمين لإصلاحهم أفراداً وجماعات، ولجعلهم لا يفارقون أبعاد إصلاحها في الليل والنهار خمس مرات (قوموا لصلاتكم يرحمكم الله).

بهذا الإيمان العميق الصادق، وبهذه المثالية الرائعة في الاستقامة وبهذه النظرة الصائبة البعيدة المرمى، وبهذا التحليل الجاد للقضايا والأمور وبهذا التفاني في حبّ الخير ونشره بين المؤمنين، وبهذه الإرادة القوية والعزم الثابت لحمل الناس على الحق، وإبعادهم عن الباطل، وبهذا الجهاد العظيم لحماية الإسلام ولإعلاء كلمة الله وتبليغ هديه وهدي رسوله إلى الناس، تمّت بيعة السقيفة، والبيعة العامة التي تلتها، وتمّ الانتخاب المباشر لأبي بكر الصديق بأسلم أسلوب تتطلبه الظروف وقتها، وبأروع صورة من صور الشورى التي دعا إليها الإسلام وجعلها أمتن أساس من أسسه في دنيا الناس وفي رحاب العدالة الحقّ.

وهنا ألمثل هؤلاء الذين اختارهم الله واصطفاهم لأن يكونوا صحابة لرسوله وحاملي مشعل الهداية من بعده، هداة للناس ومعلمين، ينسب التآمر والتحايل على بعضهم بعضاً للوصول إلى الحكم؟ كبرت كلمة تخرج من أفواه المستشرقين أعداء الإسلام والمسلمين. ومن أفواه أذنابهم الغافلين عن الحق التائهين في متاهات التقليد.

ومثل هذه الشبهات حول الإسلام وبناته، لا يصدقها التاريخ الصحيح ولا يدين بها النقل الثابت، ولا يقبلها العقل الواعي الرشيد، لأنها شبهات مثيرها

الحقد والتحامل، ودافعها محاربة الحق، ونصرة الباطل.

فخلافة أبي بكر الصديق، كانت ـ كما ذكرت ـ على صورة من صور الشورى وعلى أسلوب من أساليبها.

وأما خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ فكانت بأسلوب آخر، وإن كان بمنهج قريب من منهج خلافة أبي بكر، فقد تمّ بصورة تخالف الصورة الأولى، حيث عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ بالخلافة لعمر، بعد أن استشار كبار الصحابة فيمن يخلفه وكلهم أشاروا عليه بعمر.

وبعد الاستشارة والعزم قال ـ مخاطباً المسلمين ـ :

«إني ولّيت عليكم خيركم في نفسي، فإن رشد وعدل، فذلك علمي به، ورأيي فيه، وإن جار وفجر، فلا علم لي بالغيب، والخير أردت.

﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾[1].

والاستشارة في اسناد الخلافة لسيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ وإن كانت بأسلوب قريب من الأسلوبين السابقين، فقد تطورت الصورة بعض التطور حيث جعلها عمر مشاعة بين ستة من الصحابة.

لما طعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ دخل عليه نفر من الصحابة فقالوا له: يا أمير المؤمنين لو استخلفت؟ قال: «من استخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجرّاح حيّاً استخلفته، فإن سألني ربي، قلت سمعت نبيك يقول: «إنه أمين هذه الأمة» ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّاً استخلفته، وإن سألني ربي قلت سمعت نبيّك يقول: «إنّ سالماً شديد الحبّ لله» فقال له رجل: أدلّك عليه عبد الله بن عمر. فقال عمر: «قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا، ويحك كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته؟ لا أرب[2] لنا في أموركم. ما

(1) سورة هود آية 88.

(2) أي لا غرض ولا قصد.

حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن أنج كفافاً لا وزر، ولا أجر، اني لسعيد، انظر فإن استخلف فقد استخلف من هو خير مني (يعني أبا بكر)، وان أترك فقد ترك من هو خير مني «يعني رسول الله ﷺ ولن يضيّع الله دينه، فخرجوا».

ولقد خشي أصحاب رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يقضي عمر نحبه دون أن يستخلف أحداً، فذهبوا إليه مرة أخرى وقالوا: يا أمير المؤمنين، لو عهدت عهداً؟ فقال: عليكم هؤلاء الرهط الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وقال فيهم: انهم من أهل الجنّة: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمـن بن عوف، والزبير بن العوام، حواري رسول الله وابن عمته، وطلحة بن عبيد الله وعبد الله بن عمر، على الا يكون له من الأمر شيء.

وأوصى بأن تكون الخلافة للرجل الذي يقع عليه الاختيار من الفريق الذي في صفّه عبد الله بن عمر في حالة تساوي الأصوات، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فيكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف. ثم دعاهم عمر وقال لهم: «اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، لا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض، اني لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم»[1].

بهذا التوجيه المخلص السليم، وبهذه النظرة الصائبة بعيدة المدى،

---

(1) كتاب «النظم الإسلامية» تأليف الدكتورين حسن إبراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن ط 3 سنة 1962 ص 24 - 25.

وبهذه الوصية الرائعة التي تدل على المستوى الحضاري المتقدم جدّاً حتى على ما عند الناس اليوم، والتي بمقتضاها تمت الشورى وانتخب سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ خليفة وأميراً على المسلمين.

تتضح الأمور التي ترمي شبهات المحاربين للإسلام عرض الحائط حيث لا تستحق غير ذلك وهي التالية:

الأمر الأول: مدى شعور عمر ـ رضي الله عنه ـ بعبء وثقل مسؤولية الخلافة.

الأمر الثاني: ليس هناك دافع يدفع بصحابة رسول الله ﷺ ـ بناة مجد الإسلام ـ وخاصة الخلفاء الراشدين منهم، إلى تحمل أعباء الإمارة أو إلى الإشارة بمن يتحملها، غير ارضاء الله ورسوله، وغير إرادة تحقيق الخير للإسلام والمسلمين.

الأمر الثالث: لم يدفع عمر حبّه لأهله، إلى أن يشير على المسلمين في مجال تحمل عبء الحكم والسياسة بغير الكفء فقد أخرج ابنه عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ وهو من الاتقياء الصالحين الذي شهد رسول الله ﷺ بصلاحه فقال: «ان عبد الله رجل صالح»[1] من بين من أشار بانتخاب أحدهم بواسطة الشورى، ولام من أشار عليه بابنه، واعتبر إشارته ليست لوجه الله، ولصالح المسلمين، وإنما هي من قبيل المجاملة له، والتقرب إليه وإلى ابنه وهذا ما يكرهه الله ورسوله، ويكرهه عمر الذي لا يخرج عن هديهما، وذلك لأن ابنه عبد الله وإن كان من الصالحين، غير قادر على تحمّل أعباء الإمارة وإسناد الإمارة لغير الكفء لا يرضاه هدى الإسلام، ولا يقبله مبدأ الشورى وتنافيه العدالة.

---

(1) الرياض المستطابة: ص 194 بعنوان: ابو عبد الرحمن عبدالله بن عمر.

الأمر الرابع: اجتهاد عمر، وحيرته قبل أن يأخذ قراره في الاستخلاف، أساسه الوقوف عند الأسوة الحسنة والاعتبار بها حتى ينتهي إلى البتّ فيما يغلب على ظنه أنه لصالح الإسلام والمسلمين، وأنه موافق لهدي الله ورسوله، فلم يكن ذلك منه لهوى في النفس، أو لهدف سياسي يرمي إلى تقريب أحد من الناس وإكرامه وابعاد آخر وإهانته.

الأمر الخامس: في تعيينه للصحابة الستة الذين رشّحهم لينتخب واحد منهم لم يراع تقديم رهط على رهط، أو تفضيل فئة على أخرى، وإنما راعى واعتمد تزكية رسول الله ﷺ لهم حيث مات وهو عنهم راض وقال فيهم: «انهم من أهل الجنّة».

الأمر السادس: ما أوصى به عمر ـ رضي الله عنه ـ من طريقة عملية ومن منهج محكم، للسير بالاستشارة إلى غايتها المرجوة، وللانتهاء بها إلى الجدوى المرادة، التي تأخذ بيد المنتخب، وترضي المنتخبين، وتحيطهم بهدوء الأمن، وراحة الاطمئنان، ثم تفيد الإسلام وتوحّد صفوف المسلمين وتركّز أساس الشورى بينهم على دعامة من الحكمة والتبّصر، لم نر مثله إلى اليوم في دنيا الناس.

وحسب ما أعتقد سوف لا نرى في مستقبل الأيام، أشدّ منه حزماً، ولا أكثر منه حكمة ولا أبعد تبصّراً.

فهل هناك في دنيا الناس، بعد أبي بكر إيمان أصدق من إيمان عمر، وإخلاص أشدّ من إخلاصه، وبعد نظر أبعد من نظره، ووضوح رؤية أكثر من وضوح رؤيته، وسموّ ودقّة في اتخاذ القرار أروع من سموّه ودقّته واجتهاد عميق وصائب أعمق من اجتهاده، وأصوب، وحبّ لله ورسوله وللمؤمنين أعظم من حبّه، اللهم إلا ما كان لرسول الله ﷺ وما كان لخليفته الأول أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ.

وبهذه الأساليب المتطورة في الاستشارة ـ حسب الهدي الإسلامي ـ يعلم :

أولاً: أنه ليس هناك طريقة معيّنة، في أسلوب الشورى، وفي اختيار الحاكم، وإنما مرد ذلك إلى الأمة، ولها أن تختار من الوسائل ما يتفق مع ظروفها وأحوالها بعد أن تتوفر الشورى كشرط أساسي.

ثانياً: أن الشورى هي المبدأ الأساسي في الأمور الهامة للمسلمين ومن أهمها انتخاب الحاكم واتخاذ القرار السياسي، وأما أساليب تطبيقها فيها تخضع لاختلاف الزمان والمكان، ولتطور البيئة والإنسان وتلك هي المرونة البناءة المجدية التي شرعها الله لعباده والتي تتماشى وسير حياة الإنسان، دون المساس بالمبدأ الأساسي الذي منه ينبع الخير وبه تتحقق الاستقامة ويستقيم الحال.

ـ والعدالة، هي مهد الحضارة وأساس العمران، ومن ثمارها أنها تحفظ للأفراد كرامتهم، وتنشر الأمن في المجتمعات، وتقوي وحدة الصف بينهم، وتحبّب للناس العمل المثمر المفيد، وتغرس فيهم مشاعر الحب لأوطانهم، وتدفعهم إلى التضحية في سبيل حمايتها وصيانتها، ومن أجل بناء مجدها، وتشييد حضارتها ونشر مبادئها ومثلها بين الناس.

والعدالة في الإسلام تشمل جميع الميادين، وتهم مختلف المجالات.

تشمل ميدان الحكم العام والخاص، فالعام مثل الحكم على مستوى الأفراد والطوائف والفئات، وعلى مستوى الشعوب والأمم وعلى مستوى العائلة الإنسانية في أرجاء المعمورة، وهذا يستمدّ من قوله تعالىٰ: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾[1]. ومن قوله عزّ وجلّ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنآن**

---

(1) سورة الحديد آية 25.

قوم على ألّا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾[1] ومن قوله سبحانه وتعالىٰ: **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾**[2] ومن قوله جلّ ذكره: **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله﴾**[3] ومن غيرها من الآيات التي تتناول موضوع العدل في الحكم في المجال العام.

والخاص مثل الحكم على مستوى الأسرة الصغيرة من أزواج وأبناء وعلى مستوى الأسرة الكبيرة من طوائف الأمة الإسلامية وفئاتها.

فعلى مستوى الأسرة الصغيرة يستمد العدل بين الأزواج من قوله تعالىٰ: **﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة﴾**[4].

ومن قوله عليه الصلاة والسلام ـ: «من كان لـه امرأتـان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وشقّه مائل»[5].

وبين الأولاد يستمدّ مما روي عن النعمان بن بشير أنه قال: ان أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ فقال: إني نحلت ابني هذا غلاماً كان لي فقال رسول الله ﷺ «أكلّ ولدك نحلته مثل هذا؟».

---

(1) سورة المائدة آية 8.
(2) سورة النساء آية 58.
(3) سورة ص آية 26.
(4) سورة النساء آية 3.
(5) اخرجه الإمام البغوي في كتاب «شرح السنة» وعلق عليه بقوله: وفي اسناده نظر وجاء في تعليق المعلقين: زهير الشاويش، وشعيب الأرناؤوط ما يلي: اخرجه أبو داود (2133) في النكاح، باب القسم بين النساء، والترمذي (1141) في النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر. وابن ماجة (1969)، والدارمي (143/2) وإسناده قوي وصححه ابن حبان (1307) ج 9 ص 150.

فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ : «فأرجعه»[1].

ومن غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تتناول موضوع العدل بين الأزواج والأبناء وعلى مستوى الأسرة الكبيرة يستمد العدل من مثل قوله تعالىٰ: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحبّ المقسطين﴾**[2].

وتشمل ميدان القضاء والفصل في النزاعات والخصومات وإقامة البينة والأداء بالشهادة ويستمد العدل من هذا الميدان من قوله تعالىٰ: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾**[3].

ومن قوله سبحانه وتعالىٰ: **﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾**[4] **﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾**[5] ومن قوله: **﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب**

---

(1) اخرجه كذلك الإمام البغوي في «شرح السنة» ج 8 ص 296 وعلق عليه بقوله: هذا حديث متفق على صحته اخرجه محمد عن عبدالله بن يوسف، واخرجه مسلم عن يحيى بن يحيى كلاهما عن مالك. رواه حصين عن الشعبي، عن النعمان بن بشير، وقال: فقال رسول الله ﷺ «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» قال: فرجع. قال داود بن أبي هند عن الشعبي قال: «فأشهد على هذا غيري» ثم قال: «أيسرك ان يكونوا اليك في البر سواء؟» قال: بلى قال: «فلا اذا» ـ وقال أبو حيان عن الشعبي: قال: « فلا تشهدني اذا، فإني لا أشهد على جور» والمراد من الجور: هو العدول عن التسوية.

(2) سورة الحجرات آية 9.

(3) سورة النساء آية 135.

(4) و (5) سورة المائدة آية 48 - 49.

بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً * واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحبّ من كان خوّاناً أثيماً * يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً * ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً *﴾[1].

ومن قوله: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾[2].

ومن قوله: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾[3] ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾[4].

ومن قوله: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلّكم تذكّرون﴾[5].

ومن غيرها من الآيات التي تتناول ميدان القضاء والفصل في النزاعات والخصومات وما يتصل بذلك من إقامة البينة والإدلاء بالشهادة.

ـ والمساواة هي أسمى مظهر من مظاهر العدالة وأطيب ثمرة من ثمارها في مجال التطبيق.

والمتأمل فيما جاء به الدين الإسلامي، وشرعه الله من مبدأ المساواة لا يسعه إلا أن يؤمن عميق الإيمان، ويحكم صادق الحكم، بجميع ما يملك من رشد عقل، وتبصّر قلب، وصدق مشاعر وأحاسيس، بأن ما جاء به الإسلام، وما

(1) سورة النساء آيات 105 - 109.
(2) سورة النساء آية 112.
(3) و (4) سورة البقرة آية 282 - 283.
(5) سورة الأنعام آية 152.

شرعه الله لعباده من مبدأ المساواة لم يصل ولن يصل إليه أي تشريع غير تشريع الإسلام، سواء كان هذا التشريع غير الإسلامي سماوياً أو وضعياً، وذلك لأن القواعد التي بنى عليها الإسلام مبدأ المساواة لا ينال منها ما عند الناس من هوى غلّاب، ومن شهوات مغرية، ومن سلوك معوّج حاربوا به أنفسهم، وهدروا به قيمتهم السامية.

ان المساواة التي جاء بها الإسلام وشرعها الله لعباده تجعلهم جميعاً سواسية، ربهم واحد وإنسانيتهم واحدة، وأبوهم آدم وأمهم حواء. لا يفضل بعضهم على بعض إلا بقدر ما يقوم به من عمل صالح، وما يتّبعه من هدى، وما يسلكه من طريق مستقيم.

وبهذه النظرة، وبمبدأ المساواة الذي لا ينال منه الهوى ولا تزعزع أساسه الشهوات، حارب الإسلام ما انحدر إليه الناس، وينحدرون من طبقية مقيتة، ومن عنصرية مؤذية، ومن عصبية حاقدة، كما حارب ما أساؤوا به لأنفسهم من مظاهر التفرقة التي اخترعوها وجعلوا بها من أنفسهم طبقات: سادة وأراذل، أغنياء وفقراء، أشراف وأخساء، ألوان سامية وألوان منحطة، طوائف غربية، وطوائف شرقية، متناحرة ومتصارعة.

حارب الإسلام بمبدأ المساواة جميع تلك المظاهر المزرية، ومختلف تلك الألوان المؤذية ولفت نظر العباد إلى ما شرعه لهم من مساواة أمام القانون، ومن مساواتهم في الحقوق العامة السياسية وغيرها. فلا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض، ولا لغني على فقير، ولا لوجيه على صعلوك إلا بالتقوى.

وبهذا أراد الإسلام من الناس جميعاً وخاصة من الذين يؤمنون به ويهتدون بهديه أن يقضوا على نظام الطوائف، وأساليب التفرقة بين الطبقات في الحقوق والواجبات وهذا يؤخذ ويستمدّ من قوله تعالىٰ: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من**

ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1].

ومن قوله عزّ وجلّ ـ : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾[2].

ومن قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[3] وقوله: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[4] وقوله: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى»[5] وقوله: «كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكوننّ أهون على الله من الجعلان»[6].

ومن غيرها من الآيات والأحاديث التي تناولت مبدأ المساواة. وبهذه الدعائم الأساسية: الشورى، والعدالة، والمساواة. وبما لها من أبعاد جدّ

---

(1) سورة الحجرات آية 13. (2) سورة النساء ية 1.

(3) (4) (5) (6) هذه الأحاديث أوردها الحافظ ابن كثير حول تفسيره لقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى. الآية﴾ ج 7 ص 364-365. الأول بالإسناد التالي: قال البخاري ـ رحمه الله ـ: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عبدة عن عبيد الله بن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمكم عند الله أتقاكم» وعلق عليه بقوله: وقد رواه البخاري في غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان، ورواه النسائي في التفسير من حديث عبيد الله ـ وهو ابن عمر العمري ـ به. والثاني بالإسناد التالي: قال مسلم ـ رحمه الله ـ: حدثنا عمر الناقد، حدثنا كثير بن هشام، حدثنا جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم... الحديث» وعلق عليه بقوله: ورواه ابن ماجة عن أحمد بن سنان، عن كثير بن هشام، به. والثالث بالإسناد التالي: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن أبي هلال، عن بكر، عن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخير.... الحديث» وعلق عليه بقوله: تفرّد به أحمد. والرابع بالإسناد التالي: قال أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن يحيى الكوفي، حدثنا الحسن بن الحسين، حدثنا قيس ـ يعني ابن الربيع ـ عن شبيب بن غرقدة، عن المستظل بن حصين، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: كلكم بنو آدم... الحديث» وعلق عليه بقوله: قال ـ أي أبو بكر البزار ـ: لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه.

ثريّة ومجدية، يتوارى منها الهوى، وتخنس أمامها الشهوات كان منهج الإسلام في السياسة والحكم أحكم وأقوم، وأعدل منهج في دنيا الناس، وذلك لأنه ـ كما تقدّم أن قلت: ـ أقيم على دعائم ثابتة وقارة، لا يوهنها الزمان بتعاقبه ولا تنال منها القضايا مهما تشابكت، ولا الأحداث مهما ثقلت وتعاظمت، ولا يمس من جدّتها ودوام صلاحها تطور الناس في معطيات تجاربهم، وفي تجدد أنظارهم، وتعدد آرائهم، وفي تعاقب حضاراتهم وتفاعلها.

الملاحظة الثانية:

لسائل أن يسأل عن منهج الإسلام الذي بمقتضاه يتعامل المسلمون مع غيرهم من الأمم والشعوب غير المسلمة، أو بتعبير آخر: عما جاء به الإسلام من أحكام في مجال ما يسمى اليوم بالأحكام الدولية؟.

وللإجابة عن هذا أقول:

ان أحكام الإسلام في هذا المجال تتجه بالمسلمين، ليكونوا على بيّنة من أمرهم في تعاملهم مع أنفسهم في الداخل، وفي تعاملهم مع غيرهم من الأمم والشعوب غير المسلمة في الخارج، إلى أن ينطلقوا من محورين.

المحور الأول يمثل الجبهة الداخلية، وهذا المحور ـ حسب الهدي الإسلامي ـ ينبغي بل يجب أن يكون مقاماً على مبادىء أساسية تتركز عليها سياسة الأمة الداخلية التي على أساسها تبني سياستها الخارجية، وبصورة إجمالية تتلخص هذه المبادىء فيما يلي:

أولاً: الأمة الإسلامية مخاطبة من الله، ومكلفة من لدنه بأن تسير على هديه وتعمل بشريعته، وتبلغ ذلك إلى الناس، وتعمل جاهدة على أن تخرجهم، بواسطة هدى الله وتوجيه رسوله، من الظلمات إلى النور.

وهذا التكليف والخطاب الموجه للأمة يستنتج ويستفاد من مثل قوله ـ عزّ

وجلّ ـ : ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾[1] وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾[2] وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[3] وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾[4].

وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾[5] وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله و لا تولّوا عنه وأنتم تسمعون﴾[6] وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾[7] وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾[8] وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[9] وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل * إلّا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضرّوه شيئاً والله على كل شيء قدير *﴾[10] وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن

---

(1) سورة المائدة آية 1.
(2) سورة المائدة آية 35.
(3) سورة المائدة آية 51.
(4) سورة المائدة آية 54.
(5) سورة المائدة آية 57.
(6) سورة الأنفال آية 20.
(7) سورة الأنفال آية 24.
(8) سورة الأنفال آية 27.
(9) سورة الأنفال آية 45.
(10) سورة التوبة آية 38 - 39.

تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[1] وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾[2].

وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾[3].

هذا من حيث خطاب الأمة وتكليفها بالقضايا العامة والأهداف المصيرية، وأما خطابها وتكليفها بالأوامر والنواهي في مجال العبادات، وفي ميدان المعاملات، وفي دائرة الحكم والقضاء وتنفيذ الأحكام وفي دروب فعل الخير بصفة عامة، يستنتج ذلك ويستفاد من مثل قوله تعالىٰ: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾[4] وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[5] وقوله ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾[6] وقوله: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾[7] ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾[8] وقوله: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[9] وقوله: ﴿وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾[10].

ثانياً: من هذا المنطلق، ولتكون الأمة قادرة على القيام بما كلّفت به نحو نفسها ونحو الناس، عليها أن تقيم نظامها الداخلي، وأن تبني دولتها على مبدأ

---

(1) سورة محمد آية 7.
(2) سورة الممتحنة آية 1.
(3) سورة الصف آية 14.
(4) سورة البقرة آية 43.
(5) سورة البقرة آية 183.
(6) سورة البقرة آية 196.
(7) سورة المائدة آية 38.
(8) سورة النور آية 2.
(9) سورة النساء آية 58.
(10) سورة الحج آية 77.

أن الأرض لله، والخلق لله، والملك لله، وإنها بما لها من سلطة، وبما أسسته من دولة، هي خليفة الله في أرضه، لا تسير إلا في منهجه وحسب هديه، ولا تحكم إلاَّ بحكمه، ولا تنفّذ إلاَّ أحكامه، ليس لها ان تستعبد أحداً أو أن تتعبّد أحداً بشيء ما لم يأذن به الله، ولم يأمر به.

ثالثاً: بهذه الخلافة الممنوحة لها من الله، لها وحدها أمر اختيار من يقودها وينوبها في تسيير شؤونها العامة، وقضاياها المصيرية، وفي تنظيم سياستها التي ينبغي أن تسلكها مع الأفراد والجماعات، والطوائف والفئات داخل محيطها، ومع غيرها من الأمم والشعوب خارج محيطها.

رابعاً: اختيارها لمن ينوبها في ذلك من أجل أن يكون مسنوداً بما تملكه من طاقة وإرادة، ينبغي أن يكون بواسطة عقدة تبرمها معه، وعلى أساسها يرتبط ارتباطاً يتعهد الحاكم بمقتضاها بالسير في حكمه على القواعد التي رسمها القرآن والسنّة، وتتعهد هي عملاً باختيارها ومبايعتها له بالطاعة له في كل ما يصدره ويأمر بتنفيذه ما لم يحلّ حراماً أو يحرّم حلالاً.

وبما تقدم يتضح أن الإسلام يقيم دولته على أساس التكليف الإلهي للأمة، وإن الأمة بهذا التكليف هي صاحبة الاختيار واتخاذ القرار وإنها مسؤولة مسؤولية حقيقية عن صالح الدين والدنيا، وعن استقامة الأفراد والجماعات، وعن إسناد النيابة لمن تراه صالحاً لنيابتها وانتزاعها منه إذا ما حاد عن طريق الحقّ، واتبع الهوى وسلك سبل الضلال.

وبهذه المكانة الرفيعة التي رفعت إليها الأمة الإسلامية تبرز المبادىء السامية التي تجعل منها أمة مميزة عن غيرها من الأمم، وهي:

1 ـ أن لها شخصية معنوية هي مناط التكليف والمسؤولية.

2 ـ أنها توجه الحكم وتسيطر على الحاكمين الذين يستمدون منها

سلطانهم وقوّتهم ومن وحي هذا المبدأ سجّل التاريخ مقولات ثلاث قالها خلفاء راشدون يقتدى بسيرتهم ويهتدى بهديهم.

الأولىٰ: لأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ نقل أنه عندما وجد نفوراً من علي وبني هاشم قال: «أيها الناس إني استقيلكم بيعتكم.. إن رأيتم أن تقيلوني بيعتكم فذلكم لكم...)[1].

الثانية: لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول لطلحة بن عبيد الله عندما لاحظ أن النعمة بطرت كثيراً من الناس: «وددت أني في سفينة تذهب هذه شرقاً وهذه غرباً، ولن يعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم فإن استقام اتّبعوه، وإن جنف قتلوه، فقال طلحة: يا أمير المؤمنين هلاّ قلت إن تعوج عزلوه قال عمر: لا، القتل أنكى لمن بعده!»[2].

الثالثة: لعمر بن عبد العزيز الذي ورث عرش الخلافة الأموية عن آبائه فلم يطب له أمرها من غير أن تسندها إليه الأمة وتبايعه بها.

فخطب الناس أول جمعة تأمّر فيها على المسلمين فقال:

«أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم، فقال الناس: يا أمير المؤمنين، قد اخترناك، ورضيناك، فل أمر المسلمين باليمن والبركة»[3].

3 ـ انها سيدة نفسها وهي صاحبة السيادة على نفسها وأبنائها جميعاً ولا سيادة عليها لغير الله.

---

(1) من دراسة بعنوان: (الفقه السياسي عند المسلمين) قام بها الأستاذ محمود فياض منشورة ضمن دراسات اخرى بعنوان «سلسلة الثقافة الإسلامية» نشر: المكتب الفني للنشر القاهرة ربيع الأول 1379 هـ سبتمبر 1959م.

(2) و (3) نفس المرجع بالصفحة 514.

4 ـ من مسؤوليتها أنها ترعى صالح الفرد، وتعينه على أن يصبح قادراً على أداء تكاليفه بتمكينه من التمتع بحرياته المشروعة.

5 ـ في قمة مسؤوليتها، جدية التعاون بينها وبين من مكّنته من السلطة وذلك بأن تعطيه ما يتناسب مع التكاليف التي كلفته بها، وأن تكون طاعتها له مشروطة بمدى التزامه للشرع الذي كلف بتنفيذه.

وبمحور الجبهة الداخلية المقام على جملة المبادىء الأساسية حققت الأمة الإسلامية بهدي من القرآن والسنّة لأفرادها وجماعتها، ولكل من يحتمي بسلطانها ويحتكم إلى شريعتها الحرية والأخوة والمساواة، والأمن والعدالة والرخاء والسلام.

المحور الثاني: يمثل الجبهة الخارجية، وهذا المحور ـ حسب الهدي الإسلامي ـ يمتاز بالخصائص التالية:

أولاً: السلام طابع الدعوة الإسلامية:

وذلك لأن الأمة الإسلامية، أمّة ذات رسالة عالميّة، لقوله تعالىٰ: ـ مخاطباً نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ـ ومبيناً له أبعاد رسالته: ﴿**وأرسلناك للناس رسولاً**﴾[1] وقوله: ﴿**وما أرسلناك الا كافّة للناس**﴾[2] وقولـه: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾[3] ولقوله عزّ وجل: واصفاً أمة الإسلام ومبيناً ميزتها على سائر الأمم ـ ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾[4].

وبهذا فهي أمة دعوة وتبليغ. وللقيام بأعباء هذه الرسالة، وبمسؤولية

---

(1) سورة النساء آية 79.
(2) سورة سبأ آية ٨٢.
(3) سورة الأنبياء آية 107.
(4) سورة آل عمران آية 110.

الدعوة والتبليغ حق القيام، ولتبليغ هدي الله وشريعته إلى الناس أحسن تبليغ أمرهم الله أن يستعملوا في تبليغهم وسائل السلم والسلام، لا وسائل القهر والإكراه فقال سبحانه وتعالىٰ ـ مخاطباً نبيه ﷺ ، وهو خطاب لأمته: ﴿**ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾[1].

فهذه الآية رسمت للمسلمين أسلوب الدعوة، وهو أسلوب ذو ثلاث شعب بها يتجه إلى الناس جميعاً على اختلاف مستوياتهم، فالعلماء والحكماء يتجه إليهم ويدعوهم بطريق «الحكمة» وما فيها من أبعاد يستجيب لها العقل ذو النظر البعيد ويتجاوب معها العلم ذو الأرجاء الواسعة.

والعامة من الناس يتجه إليهم، ويدعوهم ويخاطبهم بأسلوب يصل إلى عقولهم وقلوبهم بأيسر السبل، ويستهويهم بأوضح الطرق، بالموعظة الحسنة وضرب الأمثال.

والمجادلون المكابرون من الناس الذين يحملهم ما في نفوسهم من مرض على أن يجادلوا بالباطل، ويصروا على محاربة الحق يتجه إليهم ويحاورهم بالتي هي أحسن.

وذلك لأن الإسلام هدفه من رسالته وغايته من دعوته تركيز السلم، ونشر السلام، ونفع الناس بهدى الله، وتنظيم حياتهم بشريعته.

وفي كل ذلك لا يتجه إلى إكراه الناس وقهرهم، وقوفاً عند قوله تعالىٰ: ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ**﴾[2].

وقوله ـ مخاطباً نبّيه ﷺ ـ وموجهاً له: ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا**

---

(1) سورة النحل آية 125.

(2) سورة البقرة آية 156.

يعقلون﴾[1] وقوله: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[2].

ثانياً: تأمين الدعوة والدفاع عنها.

فالإسلام رغم أنه يقرر الحرية الفكرية ويدعو إليها، كما يقرر حرية الرأي والاعتقاد وحريّة التدين والعبادة، فهو يطلب من المسلمين أن يبلغوا هدي الله إلى الناس ذلك الهدي الذي يقودهم بحق وبمنهج قويم لا التواء فيه وبأسلوب واضح لا غموض فيه إلى الحرية الفكرية البناءة، وإلى الرأي الصائب السديد، وإلى الاعتقاد الراسخ القويم، وإلى التدين الواضح السليم، وإلى العبادة الخالصة الصحيحة.

ومن غير شك سيجد المسلمون أنفسهم وهم يبلغون هدي الله هذا إلى الناس محاربين من أعداء الحق الكافرين بالله وبالإسلام والمسلمين، قصد أن يفتنوهم في دينهم الذي يحاربونه ويغيظهم انتشاره، وان يصدوهم ويمنعوهم من تبليغه ونشره.

ولصيانة المسلمين لأنفسهم، وحمايتهم لدينهم، ولإزالة الموانع التي تصدهم عن تبليغ دين الله وهديه إلى الناس، أذن لهم الله ـ عزّ وجلّ ـ بل أوجب عليهم أن يدفعوا العدوان عن أنفسهم وعن دينهم وعن دعوتهم وذلك بتهيئة وتوفير وسائل القوة للمواجهة وبالاستعداد الدائم لها، وهذا ما يؤخذ صراحة من قوله تعالىٰ: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾[3].

وبالمواجهة الفعلية الحازمة، ان فرضت عليهم، استنارة بقوله تعالىٰ:

---

(1) سورة يونس آية 99 - 100.
(2) سورة الكهف آية 29.
(3) سورة الأنفال آية 60.

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير﴾[1] وامتثالاً وعملاً بقوله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[2] وبقوله: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنّم وبئس المصير﴾[3] وبقوله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾[4] وبقوله: ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين﴾[5].

فمن هذه الآيات ومثلها التي تتناول موضوع مواجهة الأعداء وتأمين الدعوة والدفاع عنها يأذن الله للمسلمين بمواجهة أعدائهم لرد عدوانهم، ولحماية أنفسهم، وصيانة دينهم، ولتبليغ هدي الله وشريعته الى الناس، ويحرم عليهم الحرب العدوانية، التي لا يدفع إليها إلا فساد الفطر، وحب الطغيان، والرغبة الآثمة في استغلال الناس، ومصادرة حرماتهم وحقوقهم الفطرية واتخاذهم عبيداً للطغاة، كالحروب القائمة في عصرنا اليوم، والتي يقوم بها مدعو الحضارة، ودعاة الحرية المتهمون للإسلام بسوء ما يتصفون به، ويصنعونه من ظلم واعتداء ومن مصادرة لحريات الناس دون خجل منهم ولا حياء.

ومن تعاليم الله للمسلمين في هذا المجال أنهم إذا انتصروا ورفعوا راية الإسلام عالية، ورفض أعداؤهم الدخول في الإسلام، وآثروا البقاء على عقائدهم وأديانهم فلهم ما اختاروه، ولكن عليهم الإذعان والخضوع للدولة المسلمة التي أصبح زمام أمرهم بيدها، حتى تأمن شرّهم وغدرهم وتآمرهم،

---

(1) سورة الحج آية 39.
(2) سورة البقرة آية 190.
(3) سورة التوبة آية 73.
(4) سورة البقرة آية 193.
(5) سورة البقرة آية 194.

كما عليهم أن يشاركوا في أعبائها بالأموال المناسبة، وعلى الدولة الإسلامية حماية دمائهم وأعراضهم وأموالهم، وضمان حرياتهم الشخصية والدينية.

ويؤخذ هذا من قوله تعالىٰ: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله. ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾[1].

ومن تعاليمه لهم أيضاً أنهم إذا دعوا غيرهم إلى الإسلام، فرفضوا الدخول فيه غير معتدين ولا محاربين، ولا يحاولون فتنة المسلمين عن دينهم، ولا يظاهرون أعداءهم عليهم، فهؤلاء ينبغي أن يكونوا محلّ الرعاية والبرّ من المسلمين، وأن يتولوا حمايتهم جزاء ما يدفعونه لهم من جزية مختارين غير مضارين.

ويؤخذ هذا من قوله تعالىٰ: ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين* إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون**﴾[2].

وبما تقدّم يتضح أن السياسة الخارجية للإسلام تقوم على أساس الدعوة إلى الإسلام، وإلى الجهاد في سبيل حماية العقيدة ودفع الظلم وردّ العدوان.

وهذا الأساس هو الذي يحدّد العلاقات الدولية، وينظمها بين المسلمين وغير المسلمين.

فالمسلمون ليس هدفهم المواجهة والقتال في ساحات الوغى، وإنما هدفهم تبليغ الرسالة المكلفين من الله تبليغها الى الناس ويستعملون لذلك

---

(1) سورة التوبة آية 29.

(2) سورة الممتحنة آيتا 8 - 9.

جميع وسائل السلم والسلام، ولا يستعملون وسائل الحرب والقتال إلا إذا اضطرهم العدو لذلك، فإنهم يقدمون عليه بكل عزم وحزم، وبكل إرادة وتصميم، وهم كارهون له، حفظاً لأنفسهم ورحمة بالناس. ويستروح هذا من قوله تعالىٰ: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم**﴾[1].

ومن هنا بهدي من الله، وبتوجيه من رسوله كانت رغبة المسلمين في السلم ملحّة وإقبالهم على نشر السلام عظيماً، فتعاليم الإسلام توجههم إلى ذلك توجيهاً لا التواء فيه، وتأمرهم به أمراً يجعل روح السلم والسلام تمتزج بأرواحهم، وتستولي على نفوسهم، إلى مستوى يجعلهم يفكرون في السلم قبل تفكيرهم في الحرب، ويعملون على نشر السلام الذي يريحهم ويريح أعداءهم، من الإقدام على القتال، رأفة بجميعهم من أهواله ومآسيه، ومن مخلفاته الفاجعة.

ومن هذه التعاليم الإسلامية السمحة، انهم إذا ما وجدوا أنفسهُم أمام عدوّ لا يواجههم بالقتال، ولا يتآمر عليهم، ولا يتربص بهم الدوائر، لا يجوز لهم مواجهته ولا يحل لهم قتاله، وهذا يؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿**فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا**﴾[2].

وأنّ عليهم أن يدخلوا في السلام العام الذي يحرص عليه الإسلام أشدّ الحرص فلا يعتدوا على أحد لم يعتد عليهم، ولم يقاتلوا من لم يقاتلهم وهذا يؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين**﴾[3].

وأنهم إذا ما كانوا في حالة حرب مع أعدائهم، ومال عدوهم عن جانب

---

(1) سورة البقرة آية 216.
(2) سورة النساء آية 90.
(3) سورة البقرة آية 208.

الحرب إلى السلم والمصالحة يجب عليهم أن يجيبوه لذلك، ويقبلوا منه الصلح، شريطة أن تكون رغبة عدوهم في السلام رغبة حقاً، لا تشوبها حيلة أو خداع، أو تغرير بهم.

وإذا ما تبين أن طلبهم للسلم خدعة للخلاص من الهزيمة ومن الظروف غير المواتية لهم والاستعداد والتقوي لجولة أخرى من جولات المواجهة والقتال، فعلى المسلمين أن يرفضوا خدعتهم، وحسبهم نصر الله لهم، والاحتماء بقوتهم.

وهذا يؤخذ من قوله تعالىٰ مخاطباً نبيه ﷺ وهو خطاب لأمته: ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله انه هو السميع العليم* وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين**﴾[1].

ثالثاً: تسوية العلاقات، وإبرام العقود:

ومنهج الإسلام في التسوية، وفي إبرام العهود والوفاء بها لا يعادله في مقاصده وأهدافه أي منهج من مناهج الناس مهما ادعوا لأنفسهم من حكمة وبعد نظر، ومن نبل مقصد وإرادة للخير، ومن اتقان إبرام، ومن صدق وفاء، لأنه ليس هناك أحكم ولا أشمل علماً، ولا أرحم ولا أبعد إرادة للخير، ولا أتقن إبراماً، وأصدق وفاء من واضع منهج الإسلام ومسطر مبادئه وأهدافه.

فإرادة الإسلام ومقاصده من المعاهدات هي التالية:

(أ) إقرار السلام ونشره بين الناس، من أجل أن يتجهوا إلى عمارة الأرض التي استخلفوا فيها، بالعمل الصالح، والانتاج المفيد، وبكل ما يحقق أمنهم ورخاء عيشهم من ناحية، ومن ناحية ثانية ـ وهي الأكيدة ـ والتي تتضمن نجاح الناس في الأولىٰ ـ ليتفرغ الدعاة الذين آمنوا حقّ الإيمان بالدين الحقّ،

(1) سورة الأنفال آيتا 61 - 62.

والتزموا هديه وهو دين الله للناس كافة، الذي هو الإسلام، الذي خصه الله باسم الدين الحقّ فقال: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾[1].

ليتفرغ دعاة دين الله، للهداية والإرشاد، وحمل الناس على اتباع طريق الحق، وهدايتهم إلى الدين الذي يسعدهم في الحياة الدنيا، إذا ما اهتدوا بهديه وتمسكوا بمبادئه ومثله، وتخلقوا بأخلاقه، وعملوا بشريعته ـ ويؤهلهم للفوز بالنعيم المقيم في الحياة الأخرى.

(ب) تعليم الناس أن يسلكوا في معاهداتهم مسلك الصدق والوفاء، وأن لا يتخذوها وسيلة غدر وخيانة، سواء من جانب المسلمين، أو من جانب أعدائهم، حيث ينظر الإسلام ويعلم الناس بنظرته إلى أن تكون المعاهدات مقدّسة وملزمة للجانبين، وإلى أن تهدف إلى تحقيق الخير ونشر الأمن وتعميم السلام.

فالمسلمون ملزمون بالوفاء بالعهود، ما دام من عاهدوه موفياً بها، قال تعالىٰ آمراً المسلمين بهذا المبدأ وبالتزامه والوفاء به: ﴿**فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم**﴾[2].

(ج) لا يقرّ الإسلام معاهدة تمليها القوة، ويفرضها الطغيان، وتتخذ وسيلة لغشّ الشعوب، وخداعها، واستعبادها، وللتنكيل بها واستغلال مواردها.

ويحرم على المسلمين كل معاهدة تهدف إلى شيء من هذا الطغيان، قصد إذلال الشعوب، أو أن تكون أمة أقوى من أمة، مالاً ورجالاً ووسائل قوّة لفرض هذا الإذلال عليها وإخضاعها للطغيان. ولمنطق القهر والاستبداد، قال تعالىٰ ـ آمراً المسلمين بالوفاء بالعهود ومبيناً لهم منهجها السليم، وما يقرّ لهم منها وما لا يقرّه: ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها**

(1) سورة آل عمران آية 19.
(2) سورة التوبة آية 7.

وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون* ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾ [1].

(د) لحرص الإسلام على الوفاء بالعهود أمر الله المسلمين في كتابه بالوفاء به ولو أدى في بعض الحالات الى عدم نجدة إخوانهم المسلمين الـذين يقيمون ـ مضطهدين ـ في بلد غير إسلامي معاهد للمسلمين. قال تعالىٰ: **﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾** [2].

فالوفاء بالعهد ـ حسب المستفاد من هذه الآية الكريمة ـ مقدّم في نظر الإسلام وبهدي المشرّع ـ على مبدأ آخر من مبادىء الإسلام الأساسية، وهو اعتبار المسلمين على اختلاف أجناسهم وبلادهم أمة واحدة، وإن كل عدوان يقع على طائفة، أو شعوب من المسلمين هو عدوان على الأمة الإسلامية كلها يجب عليها ان تتعاون على دفعه امتثالاً يفرضه عليها قوله تعالىٰ: **﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾** [3] وقوله: **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾** [4].

ومع هذا المبدأ الأساسي الأكيد، فالله يوجه المسلمين ويرشدهم إلى التخلي عنه لفائدة مبدأ الوفاء بالعهد، وذلك في حالة ما إذا كان بيننا وبين بلد غير إسلامي معاهدة أمن وسلام، وتعيش بينهم طائفة مسلمة مقهورة ترجو منا نجدتها نتخلى عن نجدتها بوسائل حربية، ونتركها وحدها تجاهد بإمكاناتها الذاتية، وبما ينبغي أن نمدها به للتخلص من القهر، ما دام بيننا وبين القوم

(1) سورة النحل آيتا 91 - 92.
(2) سورة الأنفال آية 72.
(3) سورة الأنبياء آية 92.
(4) سورة الحجرات آية 10.

معاهدة لم يقع نقضها، وذلك للحرص الشديد من الإسلام على الوفاء بالعهد، وحتى لا يوصف المسلمون بالخيانة ونقض العهود، وهو وصف يصدّ الناس عن الإسلام.

(هـ) ليكون المسلمون، واعين للحياة ولتلون أهلها وعياً كاملاً وفي حالة يقظة وحزم وعزم في تعاملهم مع غيرهم وخاصة مع من يعاديهم من الناس، وجههم الله تعالىٰ ذكره ـ إلى أن يعتبروا المعاهدين لهم ناقضين للعهد، إذا ما أخلوا بشروط المعاهدة كلاً أو بعضاً، وأن نقضهم هذا هو عدوان، وإعلان للحرب على المسلمين يجب أن يقابل بمثله ردّاً للعدوان وتحرراً من المعاهدة التي نقضها العدو، وهذا يؤخذ من قوله تعالىٰ: **﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون﴾**[1].

بل على المسلمين أن يتحرروا من عبء المعاهدة ويواجهوا أعداءهم بالقتال، إذا ما لمسوا منهم امارات الغدر والخيانة وأن يكونوا واضحين معهم في تحررهم من المعاهدة، وقوفاً عند مبادىء الإسلام وتعاليمه التي تحرم على المسلمين أن يغدروا بغيرهم، واحتراماً لروح المعاهدة التي أوجب الله احترامها بقوله: **﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾**[2].

وذلك بأن يخبروا أعداءهم ـ إذا ما عزموا التحرر من المعاهدة ـ بأنهم أصبحوا في حلّ من المعاهدة التي تنبىء الدلائل على أنهم لا يحترمونها، بل هم يبيتون الخيانة والغدر بالمسلمين، ويتخذون المعاهدة غطاء لما يبيتون.

يخبرونهم بإلغائها ليكونوا على بيّنة، وليدركوا سماحة الإسلام ونبل المسلمين في انهم لا يغدرون بغيرهم، ولا يأخذونهم عن غرة، وهذا يؤخذ من

---

(1) سورة التوبة آية 12.

(2) سورة النحل آية 91.

قوله تعالىٰ: ﴿وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لا يحبّ الخائنين﴾[1].

قال الفخر الرازي في تفسيره وتأويله لهذه الآية: وأما قوله: ﴿وإما تخافنّ من قوم خيانة﴾ يعني من قوم معاهدين خيانة ونكثاً بأمارات ظاهرة ﴿فانبذ اليهم﴾ فاطرح اليهم العهد على طريق مستو ظاهر، وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم اخباراً مكشوفاً بيّناً انك قطعت ما بينك وبينهم ولاتبادرهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد، فيكون ذلك خيانة منك ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ في العهود.

وحاصل الكلام في هذه الآية أنه تعالىٰ أمره بنبذ من ينقض العهد على أقبح الوجوه وأمره أن يتباعد على أقصى الوجوه من كل ما يوهم نكث العهد ونقضه، قال أهل العلم: آثار نقض العهد إذا ظهرت، فإما أن تظهر ظهوراً محتملاً، أو ظهوراً مقطوعاً به، فإن كان الأول وجب الإعلام على ما هو مذكور في هذه الآية. وذلك لأن قريظة عاهدوا النبي ﷺ ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ﷺ، فحصل لرسول الله خوف الغدر منهم به وبأصحابه، فههنا يجب على الإمام أن ينبذ اليهم عهودهم على سواء ويؤذنهم بالحرب، أما إذا ظهر نقض للعهد ظهوراً مقطوعاً به، فههنا لا حاجة الى نبذ العهد كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكّة، فإنهم لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم من ذمّة النبي ﷺ، وصل اليهم جيش رسول الله بمر الظهران، وذلك على أربعة فراسخ من مكة. والله تعالىٰ أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب[2].

ولبيان عطاء المعتدلين في هذا الموضوع أذكر ما حددوه للوفاء

---

(1) سورة الأنفال آية 58.

(2) التفسير الكبير للرازي (مج 15 - 16) ج 15 ص 183.

بالمعاهدات من شروط وهي التالية:

1 ـ يجب أن تكون المعاهدة متفقة تماماً مع المبادىء والأهداف الإسلامية التي حددها وشرعها الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لعباده المؤمنين، فإن خالفت مبدأ من مبادىء الإسلام، أو ناقضت نصّاً من نصوص تشريعه، كأن أحلت حراماً، أو حرمت حلالاً، فهي باطلة وذلك عملاً بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط»[1] وبقوله: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[2].

أو كأن تجعل لغير المسلمين سلطاناً على المسلمين، وهذا ما يمنعه الله بقوله: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾[3].

2 ـ يجب أن تتفق المعاهدة مع ما قرره الله من السيادة للإسلام، وسلطان المسلمين على بلادهم، فإذا تضمنت المعاهدة نصّاً يناقض ذلك فهي باطلة. كمعاهدة تعطي غير المسلمين، وغير المنضوين تحت لـوائهم والخاضعين لحكمهم، حقوقاً في بلاد المسلمين لا تكون الا للمسلمين. كحق وضع جيش أو قوة عسكرية رمزية في أرض المسلمين، أو حق الارتفاق بمرفق إسلامي، أو حق احتكار شيء يضرّ احتكاره بالمسلمين، أو حق المرور بأرض المسلمين وتسخير مرافقهم بأي شكل من الأشكال، لأن ذلك يناقض ما كتب للإسلام وللمؤمنين من السيادة والعزّة. وهذا يستنتج من قوله عزّ وجل: ﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾[4].

وعلى هذا فكل معاهدة لا تتضمن عزة المسلمين، وعلوّ كلمتهم، وصيانة

---

(1) (2) أخرجها السيوطي في الجامع الصغير ج 2 الأول في حرف الكاف ص 79 وعلق عليه بقوله: اخرجه البزار والطبراني في الكبير عن ابن عباس صحيح والثاني في حرف الميم ص 150 وعلق عليه بقوله: اخرجه الإمام احمد في مسنده والإمام مسلم عن عائشة وهو صحيح.

(3) سورة النساء آية 141.

(4) سورة المنافقون آية 8.

دينهم، وحفظ جميع ما يعود عليهم بالصلاح والخير فهي باطلة، وبصفة عامة كل معاهدة تتنافى مع سيادة الإسلام وأهله في أرضهم أو تقييدهم أو تحد من سيادتهم فهي باطلة.

3 ـ يجب أن تعقد المعاهدة عن رضا واطمئنان، واختيار تام من طرفي العقد، ألا يصحب عقدها ضغط، أو يشوبها إكراه مادي أو معنوي، فإذا جدت ظروف ساعدت غير المسلمين على فرض معاهدة على المسلمين تحت ضغط السلام، أو في ظلّ قهر الظروف المحيطة بالمسلمين مثلاً، وارغم المسلمون على قبولها لذلك، فمن حقهم إذا زالت الظروف القاهرة، بل من واجب المسلمين إذا أنسوا من قوتهم، أن يفسخوا هذه المعاهدة، وينبذوها، لأن الرضا والاختيار ضروريان لصحة المعاهدة، وشرطان للوفاء بالتزاماتها فإذا انعدما وقعت باطلة.

وعلى هذا فكل معاهدة تكون نتيجة لقسوة ظروف المسلمين، أو التي تمليها قوة عسكرية على المسلمين. تقع باطلة غير واجبة الاحترام، والوفاء بها مؤقت، وفسخها واجب عندما يشعر المسلمون بقوتهم، ويطمئنون لافتكاك النصر بها وتقدير ذلك يرجع إلى أهل الحلّ والعقد من المسلمين.

4 ـ يجب أن تكون المعاهدة واضحة النصوص في تحديد التزامات كل من المتعاقدين وأن تكون ألفاظها مفهومة للطرفين محددة المعاني باتفاقهما، حتى لا يكون هناك مجال للخديعة بالتأويل والتخريج فيذهب كل منهما في ذلك المذهب الملائم لمصالحه فحسب. وعلى هذا فكل معاهدة يشوبها غموض يفسره كل طرف تفسيراً مغايراً لتفسير الآخر، تقع باطلة فإذا جاء نص أو كلمة غير محددة المعنى والمفهوم. وأمكن فهمها على غير وجه واحد في معاهدة أبطلها، لأن النص في المعاهدة يوجب التزامات ويرتب احكاماً، ولا يمكن فرض الالتزام، وترتيب الأحكام على نص محتمل (مرن) يذهب الناس في بيان معناه وتحديد المراد منه كل مذهب.

5 ـ إذا عاون المعاهد عدواً للمسلمين ضدهم بأي نوع من أنواع المعونة، مادية كانت أو أدبية، فقد نقض المعاهدة، وذلك كما إذا قدم المعاهد لعدو المسلمين سلاحاً أو رجالاً، أو سهل له المرور إلى أرض المسلمين، أو شجعه بالقول، أو حرضه أو حسن له العدوان على المسلمين، أو أمده بمعلومات عن المسلمين، وعن قوتهم أو أطلعه على عورة من عوراتهم، أو أطلعه على أمر لا يعرفه العدو من الأمور التي يمكن للمعاهد معرفتها عن المسلمين بمقتضى معاهدته، وأمن جانبه، كل فعل من هذه الأفعال نقض للمعاهدة، والمسلمون بعد ذلك في حلّ من حرمتها ومن الوفاء بها. وبهذا فكلما حامت الريبة حول المعاهد، أو بدا منه التودد لعدو المسلمين يصبح غير مأمون، وبالتالي يصبح المسلمون معرضين لخطر افشاء اسرارهم لأعدائهم. وحتى لا يتعرض المسلمون لمثل هذا الخطر وجب عليهم فسخ المعاهدة المؤدية اليه، وليس ذلك من نقص العهد بل من تصحيحه ومن العودة به الى الوضوح، والى ما يفرض السلام، وإلى ما يجنب المسلمين من الوقوع في فخاخ الغدر والخيانة.

وبجميع ما تقدم بيانه يتضح أن السلام ميزة المسلمين، وطابع دعوتهم وأساس ربط علاقتهم بغيرهم من الأمم والشعوب.

كما يتضح أن المسلمين ـ من ناحية ـ هم مكلفون ـ حسب طبيعة رسالتهم وحسب ما يوجبه عليهم دينهم الذي هو دين الله إلى الناس كافة ـ بأن يؤمنوا دعوتهم حتى لا تحجب عن الناس فيحرموا من خيرها ومن عطائها الذي يخرج الناس من الظلمات الى النور، ويدافعوا عنها فلا يتركوها لأن ينال منها اعداؤهم وأعداؤها سواء بمحاولة الاجهاض عليها، أو بنصب العراقيل أمامها حتى لا تصل إلى الناس أو بتشويهها كي يبتعدوا عنها.

ومن ناحية ثانية، هم مسؤولون، حتى لا يتخلوا عن السلام الذي هو طابع دعوتهم أو يتركوه للتلاعب، ولمهاترات أصحاب الغدر والخيانة، مسؤولون عن

أن يحكموا علاقاتهم مع غيرهم من الأمم والشعوب بالمعاهدات الموثقة، الواضحة التي تناصر الحقّ وتحارب الباطل، وتبعد بطاقتها الذاتية، وبروحها الإسلامية، وبمدى ما لها من وثوق ووضوح، عن نفسها كمعاهدة، وعن الملتزم بها كمعاهدة. كل لون من ألوان التآمر وكل حساب من حسابات ربح الوقت وتربص الدوائر.

وهذا ما يجعل علاقة المسلمين بغيرهم من الأمم والشعوب علاقة سلم وسلام في الدرجة الأولىٰ. وعلاقة مواجهة وقتال في الدرجة الثانية اذا ما اعتدى عليهم أهل الكفر، ورفضوا دعوتهم وصدوهم عن تبليغ دين الله إلى الناس.

فالمسلمون أحباء السلام ودعاته، وهم لا يحاربون لذات الحرب وإنما يحاربون لاقرار السلام في المجتمع البشري، وإقرار حرية الاعتقاد وحرية الدين والتدين ولحماية الدعوة والمحافظة على الدعاة، ورد كل عدوان يقع على وطن المسلمين أو اعراضهم أو أموالهم.

ثم ولحماية كل الناس، من شرّ الناس، ومن ظلمهم واعتدائهم.

هكذا الإسلام بهديه وتشريعه، وبقيمه ومثله، وبمباديه وأهدافه لون جديد من ألوان الإصلاح، يهدف الى سعادة الإنسانية كلها في ظلال الحرية، والحق، والعدل، والبر والإحسان، والوفاء بالعهود، وهكذا المسلمون في علاقتهم مع غيرهم دعاة سلم وسلام وبناء حضارة تنير الدروب وتزيح الظلمات.

الملاحظة الثالثة:

لسائل أن يسأل عن منهج الإسلام في الأحكام الاقتصادية والمالية؟ للاجابة أقول:

أول الملامح في المنهج الإسلامي في مجال المال والاقتصاد هو أن المال مال الله عزّ وجلّ، إذ هو المالك الحق لأكوان السموات والأرض، وما فيهنّ ومن فيهنّ.

قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهنّ﴾[1] وقال عزّ وجل: ﴿وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما﴾[2].

وبهذه النظرة فالمال في حقيقة الأمر هو ملك لله ـ تبارك وتعالىٰ، وتملك الإنسان له يعتبر تملكاً مجازياً، أي هو نائب، أو خليفة عن الله فيه، فهو مؤتمن على مال الله ومستخلف فيه، قال تعالىٰ: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾[3].

وقال: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾[4] وقال: ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾[5].

فالمال في يد مالكه وديعة استودعها الله عنده يجب أن يتصرف فيها حسب أوامر مالكها الحقيقي الذي هو الله، وأن يضع مال الله مواضعه، وأن ينفقه في الوجوه التي شرعها الله، فيأخذ منه ضرورياته، وحاجياته، وكمالياته المباحة، ويوزع الفضل منه بأسلوب من أساليب تعميم النفع، ونشر الخير، حسب ما تتطلبه ظروف الحياة المستجيبة لشريعة الله، والسائرة حسب هديه، وحسب ما يفرضه الوضع الاقتصادي السائر في مسار الحق والهادف الى تنمية الثروة العامة وإلى تحقيق العدالة في المجتمع: قال تعالىٰ: ﴿قل إن ربّي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون* وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضّعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون* والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في

---

(1) سورة المائدة آية 120.
(2) سورة الزخرف آية 85.
(3) سورة هود آية 61.
(4) سورة الأنعام آية 165.
(5) سورة الحديد آية 7.

العذاب محضرون * قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له. وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين*﴾[1] في هذه الآيات بيان أن الرزق والمال لله عزّ وجلّ وأن توسيعه وتضييقه على عباده بيده سبحانه وتعالىٰ، يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء حسب ما سبق في علمه وتقديره، وعلى مقتضى حكمته وتدبيره.

وفي هذا التوسيع والتضييق ابتلاء من الله واختبار لعباده في مجال الشكر على النعماء والصبر على البأساء. وهذا ما تشير إليه الآية التي تقدم ذكرها وهي قوله تعالىٰ: **﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾** فالمال مال الله، والإنسان مستخلف فيه، ومسؤول عن تصرفه به أمام الله. وأمام الجماعة المسلمة.

جاء في كتاب «الأصول العامة لوحدة الدين الحق»، ما يلي:

ويترتب على هذا التصور للمال، واستخلاف الإنسان فيه، أو وكالته عليه، انه يجب التقيّد بأوامر الله في التملك حسبما يريد صاحب الملك الحقيقي، والناس على السواء لهم حقّ في تملك خيرات الأرض، والمال ليس غاية مقصودة لذاتها، وإنما هو وسيلة للانتفاع بالمنافع، وتأمين الحاجيات وإذا كانت الخلافة عن الله في المال للجماعة، فإن الملكية الخاصة تعتبر أسلوباً من أساليب قيام الجماعة بمهمتها في الخلافة، وإن لها صفة اجتماعية، لا صفة حقّ مطلق، وسيطرة استبداد.

وللجماعة حق مراقبة ذوي الملكيات الخاصة، لاستخدامها في سبيل الصالح العام فيعتبر صاحب المال حينئذ مسؤولاً أمام الله عن ماله، ومسؤولاً أمام الجماعة أيضاً[2].

---

(1) سورة سبأ آيات 36 - 39.

(2) «الأصول العامة لوحدة الدين الحق» لمؤلفه: د. وهبة الزحيلي ص 164 ط أولى نشر المكتبة العباسية بدمشق سنة 1972.

بهذه اللمحة يتضح بصورة مجملة منهج الإسلام، وتصوره العام للمال، وفلسفته في تحديد الغاية منه، التي هي تيسير الحياة للناس، وتحقيق الانتفاع بمعطياتها، إذ بالمال تقوم وتثبت منافعهم ومرافقهم، أفراداً وجماعات، وأمماً وشعوباً.

وعلى المال وبه يبنى اقتصادهم على أساس ثابت متين، وتستقيم مسالك التعامل والتبادل بين جميعهم.

ومن الأكيد بعد هذه اللمحة، إبراز وتبيين بشيء من التفصيل أبعاد تصور الإسلام للمال، وفلسفته في تنظيم حياة الأفراد والجماعات بواسطته، وفي بناء اقتصادهم عليه.

وحتى لا أخرج عما أردته من الملاحظة الثالثة، أوجز ما أردت بيانه مع شيء من التفصيل كما يلي:

فالمال هو النوع الرابع من الضروريات الخمس وهي الدين والنفس والنسل والمال والعقل التي جاء الإسلام يدعو المسلم ويأمره بأن يحافظ عليها ويحرصها من كل ما ينال منها ويسيء إليها، ومن جميع ما يعرضها إلى الهلاك.

وحتى لا يغفل المسلمون، بل وحتى لا يغفل عباد الله جميعاً عن مكانة المال وعن قيمته وجدواه، أمرهم الله، وهو المالك الحقيقي للمال، أمرهم باكتسابه من طرقه الحلال وبتنميته، وبتنويع طرق كسبه، وأبان لهم بواسطة هديه وتشريعه، ما المراد به، وما قيمته في الحياة، وما طرق اكتسابه، وما وسائل تنميته، وما سبل حمايته، وما وظائفه الاقتصادية والاجتماعية والحياتية بصفة عامة.

وقبل التحدث عن هذه الجوانب، فلا بدّ من كلمة حول المراد من المال في نظر الإسلام. فالرأي الراجح في تحديد المال، والذي ذهب إليه جمهور الفقهاء هو كما جاء في «الموافقات» للشاطبي: من أنه كل «ما يقع عليه الملك،

ويستبد به المالك عن غيره إذا أخذه من وجهه»[1] أي من طريق مباح.

وهذا التحديد ـ رغم اختصاره ـ لم يتجاوز أبعاده مفهوم علماء الاقتصاد اليوم للمال بل هو دونه بكثير من حيث البعد الروحي، فالمفهوم الاقتصادي المعاصر من غير أن يراعى الجانب الروحي الذي هو هدف الهدي الإسلامي: (يعدّ كل ما ينتفع به على أي وجه من وجوه النفع، مالاً، كما أنه يعدّ كل ما يقوّم بثمن مالاً، أيّاً كان نوعه، وأيّاً كانت قيمته، فمن ملك أرضاً فهي مال، ومن ملك بيتاً فهو مال، ومن ملك شجرة فهي مال ومن ملك ثمر شجرة فهو مال. فكل شيء يمكن أن يعرض في السوق، وتقدر له قيمة هو مال، وكل شيء ينتفع به على أي وجه هو مال)[2].

وبتحديد الشاطبي للمال الذي هو رأي جمهور الفقهاء، يتضح أن المال في نظر التشريع الإسلامي يشمل كل الأعيان المادية، والديون، ومنافع الأشياء المباحة، والحقوق المحضة والأوصاف. فالأعيان مثل الدور والأراضي، والأموال المنقولة والديون كالمال المقترض وكل ما يثبت في الذمة من الالتزامات المالية.

والمنافع، كالسكنى، والاستخدام، والركوب، والزراعة، واللباس، ونحو ذلك من منافع الإنسان والحيوان، والأشياء. والحقوق المحضة، كحق المدعي في تحليف خصمه اليمين، وحق الشفعة، وحق الاشتراك في المرافق العامة الضرورية، والأوصاف، كارتفاع الأسعار، ونواحي الصحة والجمال، وتعلم الحرف.

فجميع هذه المذكورات مال لصاحبها، إذا ما كانت له، واستبدّ بها دون غيره، إذا ما تملك بها من طريق مباح.

(1) كتاب «الموافقات» للإمام الشاطبي ج 2 ص 10 الناشر مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر القاهرة بدون تاريخ.

(2) كتاب السياسة المالية في الإسلام، وصلتها بالمعاملات المعاصرة لمؤلفه عبد الكريم الخطيب ص 22 ط 2 سنة 1395هـ/ 1975 م نشر دار المعرفة بيروت ـ لبنان.

ومن هذا التحديد للمال تبرز مكانته وقيمته في حياة الناس.

فالمال لا يمكن تحقيق رخاء العيش في الحياة، والتوصل إلى الأهداف المنشودة من رسالة الإنسان في هذا الكون المادي. إلّا به. لأنه قوام الجسد والصحة وعماد البناء والتشييد، ووسيلة لجلب المصالح الدنيوية والأخروية، حسب الهدي الإسلامي. ومن هنا كان للمال في التشريع الإسلامي قيمة كبيرة، ومكانة مرموقة، حيث هو ضرورة من ضرورات حياة الإنسان، لا يمكن للأفراد ولا للجماعات والأمم والشعوب الاستغناء عنه.

فهو قوام الحياة، وبدونه تسوء حياة الناس، وتضطرب سبل معاشهم، ومن هنا اعتبر الإسلام المحافظة عليه أمراً أكيداً، وواجباً ملقى على كاهل الجماعة التي عليها أن تمنع الأفراد، من العبث به، ومن تبذيره، ومن إنفاقه فيما لا ينفع، أو فيما يعود بالضرر على ثروة البلاد واقتصادها.

فعلى الجماعة أن تمنع العبث بالمال حتى وإن كانت لا تملكه مباشرة بل يملكه أفرادها وذلك لأن المال في نظر الإسلام قوام حياة الجميع، وهذا ما يستمد من قوله تعالىٰ: ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً**﴾[1].

وحتى لا يكون الإنسان مستهيناً بقيمة المال في بناء حياته، وفي تنظيم وتيسير مسالك عيشه **جعل الله** حبّه مكيناً في نفسه وميله إليه شديداً، وإلى هذا يشير قوله تعالىٰ: ﴿**وإنه لحبّ الخير لشديد**﴾[2] والمراد **بالخير** في هذه الآية، المال، وفي تسمية المال خيراً دليل على عظم مكانته وجدواه في حياة الإنسان.

كما يشير إلى مدى تمكنه من نفوس الناس قوله تعالى: ﴿**وتحبون المال حباً جمّاً**﴾[3]. وحتى لا يفتر حبه في قلوب الناس، ويضعف تمكّنه من نفوسهم

(1) سورة النساء آية 5.
(2) سورة العاديات آية 8.
(3) سورة الفجر آية 20.

جعله زينة فاتنة من زينة الحياة، يعين مالكه على الارتياح والاطمئنان ـ إن أحسن اكتسابه واستعماله ـ ويزين له دورب الحياة، وهو في ناظريه وفي مشاعره وأحاسيسه زينة كزينة الأبناء الذين هم لوالديهم قرّة أعين.

ويؤخذ هذا من قوله تعالىٰ: ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**﴾[1].

وبهذه النظرة الإيجابية الجادة، اهتمّ الإسلام بالمال من ناحيتين: ناحية إيجاده وتنميته وناحية المحافظة عليه.

ـ فمن ناحية إيجاده وتنميته طلب الله من عباده السّعي في طلب الرزق فقال ـ سبحانه وتعالىٰ ـ : ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه**﴾[2].

في هذه الآية وفي عديد الآيات التي تتناول موضوعها، يبين الله لعباده بأنه جعل لهم الأرض سهلة مذلّلة لينتفعوا بكل ما فيها من خيرات ظاهرة وباطنة، ومن طاقات قريبة المأخذ ومن طاقات بعيدة تتطلب كثير الجهد وعظيم السعي، فما عليهم إلا أن يسلكوا مسالكها ويحللوا عناصرها، ويصهروا معادنها، ويستنبتوا نباتها، ويفجروا طاقاتها ويغوصوا بحارها، ويحلقوا في مناكبها ونواحيها، وجوانبها وأطرافها، وفي سهولها وآكامها وجبالها.

ومن أجل إيجاد المال طلب من عباده المؤمنين أن لا يتهاونوا في طلبه بل عليهم أن يسعوا إليه في كل الظروف وفي مختلف الأحوال بل حتى اثر قيامهم بأعظم العبادات التي هي صلاة الجمعة في يوم عيدهم الأسبوعي فقال: ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾[3].

أي إذا أديتم صلاة الجمعة وفرغتم فانتشروا في الأرض للسعي والعمل،

---

(1) سورة الكهف آية 46.
(2) سورة الملك آية 15.
(3) سورة الجمعة آية 10.

ولاكتساب الرزق، ولتوفير المال الذي هو من فضل الله عليكم.

وعندما طلب الله من عباده المؤمنين السعي في طلب الرزق، وفي إيجاد المال وتنميته أبان لهم الطرق المؤدية إلى ذلك، والمعينة عليه، وهي الزراعة، والصناعة، والتجارة.

وهي طرق بناء الاقتصاد في مستوياته المختلفة: مستوى الأفراد والأسر ومستوى الجماعات والفئات، ومستوى الشعوب والأمم.

ونظرة الإسلام إلى هذه الطرق، نظرة محيطة شاملة، متكاملة في جوانبها المادية والروحية محكمة في منطلقاتها وأبعادها.

وذلك لأن نظرته إليها ذات وجهين: نظرة من حيث مصطلحها المادي، كزراعة، وصناعة وتجارة، ونظرة من حيث روحها وما ينبغي أن تحققه وتهدف إليه.

ومن هذه النظرة ذات الوجهين لا يكتفي الإسلام بوضع هذه الطرق في إطارها المادي المجرد بل مع إطارها هذا يولي اهتماماً كبيراً إلى ما يبعث فيها الحياة ويخرجها من ماديتها فتتحرك وتنمو مع الأيام، وتسير بسير حياة الناس، وتنمو بنمائها، وتتطور بتطورها، وتستجيب للنداء، وتلبي الرغبات مهما تعددت، وتعاظمت، واشتد إلحاحها.

والذي يبعث الحياة في الطرق الثلاث حتى تصبح بدورها تلبي طلبات الناس وتستجيب لرغباتهم، كما يستجيب ويلبي الحيّ نداء الحيّ، وهو ما يتقدمها ويحيط بها من علوم وتقنيات، ومن تجارب واختبارات، ومن اختراعات وابتكارات، ومن مهارات واختصاصات، ومن مخططات وتنظيمات، ومن خدمات ما يسمى اليوم بأحكام وتوازن وسلامة التوريد والتصدير، ومن كل ما يجعلها وتصبح به ذات جدوى ونفع للجميع، ولا تتعرض للهزات والتلاعب.

إذا ما نظر المسلمون إلى الطرق الثلاث هذه النظرة وليدة الهدي

الإسلامي تكون لتنمية ثرواتهم ولبناء اقتصادهم طرقاً متكاملة لا يخرج عنها أمر من أمورهم، ولا شأن من شؤونهم الخاص منها والعام.

ومن وحي هذه النظرة كانت عناية الإسلام بهذه الطرق الثلاث عناية جادة هادفة.

ـ في مجال الزراعة والغراسة نبّه الإسلام إلى أنها طريق عظيم من طرق نفع الخلق، وكسب المال الحلال، وإلى أن من نعم الله على خلقه أن هيأ لهم وسائلها: من أرض تهيأت بتربتها للحرث والزرع، وللانبات والغرس قال تعالىٰ: ﴿**والأرض وضعها للأنام* فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام* والحب ذو العصف والريحان* فبأي آلاء ربكما تكذبان***﴾[1].

ومن ماء يسرّه الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لخلقه ينزله مطراً ويجريه عيوناً وأنهاراً فيحيي به الأرض بعد موتها، قال تعالىٰ: ﴿**وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**﴾[2].

ومن رياح يرسلها الله مبشرات فتسوق السحاب وتلقح النبات.

وبهذه الوسائل الثلاث مهّد الله لعباده طريق الزراعة والغراسة وبهدي آياته نبّههم إلى أنها طريق عظيم من طرق نفعهم وبناء حياتهم ورخاء عيشهم، قال تعالىٰ: ﴿**والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين * وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم* وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ***﴾[3].

---

(1) سورة الرحمن آيات 10 - 13.
(2) سورة الأنعام آية 99.
(3) سورة الحجر آيات 19-22.

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان أو طير، أو بهيمة، إلا كانت له به صدقة»[1].

في هذا الحديث النبوي الشريف نبّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ المسلم إلى نعمة الغراسة والزراعة، وإلى أن ثواب الغارس والزارع سيبقى مستمراً له ـ فضلاً من الله وتكرماً ـ ما دام الخلق ينتفعون بما غرس وزرع.

وهذا المعنى الذي تضمنه حديث رسول الله ﷺ يدل على مدى ما في الغراسة والزراعة من منافع عليها تستقيم حياة الناس، وبها يتحقق رخاء عيشهم.

ورخاء العيش هو أعظم هدف من أهداف جدية العمل، ورشد السعي، وأقوى دليل، وأصدق برهان على قوة الاقتصاد وسلامته.

ومع ما في الغراسة والزراعة من فضل كبير، وخير كثير، ونفع عميم يشمل الإنسان والحيوان والطير وكل ما يتغذى ويقتات، فليست الغراسة مطلوبة في كل ما يغرس، وليست الزراعة مطلوبة في كل ما يزرع، أو كل منهما مباح بلا استثناء، بل ليكون كل منهما في صالح الإنسان، ولخير بناء الاقتصاد حرّم الإسلام غراسة وزراعة ما يضرّ، فلا يحل للمسلم أن يغرس ويزرع ما يحرم أكله، أو ما لا يعرف له استعمال إلا في الضرر.

فالمسلم الملتزم بهدي الإسلام طيب لا يغرس ولا يزرع إلا الطيب ولا يروج إلا الحلال وما ينفع الناس.

ـ في مجال الصناعة، بما أنها طريق هام من طرق نفع الناس، وكسب المال وتنميته، وتدعيم الاقتصاد والنهوض به أبان الله في كتابه العزيز، قيمة

---

(1) اخرجه الإمام البغوي في كتابه (شرح السنة) ج 6 ص 149 وعلق عليه بقوله: هذا حديث متفق على صحته أخرجه محمد عن قتيبة واخرجه مسلم عن قتيبة ويحيى بن يحيى كل عن أبي عوانة.

الصناعة وفضلها على الناس، وذكرها في عديد المواطن على أنها نعمة أنعم بها على أنبيائه وهم أفضل خلقه عليه.

وفي ذلك تنويه عظيم بشأن الصناعة، وبيان لقيمتها في تيسير معاش الناس وتعايشهم مع بعضهم وفي تقدم مسيرتهم ورقي حضارتهم.

قال تعالىٰ ـ مبيناً فضله وإنعامه على نبيه، داود ـ عليه السلام ـ حيث علّمه صناعة دروع الحرب ليقي الناس من بأس بعضهم في حروبهم وتصادمهم، وعلّمه ما يلين به الحديد ليسهل عليه الصنع ويتمكن من اتقان الصناعة وإحكامها حسب المقاييس المقدرة لها علمياً فقال: ﴿**وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون***﴾[1] وقال: ﴿**وألنّا له الحديد* أن اعمل سابغات وقدّر في السرد**﴾[2].

وقال ـ مبيناً فضله وإنعامه على نبيه سليمان ـ عليه السلام ـ وكيف أذاب له النحاس ـ كما ألان لأبيه داود ـ عليه السلام ـ الحديد، وكيف سخّر له الجنّ عملة بين يديه يعملون له شتى المصنوعات من قصور شامخات، وصور من نحاس، وقصاع كبيرة كالاحواض في حجمها وقدور ثابتات على أماكنها لعظمها، بين ذلك فقال:

﴿**وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه من يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير* يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً**﴾[3].

وقال ـ آمراً نبيه نوحاً ـ عليه السلام ـ بأن يصنع الفلك الذي سينجيه ومن آمن معه، من غرق الطوفان الذي قضى الله ـ سبحانه ـ أن يعاقب به عباده

---

(1) سورة الأنبياء آية 80.
(2) سورة سبأ آيتا 10-11.
(3) سورة سبأ آية: 13.

الكافرين، ومبيناً فضله عليه، بأنه ملهمه ومعلمه كيف يصنع الفلك فلا يتعرض لخطأ في صنعه، ولا في وصفه وهذا يشير إلى إحكام الصنعة وإتقانها.

أمر الله نبيّه بصنع الفلك، وامتنّ عليه بتعليمه إياه كيفية الصنع بإحكام وإتقان لينجو هو ومن آمن معه، بقضاء الله وبواسطة الفلك الذي أتقن صنعه بإلهام ووحي وتعليم من الله، من الغرق المقدور على الكافرين الذين كذّبوا نوحاً ـ عليه السلام ـ ولم يؤمنوا بشريعة الله، فقال ـ سبحانه وتعالىٰ ـ : ﴿**وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون* واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون* ويصنع الفلك وكلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون* فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم* حتى إذا جاء أمرنا وفار التنّور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل* وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربّي لغفور رحيم**﴾[1].

في أمره هذا وامتنانه، بيان منه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لمكانة الصناعة ولمدى نفعها للناس.

وقال ـ جلّ جلاله ـ متحدثاً عن عبد من عباده الصالحين، وكيف تفضل عليه بالملك والسلطان، وعلّمه أساليب البناء وإقامة السدود ـ : ﴿**قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدّاً* قال ما مكّنّي فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً* آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً* فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً***﴾[2] بهذا التنويه القرآني العظيم يدرك المسلم قيمة الصناعة

(1) سورة هود آيات 36 - 41.

(2) سورة الكهف آيات 94 - 97.

في حياة الناس، وفي التقدم الحضاري، وفي اكتساب المال وتنميته، وفي دعم الثروة الاقتصادية.

ـ في مجال التجارة: من طرق كسب المال وتنميته، ودعم الثروة الاقتصادية ونفع الناس طريق التجارة، وقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحثّ المسلمين وتدعوهم بإلحاح إلى الاشتغال بالتجارة والاهتمام بها، والعناية بأمرها، وتبيّن لهم منافعها وتغريهم بالترحال وبالسفر من أجلها، وقد سمّى الله السفر من أجل التجارة (ابتغاء من فضل الله) قال تعالىٰ: ﴿**وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، وآخرون يقاتلون في سبيل الله***﴾[1] في هذه الآية الكريمة قرن المولى ـ عزّ وجلّ ـ الضاربين في الأرض للتجارة، وبالمجاهدين في سبيل الله. وفي هذا تنويه بشأن التجارة.

ومن التنويه بها أيضاً، ومن بيان مدى نفع التجارة للناس ما نجده في القرآن الكريم من امتنان الله تعالىٰ على الناس بتهيئة سبل التجارة لهم.

ومن أعظم هذه السبل المواصلات البحرية، وقد تعاظم شأنها في مجال التجارة بين الأمم والشعوب اليوم أكثر من ذي قبل، فيقول تعالىٰ ممتنّاً على عباده بتسخير البحر وإجراء السفن التجارية فيه: ﴿**وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾[1].

وما نجد فيه أيضاً من امتنان خصّ به سبحانه وتعالىٰ أهل مكة بما هيّأ لهم من أسباب جعلت بلدهم مركزاً تجارياً ممتازاً في جزيرة العرب، بل في العالم الإسلامي اليوم قال تعالىٰ: ﴿**أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنّا**﴾[2].

وكذلك من هذا الامتنان الذي يبيّن مدى قيمة التجارة، ومدى نفعها للعباد امتنانه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ على قريش إذ يسّر لهم رحلتين تجاريتين في كل عام

(1) سورة فاطر آية 12.
(2) سورة القصص آية 57.

رحلة إلى اليمن في الشتاء، ورحلة إلى الشام في الصيف، يسيرون إليهما آمنين بفضل سدانتهم للكعبة الشريفة بيت الله الحرام، وليشكروا الله على ما منّ عليهم، عليهم أن يقابلوا هذه النعمة، بعبادة الله وحده ربّ البيت وصاحب الفضل والنعمة عليهم: ﴿**لإيلاف قريش* إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت* الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف***﴾[1].

وقد هيأ الإسلام للمسلمين فرصة التبادل التجاري فيما بين أقطارهم وشعوبهم على نطاق عالمي واسع وقرنها بفرصة عبادة كبرى تتجدد في حياتهم كل عام مرة، وهي فرصة أداء فريضة الحج التي يجتمع لها المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها، ويأتونها من كل فجّ عميق.

فلعناية الإسلام بما ينفع المسلمين في جانبي حياتهم المادي منها والروحي، لم يجعلهم في هذه المناسبة الكبرى يوجّهون هممهم، ويقصرون سعيهم على العبادة فقط، بل وجّههم وأرشدهم إلى أن من حكمة الحج، ومن أهداف اجتماعهم كل سنة في موسمهم الإسلامي العالمي هو أن يذكروا الله ويعبدوه في مكة المكرمة ولدى بيته الحرام، وأن يشهدوا مع ذلك منافع لهم. ومن هذه المنافع التي تفرض نفسها عليهم (التجارة).

وحتى عندما تحرّج المسلمون في حياة الرسول ﷺ من تعاطيها في موسم الحج خشية منهم من أن يخلطوا مع عبادة الله شيئاً لا يرضاه، وقد يفسد عليهم عبادتهم التي تحملوا من أجلها الأتعاب الكثيرة، ومشاق السفر، وعناءه الشديد.

فعندما تحرّج المسلمون من ذلك نزل الوحي على محمد ﷺ يرفع عنهم الحرج فقال ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم**﴾ فابتغاء الفضل من الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بواسطة التجارة لا حرج فيه في موسم الحج، بل من حكمته وأهدافه.

---

(1) سورة قريش بكامل آياتها.

وحتى لا يتعثر المسلم أو يسيء في سيره، وفي اختيار المسالك لهذه الطرق أبان له الإسلام بواسطة أحكامه وتوجيهه وبواسطة مبادئه ومثله، القاعدة في الكسب وهي: (أن الدين الإسلامي لا يبيح لأبنائه أن يكتسبوا المال كيفما شاؤوا، وبأي طريق أرادوا، بل هو يفرّق لهم بين الطرق المشروعة، وغير المشروعة، لاكتساب المعاش نظراً إلى المصلحة الجماعية، وهذا التفريق يقوم على المبدأ الكلّي القائل بأن جميع الطرق لاكتساب المال التي لا تحصل المنفعة فيها لفرد إلا بخسارة غيره، غير مشروعة، وأن الطرق التي يتبادل فيها الأفراد المنفعة فيما بينهم بالتراضي والعدل مشروعة).

وهذه القاعدة تؤخذ من مثل قوله تعالىٰ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم، ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً***﴾[1] فقد شرطت هذه الآية مشروعية التجارة بأمرين:

الأول: أن تكون هذه التجارة عن تراض بين المتعاملين.

والثاني: ألا تكون منفعة أحدهما قائمة على خسارة الآخر.

ففي هذه الآية نهى تبارك وتعالىٰ عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل، أي بطريق من طرق الكسب غير المشروعة كالربا والقمار، والاحتكار، وما جرى مجرى ذلك من سائر أكل أموال الناس بالباطل.

وتعقيباً على هذا النهي بيّن الله لعباده المؤمنين أن اكتسابهم الأموال وتبادلهم لها مع بعضهم بعضاً بواسطة التجارة عن تراض، ذلك من الكسب الحلال الذي ينمي المال وينفع الناس ﴿**إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم**﴾. وذلك لأن التجارة لا تؤدي إلى اكتساب الأموال بالباطل، بل هي من الأسباب المشروعة التي تؤدي إلى تبادل المنافع بين الناس، وإلى تنمية الأموال وإحكام الاقتصاد.

---

(1) سورة النساء آية 29.

وقد ذهب بعض المفسرين المتأولين إلى أن يجعل المعنى المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾ يرتبط مع نفس المعنى المستفاد من قوله: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾.

قال الحافظ ابن كثير (قوله): ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾ أي بارتكاب محارم الله، وتعاطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل[1].

فهذا الاستنتاج ما هو إلا معنى من المعاني التي تتحملها الآية، لأن كل من يضر غيره لمنفعته الشخصية، فكأنه ينزف دمه، ثم في النهاية يفتح طريق الهلاك على نفسه.

فالسرقة، والارتشاء، والقمار، والغرر والتدنيس، والخديعة، والربا، وغير ذلك من طرق الكسب غير المشروعة، تؤدي بالناس إلى مزالق في الحياة، هي من القتل للنفس، أو كالقتل لها.

ولرحمة الله بعباده المؤمنين ولإبعادهم عن الوقوع في مهاوي الهلاك نهاهم عن الانحدار إلى مثل هذه المزالق وحذرهم من عواقبها فقال: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً**﴾ أي فيما أمركم به، ونهاكم عنه.

ـ ومن ناحية المحافظة على المال وعلى ثروة الأمة بصفة عامة، يتضح ذلك كما يلي:

بما أن المال في نظر الإسلام مال الله ـ كما تقدم بيانه ـ وأن المالكين له من الناس، أفراداً وجماعات وشعوباً ـ إنما هم مستخلفون فيه ـ في كسبه وتنميته، وحفظه وإنفاقه ـ كانت المحافظة على المال، وعلى ثروة الأمة المسلمة بصفة عامة، واجباً إسلامياً، فعلى المسلم أن يحافظ على ماله، وذلك باستغلاله وحسن إنفاقه، وبتنميته وحمايته، وعلى الجماعة المسلمة أن تحافظ عليه

(1) تفسير ابن كثير ج 2 235.

بصورة أعم وأشمل، أن تحافظ على الثروة الإسلامية، وعلى مختلف مكاسبها من الضياع، وأن تنفق مردودها في سبيل الحق وفي مسالك الخير، وفي طرق النفع الخاص منها والعام.

فعلى الأفراد والجماعات أن يدركوا قيمة المال في مسيرتهم الحياتية، وأن يدركوا أن سلامة الأمة في حماية ثروتها وفي المحافظة على أموالها التي تتداولها أيدي أفرادها وجماعاتها، أو تحتفظ بها خزائنهم لتسيير أمورهم وقضاياهم التي بها يكونون أمة تسابق الأمم وتقاسمها الحياة.

جاء في الحديث النبوي الشريف: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويسخط لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال»[1].

ومن أجل حماية الثروة، وحفظ المال، شرع الإسلام للمسلمين الأمور التالية:

ـ الحجر على السفهاء الذين لا يضعون المال موضعه، ولا يحسنون التصرف فيه والقيام عليه بتثميره وتنميته، وجعل أموالهم أموال الأمة، وضياعها ضياعاً لثروة الأمة فقال تعالىٰ: ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً**﴾[2].

ـ اختبار اليتامى بعد البلوغ قبل تسليمهم أموالهم، فإذا كانوا راشدين أي قادرين على حفظها ـ سلمت إليهم، وإلّا منعوا من تسليمها لهم، وذلك حفاظاً على المال من الضياعَ، قال تعالىٰ: ﴿**وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن**

---

(1) اخرجه الإمام البغوي في كتابه (شرح السنة) ج 1 ص 202 وعلق عليه بقوله: هذا حديث صحيح اخرجه مسلم عن شيبان بن فرّوخ ـ عن أبي عوانة ـ عن سهيل.

(2) سورة النساء آية 5.

آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾[1].

ـ كتابة الدين والرهن، وذلك حفاظاً على المال حتى لا يخرج من أيدي أصحابه من غير فائدة مادية أو روحية تعود عليهم، وبدون عوض أو وثيقة تحفظ لهم حقّهم فيه قال تعالىٰ: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب عدل﴾[2].

في هذا الجانب من الآية الكريمة توجيه وتعليم للمسلم، وبيان تفصيلي في بقية جوانبها لكتابة الدين والاشهاد على ذلك حفظاً للمال الذي هو قوام الحياة من الضياع ومن تسرب عوامل التلاشي إليه، حتى وإن كانت هذه العوامل في بدايتها تمثل الاحسان والتعاون على الخير.

ثم قال تعالىٰ ـ مبيناً لعباده المؤمنين وسيلة أخرى للمحافظة على المال، إذا ما تعذرت أو صعبت كتابة الدين ـ : ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة﴾[3].

كما شرع الإسلام ـ زيادة عما تقدم بيانه ـ للمحافظة على المال ـ تحريم الترف والسرف وليتجنبها المسلم دعاه إلى القصد والاعتدال. إذ في الترف والسرف إهدار لقيمة المال، وتضييع للثروة، وفي ذلك الخسران والهلاك والدمار. قال تعالىٰ: ﴿ولا تبذّر تبذيراً* إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾[4] وقال: ﴿ولا تسرفوا إنّه لا يحب المسرفين﴾[5] وقال ـ مبيناً عاقبة الترف والفسق ـ: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميراً﴾[6].

وفي القصد والاعتدال، الخير كل الخير قال تعالىٰ: ﴿ولا تجعل يدك

---

(1) سورة النساء آية 6.
(2) سورة البقرة آية 282.
(3) سورة البقرة آية 283.
(4) سورة الاسراء آيتا 26 - 27.
(5) سورة الأعراف آية 31.
(6) سورة الاسراء آية 16.

مغلولة إلى عنقك، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾[1].

ـ تحريم كل الطرق المؤدية إلى أكل أموال الناس بالباطل، وإلى إضاعة المجهودات الجادة في اكتسابها على أصحابها من أجل تحويل ثمراتها إلى الجشعين الماكرين المخادعين، من الغش والتحايل، والربا والاحتكار.

ومن كل تصرف أو تعامل يؤدي إلى إهدار قيمة المال وإلى الإخلال بالتوازن الاقتصادي، وإلى إضاعة ثروات الناس الخاصة منها والعامة.

قال تعالىٰ ـ محرماً على عباده المؤمنين أكل أموالهم فيما بينهم بالباطل ـ: **﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾**[2].

وقال ـ محرماً عليهم التعامل بالربا ـ : **﴿وأحلّ الله البيع وحرّم الربا﴾**[3].

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين* فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون* وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون* واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون*﴾[4].

وقال عليه الصلاة والسلام ـ ناهياً عن الغش والاحتكار: «من غشّ فليس منّي»[5] وقال: « ليس منّا من غشّنا»[6] وقال: «لا يحتكر إلا خاطىء»[7] ومع هذا

---

(1) سورة الاسراء آية 29.

(2) سورة البقرة آية 188.

(3) سورة البقرة آية 275.

(4) سورة البقرة آيات 278 - 281.

(5) و(6) اخرجهما الإمام البغوي في كتابه «شرح السنة» ج 8 ص 166 و167 وعلق على الأول بقوله: هذا حديث صحيح اخرجه مسلم عن علي بن حجر، وعلى الثاني بقوله: هذا حديث صحيح.

(7) اخرجه السيوطي في الجامع الصغير في حرف (لا) وعلق عليه بما يشير الى انه اخرجه احمد في مسنده ومسلم وابو داود والنسائي، عن معمر بن عبدالله ثم ختم تعليقه بقوله: حديث صحيح.

المنهج الجاد الحكيم للمحافظة على المال بعد إيجاده وتنميته وحسن إنفاقه أبان الهدي الإسلامي للمسلمين، أن الطرق المؤدية إلى ذلك والمحققة له التي هي الزراعة والصناعة والتجارة، لا تكون قائمة بوظيفتها أحسن قيام، إلا متى كان الدافع لها النّفع والانتفاع، وحب للنفس وللناس، وبذل الجهد، بذلاً يجعل الإنسان شاكراً لربه قائماً بواجب الخلافة التي خلقه الله من أجل القيام بها.

وهذه الخلافة تجعل المجتمع الحضاري بأفراده وفئاته وطوائفه في كل ما تتطلبه مسيرتهم الحياتية من ضروريات وحاجيات وكماليات ـ استجابة لسنّة الله في خلقه ـ سنة الأسباب والمسببات، يقوم على الزراعة والصناعة والتجارة جميعها. فإن المجتمع كما يحتاج إلى الزراعة للحصول على المواد الغذائية التي تنبتها الأرض، والتي عليها تتوقف حياة الإنسان والحيوان واستمرارها استمراراً لا ضنك فيه ولا تعاسة، يحتاج إلى الصناعات المختلفة في شؤونه المتعددة، في ملابسه ومساكنه، في آلات الزراعة وفي آليات الصناعة وفي مرافق التجارة، وفي شقّ الطرق وتعبيدها، وفي حفر الآبار وتفجير العيون، وفي بناء السدود والتحكم في الأنهار، وفي مدّ السكك الحديدية، وبناء المطارات، وفي صنع جميع ما ييسر الحياة للإنسان، فيوفّر له ضرورياته، ويمده بحاجياته وكمالياته بل وبما يجعله سيّداً في الكون مالكاً للمادة ومسيطراً عليها.

ويحتاج المجتمع أيضاً إلى تبادل الأعيان والمواد الغذائية والمصنوعات مع أفراده فيما بينهم ومع المجتمعات الأخرى التي هي في حاجة إلى ما عنده، وهو في حاجة إلى ما عندها، سنّة الله في عباده وفي جميع عناصر خلقه.

ومن هنا كانت حياة الأفراد والمجتمعات لا تستقيم مادياً إلا على هذه المسالك الثلاث: الزراعة والصناعة والتجارة.

وبما أن الإسلام دين الحياة الأولى والآخرة، ولا هادي إلى الحقّ وإلى

الطريق المستقيم غيره جاء يهدي الإنسان ويبيّن له الاستقامة لأفراده ومجتمعاته في مجال التصرف بماديات الحياة، والانتفاع بما فيها من خير إلا بمقدار ما يحققه من زراعة وغراسة وما يتقنه من صناعة، وما يحسنه من تجارة، وبمقدار ما يحقّقه من جميعها من خير ونفع، ومن سعادة وأمن ومن رخاء ورغد عيش.

ومن هنا قرّر علماء الإسلام: أن كل ما لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، فتعلمه ووجوده من فروض الكفاية.

وقالوا: من ذلك أصول الصناعات، كالفلاحة، والحياكة، والخياطة، وغير ذلك مما هو ضروري، كالضروري، في المعاملات ويسر الحياة، ودفع الحرج عن الناس.

ومعنى أنه من فروض الكفاية، أنه إذا لم يتحقق في الأمة كلها، أثمت الأمة كلها وأن الأثم لا يرتفع منها إلا إذا قامت كل طائفة بنوع من هذه الأنواع التي لا تستقيم حياة الأفراد والجماعات مادياً إلا بها.

ومن حكمة هذا الفرض الكفائي الذي على المسلمين أن يحقّقوه ويوفّروا نتائجه في أوساطهم ومجتمعاتهم، وإلا أثموا جميعاً، هي جعل المسلمين قادرين على التحكم في شؤون حياتهم غير عالة في سيرهم في دروب الحياة على غيرهم من الذين لا يؤمنون بعقيدتهم ولا يحترمون مبادئهم ومثلهم ولا يشاركونهم تصوراتهم، و لا يرتاحون لطموحاتهم ولا يضمرون لهم الخير.

وبقدرة المسلمين على التحكم في شؤونهم عبر مسيرة الحياة، يظلون محتفظين بكيانهم، وبعزّتهم ومناعتهم كأمة، وبنظمهم وتقاليدهم وبخيرات بلدانهم، ولا يجد غيرهم من أولي الصناعات ومحترفي التجارات الذين لا يشاركونهم عقيدتهم وإيمانهم، ولا مثلهم وحضارتهم، ولا يجدون سبيلاً إلى التدخل في شؤونهم ذلك التدخل الذي كثيراً ما يؤدي إلى فرض الإرادة، ثم التحكم في المصير الحياتي، وهذا التحكم هو الاستعمار المختلف الألوان

الذي يسلب الشعوب استقلالها وحرياتها، ويسلب النّاس عزّتهم وكرامتهم.

ولا ريب أن تحكّم المسلمين في طرق الحياة، ومسالك العيش الأساسية من زراعة وصناعة وتجارة، والسير بها إلى نشر الخير، وتعميم النفع للأفراد والجماعات الإسلامية، هو عنصر أساسي عظيم لحياتهم كأمة، ولعزّهم وكرامتهم ولتقدمهم ورقيّهم .

ومع هذا العطاء الثري للمعتدلين في مجال المال، وفي ميدان الثروة الاقتصادية بواسطة تفسيرهم للنص أو تأويله، وبيان المعنى المراد منه.

قد بيّنوا ـ توضيحاً لمنهج الإسلام وفلسفته ـ الحقوق التي تتعلق بالمال أو تؤخذ منه، وبينوا مصارف الثروة العامة، والمشاريع الكبرى، والمخططات العاجلة والآجلة للأمة، وللدولة التي تمثلها وتنوبها في ميادين الأخذ والعطاء.

وبيانهم هذا لا يمكن تفصيله، ولا إجماله في فصل من فصول باب، وإن اتسع موضوعه، وتعددت مسائله، وترامت قضاياه، لأنه بيان وسع قسم المعاملات المالية في الفقه الإسلامي الذي ألّفت فيه قديماً وحديثاً آلاف المجلدات في كل مذهب من مذاهب التشريع لتحليل قضاياه، وعرض مشاكله، وبسط مسائله، واستنباط أحكامه.

وأبرز ما يتراءى لنا في هذا العطاء العظيم، أنه أبان للناس أن منهج الإسلام وفلسفته في مجال المال والاقتصاد منهج متكامل وفلسفة مميزة تضع الناس أمام منطلق واضح المعالم، وقبالة هدي مضمون النتائج.

ولكل من منهجه وفلسفته ترتاح النفس، وينشرح الصدر، ويطمئن الضمير حيث مع شرعية إيجاد المال وتنميته وحمايته، يتقاسم الناس كل حسب بذله وحاجاته، الحقوق والواجبات، ويتساوون أمام عدالة التوزيع، في كل موطن من مواطن التوزيع.

وكل من يبحث في منهج الإسلام وفلسفته المالية الاقتصادية يجدهما

منهجاً مستقيماً وفلسفة واضحة في ظاهرها، عميقة في باطنها، قريبة في مسالكها، بعيدة في أهدافها، غنية في نتائجها، مفيدة في عطائها، تبعد الناس، وتريحهم من متاهات الفلسفة المالية المعاصرة، وتنقذهم ـ لو حكموها في سيرهم ـ من حيل أرباب الاقتصاد اليوم ومن غوائل دروبهم الملتوية المظلمة، التي أظلمها، وأفسد طرقها وجعل عاقبة أمرها الخسران، مكر المرابين، وخداع المحتكرين الذين أرهقوا الناس، وأفسدوا عليهم حياتهم، وجعلوهم يلهثون وراء حيلهم وتعقيداتهم دون أن ينتبهوا للمصير وذلك لأنهم يعتبرون حيلهم علوماً مفيدة، وتعقيداتهم مناهج فلسفية محكمة، ألا ساء ما عليه الجميع من مكر وخداع عند البعض ومن غباء وامّعة عند البعض الآخر.

ولو عاد المسلمون إلى الرشد، واختاروا لأنفسهم مسلك الاستقامة، وهدوا الناس إليه كما هو مطلوب منهم، لوجدوا أن الذي يحقق لهم الخير، ويوفر لهم الرخاء، ويجعلهم وكافة الناس الذين يتعاملون معهم بصدق وإخلاص ينعمون بالأمن والسعادة، هو منهجهم الإسلامي بفلسفته الواضحة المعالم، وبعطائه الخيّر ذي النفع العميم.

ـ عطاؤهم في مجال التفسير والتأويل للقرآن الكريم:

عطاؤهم في هذا المجال كان واسعاً جدّاً، اتساع القرآن لقضايا الحياة الدنيا والآخرة. فالقرآن الذي هو آيات الله المتلوة، والكاشفة لأسرار آياته في الكون المشاهد، وغير المشاهد كشفاً يتناول ويحيط بتناوله كل القضايا والشؤون المتعلقة بالإنسان، وبما يتصل به من قريب أو بعيد، سواء في ميادين ومجالات الحياة الدنيا، أو فيما ينتظره في الحياة الأخرى.

وفي إحاطته وتناوله لكل ذلك، تارة يكون بواسطة ما يعطيه ظاهر النص وما يتطلبه من بيان وتفسير، وتارة بواسطة ما يعطيه باطنه وما يستدعيه من عمق نظر، ورشد استنباط، وسلامة تأويل.

ولبيان هذا العطاء الذي لا ينتهي مدده، ولن ينتهي ما دام القرآن، وما دام العلماء المؤمنون والراسخون في العلم، ينهلون منه، ويؤولون للوصول إلى كشف المعاني المرادة منه، إلى الناس، عساهم يدركون الحقيقة، ويعملون بالحقّ.

ولكشف المجالات وتوضيح الميادين وتقريب الأبعاد التي يتناولها القرآن بظاهره وباطنه ويمدّ بها الناس إن كانت فوق طاقاتهم الإدراكية، أو يقودهم إليها، ويهديهم إلى طرقها ومسالكها، إن كانت في تناول ما يملكون من قوى إدراكية وترجع إلى ما في طاقاتهم من جهد وسعي.

لبيان وكشف ذلك جاء عطاء المعتدين في تفسيرهم للقرآن الكريم غزيراً متدفقاً، محيطاً شاملاً. أحاط بكل القضايا والشؤون وشمل كل العلوم والمعارف.

أحاط بقضايا الإنسان وشؤونه.

ـ في مجال العقيدة وما لها من جوانب روحية، وأبعاد إيمانية.

ـ وفي مجال الشريعة، وما توجبه من عبادات وما تحدده من معاملات، وما تعطيه من حقوق وما تفرضه من واجبات.

ـ وفي مجال التربية، وما تمليه من مبادىء ومثل، وما تعلمه من استقامة سلوك، وما تهدي إليه من حسن اقتداء، وجدية سعي وعمل.

ـ وفي مجال التعامل والتبادل وما يتطلبه من أريحية وسخاء، ومن صدق ووفاء.

ـ وفي مجال التعاون والاخاء، وما يستدعيه من سمو مشاعر، ونبل أحاسيس، وحب للغير.

وشمل علوم ومعارف الدنيا والأخرى، مثل:

ـ علم العقيدة الذي اصطلح على تسميته بعلم الكلام.

- علم المآل والكشف عما في الحياة الأخرى.
- علم التشريع ومذاهب الفقه.
- علم التربية وتزكية النفس، وإصلاح الجسم والروح.
- علم اللغة وفنون الكلام، وأساليب التعبير.
- علم الفلك والهيئة.
- علم الحيوانات والنبات.
- علوم الرياضيات.
- علوم الفيزياء والكيمياء.
- العلوم الطبيعية والطب.
- علم الجغرافيا.
- علم التاريخ.
- العلوم السياسية.
- علم الاجتماع.
- علم الاقتصاد.
- طريق التصوف ومسالكه.
- منهج الفلسفة وأبعادها.

فعلم العقيدة وما فيه من أبعاد تربط بين الحياتين الأولى والآخرة، وعلم الفقه والتشريع، وما اشتمل عليه من قضايا ومسائل وما للقضايا والمسائل من أحكام، وما حولها من أنظار وآراء.

obeikandl.com

وعلم التربية وما فيه من تعليم وتوجيه، ومن هداية وإرشاد. ومن إصلاح لناحيتي الإنسان المادية والروحية.

وعلم اللغة وما لها من قواعد تعبيرية، وأسلوبية، وفنيّة، وذوقيّة.

فهذه الأصناف من العلوم. كان عطاء المعتدلين فيها، على اتساعه طولاً وعرضاً وعمقاً. بواسطة تفسيرهم وتأويلهم للقرآن الكريم، مأخوذاً من نصوص الآيات، ومن معانيها القريبة والبعيدة.

وفي بقية العلوم الأخرى على اختلاف أنواعها، كان عطاؤهم مستوحى من الإشارات العلمية، ومن الأخبار والأنباء الكونية، التي اشتمل عليها الهدي القرآني في عديد من آياته.

وهنا لا بدّ من إبداء ملاحظة أكيدة وهي:

أن القرآن عند كافة المسلمين المتبعين لهدي الله ورسوله، وخاصة عند العلماء منهم ـ بلا شك ومن غير تنازع بينهم ـ هو كتاب عقيدة وهداية وتشريع.

ولتركيز وغرس ما جاء من عقيدة، ولشدّ العقول والمواهب لما جاء فيه من هداية ولحمل النفوس بيسر ولطف اقناع، على ما جاء فيه من تشريع، ومن تعاليم وأحكام، أعان الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عباده المكلفين بإشارات علمية، وبأخبار وأنباء كونية، تشدهم إلى الحق، وتعينهم على تقبل ما كلّفوا به، وتفتح أمامهم أبواب المعرفة، ومجالات العلم.

وبناء على هذا فما ذهب إليه المعتدلون من تفسير وتأويل علمي لم يذهبوا إليه على اعتبار أن القرآن كتاب علوم، أو كتاب فلسفة، وإنما ذهبوا إليه على اعتبار:

أن ما جاء فيه من إشارات علمية، وأخبار وأنباء كونية، لا يتضارب مع ما ثبت في مجال العلم، وأصبح من القواعد العلمية الصحيحة، اليقينيّة الثابتة.

وعلى اعتبار أن البشر يخطئون في أنـظارهم واستنتاجـاتهم العلمية، ويصيبون، وأن كل ما جاء به القرآن، وكل ما أخبر وأنبأ به هو صدق ويقين، ولهذا فهو حكم على ما عند الناس، وليس ما عند الناس حكماً عليه.

وعلى اعتبار أن إشارات القرآن، وأخباره وأنباءه، يمكن بهدي منه، وبتوجيهه:

ـ التوسع في أبعاد معانيها، واتخاذها منطلقاً لبناء مناهج علمية، وتأسيس علوم نظرية، وتطبيقية، متكاملة في بنائها، وفي منطلقاتها وأبعادها محكمة فيما ولدت عنه من أنظار وآراء، وفيما تولد عنه من استنباط واستنتاج ومن قضايا ومسائل.

والعلماء في استنباط أنواع العلوم والمعارف، واستخراج مسائلها، وضبط قواعدها واستكشاف أبعادها، من الإشارات القرآنية على فريقين:

فريق لا يرى في ذلك خروجاً عن الهدي القرآني، ولا منافياً لما يرمي إليه من معان بعيدة يحسن بنا ـ طلباً للعلم والمعرفة ـ التعمق والتوسع في كشفها وإبرازها بواسطة التأويل. وفريق يرى في ذلك خروجاً ومنافاة، وإساءة لمقاصد القرآن العالية، وهدايته السامية.

فوجهة نظر الفريق الأول بسطها الإمام جلال الدين السيوطي فقال: (النوع الخامس والستون). في العلوم المستنبطة من القرآن، قال تعالىٰ: ﴿**ما فرّطنا في الكتاب من شيء**﴾. وقال ﷺ «ستكون فتن، قيل وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم».

ـ أخرجه الترمذي وغيره ـ وأخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال: من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين، وقال البيهقي: يعني أصول العلم، وأخرج البيهقي عن الحسن قال: أنزل الله مائة وأربعة كتب أودع علومها أربعة منها: التوراة والإنجيل والزبور، والفرقان، ثم أودع علوم

الثلاثة، الفرقان، وقال الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ جميع ما تقوله الأمّة شرح للسنّة، وجميع السنّة شرح للقرآن.

وقال أيضاً: جميع ما حكم به النبيّ ﷺ فهو مما فهمه من القرآن.

قلت: ويؤيد هذا قوله ﷺ إني لا أحلّ إلا ما أحلّ الله، ولا أحرّم إلا ما حرّم الله في كتابه. أخرجه الشافعي بهذا اللفظ.

وقال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله.

وقال ابن مسعود: إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله تعالىٰ.

ـ أخرجهما ابن أبي حاتم ـ وقال الشافعي أيضاً: ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدي فيها.

ثم قال: وقال ابن أبي الفضل المرسي في تفسيره: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة، إلا المتكلم بها، ثم رسول الله ﷺ كلاماً استأثر به سبحانه وتعالىٰ.

ثم ورث عنه معظم سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس حتى قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالىٰ، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعدها، وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه، وعدد سجداته، والتعليم عند كل عشر آيات إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبّر لما أودع فيه، فسموا القراء.

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والحروف العاملة وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم والمتعدي ورسوم خطّ الكلمات وجميع ما يتعلق به. حتى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتنى المفسرون بألفاظه فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد، ولفظاً يدل على معنيين، ولفظاً يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفي منه، وخاضوا ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني وأعمل كلّ منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره. واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلّة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله تعالىٰ: ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده، وبقائه وقدمه وقدرته وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا هذا العلم بأصول الدين.

وتأملت طائفة منهم معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم ومنها ما يقتضي الخصوص إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز وتكلموا في التخصيص، والأخبار، والنص والظاهر، والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهي، والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء، وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فأسسوا أصوله، وفرعوا فروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً وسموه بعلم الفروع، وبالفقه أيضاً.

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم ودوّنوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص.

وتنبّه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، والرجال تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد الوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت، والمعاد والنشر والحشر والحساب والعقاب، والجنة والنار، فصولاً من المواعظ، وأصولاً من الزواجر، فسموا بذلك الخطباء والوعاظ.

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السمان وفي منامي صاحبي السجن، وفي رؤيا الشمس والقمر والنجوم ساجدة وسموه تعبير الرؤيا، واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب، فإن عزّ عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب. فإن عسر فمن الحكم والأمثال، ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم وعرف عاداتهم التي أشار القرآن بقوله: ﴿**وأمر بالعرف**﴾.

وأخذ قوم مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها، وغير ذلك علم الفرائض، واستنبطوا منها من ذكر النصف الثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض، ومسائل العول، واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله، والنجوم والبروج وغير ذلك، فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ، وبديع النظم، وحسن السياق والمبادىء والمقاطع والمخالص، والتلوين في الخطاب، والإطناب والإيجاز، وغير ذلك، واستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع.

ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق، جعلوا لها أعلاماً اصطلحوا عليها مثل الفناء والبقاء والحضور والخوف والهيبة والأنس والوحشة، والقبض والبسط، وما أشبه ذلك.

هذه الفنون التي أخذتها الملّة الإسلامية منه. وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، والنجامة، وغير ذلك.

ثم قال: وقال ابن سراقة: من بعض وجوه إعجاز القرآن ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب، والجمع، والقسمة، والضرب، والموافقة، والتأليف، والمناسبة، والتنصيف والمضاعفة، ليعلم بذلك أهل العلم والحساب أنه ﷺ صادق في قوله، وإن القرآن ليس من عنده، إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة، ولا تلقى الحساب وأهل الهندسة.

وقال الراغب: إن الله تعالىٰ كما جعل نبوّة النبيين بنبيّنا محمد ﷺ مختتمة، وشرائعهم بشريعته من وجه منتسخة ومن وجه مكملة متممة، جعل كتابه المنزل عليه، متضمناً لثمرة كتبه التي أولاها أولئك، كما نبّه عليه بقوله: **﴿يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيّمة﴾**.

وجعل من معجزة الكتاب أنه مع قلّة الحجم متضمن للمعنى الجليل بحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه. والآلات الدنيوية عن استيفائه كما نبّه عليه بقوله: **﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾**.

فهو وإن كان لا يخلو للناظر فيه من نور ما يريه، ونفع ما يوليه.

كالبدر من حيث التفت رأيته ... يهدي إلى عينيك نوراً ثاقبا
كالشمس في كبد السماء وضوءها ... يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا

ثم قال: وقال أبو بكر بن العربي في قانون التأويل: علوم القرآن خمسون علماً وأربعمائة علم وسبعة آلاف علم وسبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة إذ لكل كلمة ظهر وبطن وحد ومطلع، وهذا مطلق دون اعتبار تركيب وما بينها من روابط، وهذا ما لا يحصر، ولا يعلمه إلا الله.

ثم قال: وقال ابن جرير: القرآن يشتمل على ثلاثة أشياء: التوحيد، والإخبار، والديانات.

ثم قال: وقال علي بن عيسى: القرآن يشتمل على ثلاثين شيئاً: الاعلام، والتشبيه والأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، ووصف الجنة، والنار، وتعليم الإقرار باسم الله وبصفاته، وأفعاله، وتعليم الاعتراف بإنعامه، والاحتجاج على المخالفين، والرد على الملحدين، والبيان عن الرغبة والرهبة، والخير، والشر، والحسن، والقبيح، ونعت الحكمة وفضل المعرفة، ومدح الأبرار، وذمّ الفجّار، والتسليم، والتحسين، والتوكيد، والتقريع، والبيان عن ذمّ الأخلاق، وشرف الآداب.

ثم قال: وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء.

أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا في القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وتحت الثرى وبدء الخلق، وأسماء مشاهير الرسل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة[1].

فما بسطه السيوطي، وما أورده من آيات وأحاديث، ومن أقوال للصحابة، ومن آراء وأنظار للعلماء يبرز بجلاء وجهة نظر الفريق الأول.

وأما وجهة نظر الفريق الثاني الذي يذهب إلى أن العلوم الكونية لا يجمل عدّها من علوم القرآن، وأن الاشتغال باستمدادها منه مناف لمقاصده وهديه فقد أجمل بيانها وتعليلها الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني قال:

أما العلوم الكونية، وأما المعارف والصنائع، وما جدّ ويجدّ في العالم من فنون ومعارف كعلم الهندسة والحساب، وعلم الهيئة والفلك، وعلم الاقتصاد

---

(1) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ج 2 ص 125 - 128.

والاجتماع وعلم الطبيعة والكيمياء، وعلم الحيوان والنبات، فإن شيئاً من ذلك لا يجمل عدّه من علوم القرآن، لأن القرآن لم ينزل ليدلّل على نظرية من نظريات الهندسة مثلاً، ولا ليقرّر قانوناً من قوانينها، وكذلك علم الهندسة، لم يوضع ليخدم القرآن في شرح آياته، أو بيان أسراره، وهكذا القول في سائر العلوم الكونية، والصنائع العلمية وإن كان القرآن قد دعا المسلمين إلى تعلّمها وحذقها والتمهّر فيها خصوصاً عند الحاجة إليها، وإنما قلنا: إنه لا يجمل اعتبار علوم الكون وصنائعه من علوم القرآن مع أن القرآن يدعو إلى تعلمها، لأن هناك فرقاً كبيراً بين الشيء يحثّ القرآن على تعلّمه في عموماته أو خصوصاته، وبين العلم يدل القرآن على مسائله، أو يرشد إلى أحكامه أو يكون ذلك العلم خادماً للقرآن بمسائله أو أحكامه أو مفرداته.

فالأول ظاهر أنه لا يعتبر من علوم القرآن بخلاف الثاني، وهو ما نريد أن نرشدك إليه، وأن تحرص أنت بدورك عليه[1].

والذي أختاره وأميل إليه، هو ما جاء في وجهة نظر الفريق الأول، وذلك لأن المفسرين الذين توسعوا في استنباط واستنتاج قضايا ومسائل علمية، بل مناهج متكاملة في مجالات العلوم الكونية، وفي ميا دين المعارف والصنائع وفي كل ما جدّ، أو يجدّ من فنون ومعارف بواسطة التأويل المستند على ما تضمّنه القرآن الكريم من إشارات علمية، ومن أخبار وأنباء كونية، لا أعتبرهم ـ ما داموا لم يخرجوا عن هدي القرآن وتوجيهه ـ قد أساءوا بتوسعهم في التأويل والاستنباط والاستنتاج، لأن الإشارات القرآنية، أوسع من أن تحدد وأكمل في عطائها وأغزر وأشمل مما عند الناس، ومن كل اكتشافاتهم العلمية والفنية، وهذا يؤخذ ويستنتج من صيغ العموم والإطلاق الواردة في الهدي القرآني والتوجيه النبوي، ومن ذلك:

(1) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ج 1 ص 17 ط الثالثة سنة 1372 هـ، طبع ونشر أصحاب دار احياء الكتب العربية.

قوله تعالىٰ: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[1] وقوله: ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾[2] وقوله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾[3].

وقوله عليه الصلاة والسلام ـ واصفاً أبعاد القرآن ـ : «لا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه».

هذا بعض عطاء المعتدلين، وما فيه من إثراء للفكر الإسلامي، وإفادة للفكر الإنساني.

وأما أهداف المغالين، وغاياتهم، وما في غلوّهم من استخفاف بالفكر الإنساني وامتهان له، فإني ـ توضيحاً لذلك، وختاماً لهذا الفصل ـ أقدم نموذجين، كتمهيد لما سأذكره مفصلاً في الفصول الخمسة الآتية:

النموذج الأول: مأخوذ مما ذهب إليه الشيخ علي عبد الرازق في كتابه: (الإسلام وأصول الحكم)[4] فقد قال في الباب الثاني تحت عنوان: (الرسالة

---

(1) سورة الأنعام آية 38.

(2) سورة النحل آية 89.

(3) سورة لقمان آية 27.

(4) جاء في تعليق الأستاذ: انور الجندي على هذا الكتاب ما يلي: كتاب (الإسلام وأصول الحكم): حاشية علي عبد الرزاق.. على متن مرجليوث كانت القوى الأجنبية قد تآمرت على اسقاط الخلافة الإسلامية في دورة طويلة تكاثفت فيها الصهيونية والغرب الاستعماري، وجماعة الاتحاد بين الذين أسقطوا السلطان عبد الحميد، واستولوا على الحكم في الدولة العثمانية تمهيداً لتسليم فلسطين الى الصهيونية. وجاء دور مصطفى كمال اتاتورك بعد انتهاء الحرب العالمية التي دخلتها الدولة العثمانية وهزمت فيها، وكان لسقوط الخلافة رنّة أسى وتطلع ضخم الى هذا الحدث الذي أصبح من بعد عهداً من عهود حركة اليقظة الإسلامية باعادة الخلافة.

شبهة ماكرة: في هذا الجو المضطرب ـ الذي انحل فيه عقد الجامعة الإسلامية وبرزت دعوات الاقليمية والقومية وتمزيق العالم الإسلامي الى قوى محلية ـ صدر كتاب الشيخ عبد الرزاق (الإسلام وأصول الحكم) الذي كان بمثابة صيحة تغريبية جائرة تحاول ان تقضي على مفهوم الإسلام الجامع ديناً ودولة بإثارة شبهة ماكرة لئيمة خادعة هي القول بأن الإسلام دين عبادي وان الرسول ﷺ لم يكن في ذات الوقت حاكماً أقام دولة. وقد صدر الكتاب في مجال معارضة الخلافة الاسلامية =

والحكم): لا شكّ في أن الحكومة النبوية كان فيها بعض ما يشبه أن يكون من مظاهر الحكومة السياسية وآثار السلطنة والملك.

أول ما يخطر بالبال مثال من أمثلة الشؤون الملكية، التي ظهرت أيام النبيّ ﷺ مسألة الجهاد...

وظاهر أول وهلة أن الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة إلى الدين، ولا لحمل الناس على الإيمان بالله ورسوله، وإنما يكون الجهاد لتثبيت السلطان وتوسيع الملك.

دعوة الدين دعوة إلى الله تعالىٰ وقوام تلك الدعوة لا يكون إلا البيان، وتحريك القلوب بوسائل التأثير والاقناع، فأما القوة والاكراه، فلا يناسبان دعوة يكون الغرض منها هداية القلوب، وتطهير العقائد. وما عرفنا في تاريخ الرسل رجلاً حمل الناس على الإيمان بالله بحدّ السيف، ولا غزا قوماً في سبيل الاقناع بدينه.

وذلك هو نفس المبدأ الذي يقرّره النبي ﷺ فيما كان يبلّغ من كتاب الله.

قال تعالىٰ: **﴿لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغيّ﴾**[1].

وقال: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾**[2] وقال: **﴿فذكر إنما أنت مذكر* لست عليهم بمسيطر*﴾**[3] **﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين**

= لاسباب سياسية كانت بريطانيا والنفوذ الأجنبي تؤازرها وكانت تعمل دون عودة هذا النظام الإسلامي الجامع ولكن الخطأ الحقيقي من وراء كتاب علي عبد الرزاق كان هو: هدم مفهوم الإسلام بوصفه ديناً ودولة ونظام مجتمع ومنهج حكم جامع. (عن نشرية من مجلة: منار الإسلام: العدد الخامس السنة الحادية عشرة: بعنوان: مؤلفات في الميزان، لأنور الجندي).

(1) سورة البقرة آية 256.

(2) سورة النحل آية 125.

(3) سورة الغاشية آيتا 21 - 22.

﴿أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾[1].

﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[2].

تلك مبادىء صريحة في أن رسالة النبي ﷺ كرسالة إخوانه من قبل، إنما تعتمد على الإقناع والوعظ، وما كان لها أن تعتمد على القوة والبطش وإذا كان ﷺ قد لجأ إلى القوة والبطش، فذلك لا يكون في سبيل الدعوة إلى الدين، وإبلاغ رسالته إلى العالمين، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان في سبيل الملك، ولتكوين الحكومة الإسلامية، ولا تقوم حكومة إلا على السيف، وبحكم القهر والغلبة، فذلك عندهم هو سرّ الجهاد النبوي ومعناه.

ثم قال:

فأما أن المملكة النبوية عمل منفصل عن دعوة الإسلام، وخارج عن حدود الرسالة، فذلك رأي لا نعرف في مذاهب المسلمين ما يشاكله، ولا نذكر في كلامهم ما يدل عليه وهو على ذلك رأي صالح لأن يذهب إليه، ولا نرى القول به يكون كفراً ولا إلحاداً وربما كان محمولاً على هذا المذهب ما يراه بعض الفرق الإسلامية من إنكار الخلافة في الإسلام مرة واحدة.

ولا يهولنك أن تسمع للنبي ﷺ عملاً كهذا خارجاً عن وظيفة الرسالة، وإن ملكه الذي شيّده هو من قبيل ذلك العمل الدنيوي الذي لا علاقة له بالرسالة.

ثم قال:

وأما أن المملكة النبوية جزء من عمل الرسالة متمم لها، وداخل فيها،

---

(1) سورة آل عمران آية 20.
(2) سورة يونس آية 99.

فذلك هو الرأي تتلقاه، نفوس المسلمين فيما يظهر بالرضا، وهو الذي تشير إليه أساليبهم، وتؤيده مبادئهم ومذاهبهم.

ومن البيّن أن ذلك الرأي لا يمكن تعقله إلا إذا ثبت أن من عمل الرسالة أن يقوم الرسول، بعد تبليغ الدعوة الآلهية بتنفيذها على وجه عملي، أي أن الرسول يكون مبلّغاً ومنفذاً معاً.

غير أن الذين بحثوا في معنى الرسالة، ووقفنا على مباحثهم، أغفلوا دائماً أن يعتبروا التنفيذ جزءاً من حقيقة الرسالة. . . .[1].

فهذه الفقرات تجعلنا نعتقد أننا أمام باحث غير مسلم يثير الشبهات حول الإسلام وحول منهج الرسول الأكرم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في تبليغ دين الله إلى الناس. فقوله: (لا شكّ في أن الحكومة النبوية كان فيها ما يشبه. . .) يدل على فقر تام وجهل مزر بقائله بما في القرآن الكريم، وبما في السنة النبوية المبينة له، وبما في السيرة المحمدية ـ على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ من سلوك عملي يغطي كل لون من ألوان استقامة سير الإنسان في هذه الحياة.

وقوله: (أول ما يخطر بالبال مثال من أمثلة الشؤون الملكية التي ظهرت أيام النبي ﷺ مسألة الجهاد. . . .) يدل أيضاً على مدى جهله أو تجاهله لأبعاد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

ويصل به جهله أو تجاهله، إلى مستوى جدّ سخيف، حيث يذهب إلى أن الجهاد خارج عن حدود الرسالة، وعن مفهومها الحقيقي، وأن محمداً ﷺ قام به، لا كجانب من رسالته، وإنما هو من عنده تحقيقاً لطموحه الشخصي، كي يثبت لنفسه سلطاناً، ويوسع له ملكاً.

---

(1) الإسلام وأصول الحكم، لعلي عبد الرزاق ص 116 - 121. منشورات دار مكتبة الحياة بيروت سنة 1966.

وهذا المنطق الدال على جهل صاحبه أو تجاهله، وعلى سوء أدبه مع رسول الله ﷺ ليس منطق مسلم يحترم إسلامه ويعتزّ به، وإنما هو منطق غير مسلم يرمي إلى إثارة الشبهات حول الإسلام لجهله به، أو لتحامله عليه.

فالمنطق الإسلامي يفرض على صاحبه أن يستمدّ بحثه وبيانه من المراجع الأساسية للإسلام، التي يؤمن بها أشد الإيمان، ولا يجد الحق المبرأ من الهوى والشهوات في غيرها، وفي مقدمتها القرآن والسنّة، وما أجمع عليه علماء المسلمين الراسخون في العلم.

ونحن إذا ما رجعنا إلى القرآن، نجد الجهاد من صميم الرسالة المحمدية ومن أمتن دعائمها، حيث هو في سبيل إعلاء كلمة الله، وتبليغ دينه إلى الناس.

ومن أجل حماية الدين وحماية الدعوة إليه، وردّ العدوان على أهله ومن أجل بناء دولة الإسلام، دولة الحق التي أرادها الله لعباده المؤمنين.

وإذا تأملنا في الآيات المتضمنة للأمر بالجهاد، ولبيان خيره وجدواه، وللتنويه بشأن القائمين به، نجده لا ينفصل عن الرسالة الخاتمة، رسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الناس كافة، التي انتهت إليها وانصهرت فيها جميع الرسالات السابقة.

بحيث أصبحت الرسالة المحمدية هي المهيمنة والحكم على الجميع. فلا يحتج عليها في مجال الحكم والتشريع، وفي منهج السلوك والتطبيق، بغيرها من الشرائع، أو ببعض منها.

ومن الآيات الدالة على أن الجهاد في سبيل الله عنصر أساسي من عناصر الرسالة المحمدية، لا ينفصل عنها، ولا يناقضها في مبادئها ولا في أهدافها.

قوله تعالىٰ: **﴿يا أيها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾**[1].

(1) سورة التوبة آية 73.

في هذه الآية أمر الله رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره في آية أخرى بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين فقال له: ﴿**واخفض جناحك للمؤمنين**﴾[1] وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة، فربط جهاد رسول الله ﷺ للكافرين والمنافقين بما ينتظرهم في الحياة الأخرى، ينفي شبهة القائلين بأن الجهاد لم يخضه الرسول من أجل تبليغ رسالة ربّه إلى الناس، وإنما خاضه من أجل تثبيت السلطة وتوسيع الملك.

وأيضاً ينفي شبهتهم هذه قوله تعالىٰ: ﴿**والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً**﴾[2] فعناصر الرسالة المحمدية في هذه الآية: إيمان، وهجرة، وجهاد.

إيمان وهو موضوع وهدف جميع الرسالات الإلٰهية من آدم عليه السلام، إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ .

وهجرة، من أجل تأسيس دولة الإيمان، وهي ما امتاز به محمد ﷺ فكانت ميزة من ميزات رسالته، ومنطلقاً للمواجهة الكبرى التي أرادها الله لتكون وسيلة من وسائل تبليغ دينه الخاتم إلى الناس كافة.

وجهاد، من أجل إعلاء كلمة الله، وفرض مناعة دولة الإيمان، وحماية أهلها من أعدائهم.

كل ذلك أهّل المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا والأنصار الذين آووا ونصروا وآمنوا وجاهدوا مع رسول الله بأن يصفهم الله وصف تعظيم لأمرهم، وتنويه بشأنهم، بأنهم هم المؤمنون حقّاً.

وذلك ـ والله أعلم ـ لأنهم لم يجاهدوا من أجل تثبيت السلطة، وتوسيع الملك بأسلوب ومنهج وبمقصد يجعل الرسالة في واد، والجهاد من أجل

---

(1) سورة الحجر آية 88.

(2) سورة الأنفال آية 74.

السلطة والملك في واد آخر. وإنما جاهدوا لأنهم تعلموا من القرآن، ومن هدي محمد ﷺ بواسطة قوله، وفعله، وتقريره، أن الإسلام إيمان وعمل، دين ودنيا، كتاب وسيف، رسالة وبناء دولة، عبادات ومعاملات، تهجد بالليل، وسعي بالنهار، جهاد للهوى والشهوات في كل وقت، وجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، وردّ العدوان، ونصرة الحق في ساحات الوغى والقتال.

وأما ما قاله علي عبد الرازق من التفرقة بين هدف الرسالة ومنهجها، والجهاد وما يرمي إليه، فليس من منطق المسلمين العارفين برسالة نبيّهم الأكرم، وبأبعادها يقين المعرفة، والمؤمنين بها عميق الإيمان، وإنما هو من منطق اليهود والنصارى والملاحدة الجاهلين بالإسلام أو المتجاهلين، المعادين له، والمتحاملين عليه.

ومن سخرية علي عبد الرازق بنفسه، وبمن يسمع لهرائه، ويتأثر به، أن رضي لنفسه أن يكون معيداً لأقوال أعداء الإسلام والمسلمين ومردداً لشبهاتهم ومعيناً لهم على تمكين معاولهم من صرح الإسلام.

وتبرز سخريته بنفسه، وبمن يسمع لهرائه ويتأثر به في بقية ما جاء في فقراته إذ يقول: (وإذا كان ﷺ قد لجأ إلى القوة والبطش، فذلك لا يكون في سبيل الدعوة إلى الدين، وإبلاغ رسالته إلى العالمين، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان في سبيل الملك ولتكوين الحكومة الإسلامية، فذلك عندهم هو سرّ الجهاد النبوي ومعناه).

من يقول إن الرسول لم يجاهد في سبيل الدعوة إلى الدين، وإنما جاهد من أجل السلطة والملك؟.

الله الذي أرسل محمداً قال هذا؟ أم محمّد الذي بلّغ رسالة ربّه إلى الناس قال هذا؟ أم الذين صدّقوا محمداً وآمنوا برسالته حقّ الإيمان، عن علم ومعرفة، وعن بعد نظر وعمق تأمل، وعن جدّية بحث، وصدق استنتاج قالوا هذا؟.

الله لم يقل هذا عن رسوله وعن دينه، وإنما قال ـ مبيناً الروابط الأساسية التي جعلت من المسلمين وحدة متماكسة بعضهم أولياء بعض ـ : ﴿**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض**﴾[1].

﴿**والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم**﴾[2] وقال ـ مبيناً أن المعيار المبين لقوّة إسلام المسلم وصدق إيمانه، هو الجهاد ـ : ﴿**أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم**﴾[3].

وقال ـ مبيناً الدرجة الممتازة التي يعطيها الجهاد للمؤمنين المجاهدين والفوز العظيم الذي يحققه لهم. والفلاح الذي يكرمهم به ـ : ﴿**الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون**﴾[4] ﴿**لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون**﴾[5].

وقال ـ منّوها بشأن المؤمنين المجاهدين ومادحاً لهم بأنهم الجديرون بأن يوصفوا بحقّ بأنهم الصادقون أي في إيمانهم وإسلامهم ـ : ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون**﴾[6].

وقال ـ مبيناً أن الجهاد في سبيل الله طريق يجعل من يسلكه من المحسنين الذين تفتح أبواب الهداية أمامهم ويكون الله معهم ـ : ﴿**والذين جاهدوا فينا**

---

(1) سورة الأنفال آية 72.
(2) سورة الانفال آية 75.
(3) سورة التوبة آية 16.
(4) سورة التوبة آية 20.
(5) سورة التوبة آية 88.
(6) سورة الحجرات آية 15.

لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾[1].

وقال ـ مبيناً لعباده المؤمنين أن أربح تجارة تحقق لهم الربح العظيم في الحياة الأخرى، حيث تنجيهم من العذاب الأليم، هي تجارة الإيمان والجهاد ـ : **﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم* تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون*﴾**[2].

وقال ـ آمراً المؤمنين وحاثاً لهم على الإقبال على الجهاد، ومبيناً ما فيه لهم من الخير الكثير ـ : **﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾**[3].

وقال محذراً المؤمنين من أن ينكسوا على أعقابهم فيرتدوا عن إيمانهم ويتخلّوا عن الجهاد، ويفقدوا مناعتهم وعزّتهم ـ : **﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾**[4].

وقال ـ معاتباً الذين كرهوا الجهاد وقعدوا عنه فلم يجاهدوا مع رسول الله ﷺ وناعتاً إياهم بالجهل وعدم الفقه والمعرفة، ومتوعدهم بأشدّ العذاب:

﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحرّ قل نار جهنم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون﴾[5].

---

(1) سورة العنكبوت آية 79.
(2) سورة الصف آيتا 10 - 11.
(3) سورة التوبة آية 41.
(4) سورة المائدة آية 54.
(5) سورة التوبة آية 81.

فجميع هذه الآيات ومثيلاتها من القرآن الكريم تنبّىء بما لا يدع مجالاً للشكّ، بأن الجهاد في الإسلام عنصر أساسي من عناصر الرسالة الخاتمة التي بعث بها محمد ﷺ إلى الناس كافة.

والرسول أيضاً لم يقل ان الجهاد ليس من حقيقة رسالته، وإنما قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقّها وحسابهم على الله»[1].

وقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّ الإسلام، وحسابهم على الله[2].

والمؤمنون لم يقولوا هذا عن دينهم، وإنما قال الخليفة الأول لرسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ : (لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذلّ)[3].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : (بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين: ﴿**فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا**

---

(1) تقدم تخريجه والتعليق عليه وبيان ما يستنتج منه في ص 466.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان: باب «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم» وعلّق عليه الحافظ ابن حجر بقوله: فإن قيل: مقتضى الحديث قتال كل من امتنع من التوحيد. فكيف ترك قتال مؤدي الجزية والمعاهد؟ فالجواب من أوجه **أحدها**: دعوى النسخ، بأن يكون الاذن بأخذ الجزية والمعاهدة متأخراً عن هذه الأحاديث بدليل انه متأخر عن قوله تعالىٰ: ﴿**اقتلوا المشركين**﴾. **ثانيها**: ان يكون من العام الذي خصّ منه البعض، لأن المقصود من الأمر حصول المطلوب، فإذا تخلف البعض لدليل لم يقدم في العموم. **ثالثها**: ان يكون من العام الذي أريد به الخاص، فيكون المراد بالناس في قوله (اقاتل الناس) أي: المشركين من غير أهل الكتاب، ويدل عليه رواية النسائي بلفظ: «امرت ان اقاتل المشركين» (فتح الباري ج 1 ص 77).

(3) تقدم الاستشهاد به وبيان مرجعه في ص 489.

المشركين﴾ وسيف للكفار أهل الكتاب: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾**، وسيف للمنافقين: **﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾** وسيف للبغاة: **﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾**[1].

وقال أئمة المذاهب الإسلامية، وفقهاء الشريعة الراسخون في العلم: الجهاد فرض من فرائض الإسلام، وهو فرض كفاية في بعض الحالات، وفرض عين في بعض الحالات.

قال ابن رشد ـ مبيناً حكم الجهاد ـ :

فأما حكم هذه الوظيفة فأجمع العلماء على أنها فرض على الكفاية لا فرض عين، إلا عبد الله بن الحسن، فإنه قال: إنها تطوع، وإنما صار الجمهور لكونه فرضاً لقوله تعالىٰ: **﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾** الآية.

وأما كونه فرض على الكفاية ـ أعني إذا قام به البعض سقط عن البعض فلقوله تعالىٰ: **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾** الآية، وقوله: **﴿وكلاًّ وعد الله الحسنى﴾** ولم يخرج قط رسول الله ﷺ للغزو إلا وترك بعض الناس ، فإذا اجتمعت هذه اقتضى ذلك كون هذه الوظيفة فرضاً على الكفاية[2].

وقال محمد بن احمد بن جزي الغرناطي ـ مبيناً أيضاً حكم الجهاد ـ : هو كفاية عند الجمهور، وقال ابن المسيب: فرض عين، وقال سحنون: صار تطوعاً بعد الفتح، وقال الداودي: هو فرض عين على من يلي الكفار، ثم قال: (تفريع): إذا حميت أطراف البلاد، وسدت الثغور، سقط فرض الجهاد، وبقي نافلة ويتعين لثلاثة أسباب:

---

(1) تفسير الحافظ ابن كثير ج 4 ص 118.
(2) بداية المجتهد. . . ج 1 ص 278.

«أحدهـا» أمر الإمام فمن عيّنه الإمام وجب عليه الخروج.

«الثاني» أن يفجأ العدو بعض بلاد المسلمين، فيتعين عليهم دفعه فإن لم يقدروا لزم من قاربهم، فإن لم يستقل الجميع وجب على سائر المسلمين حتى يندفع العدو.

«الثالث» استنقاذ أسارى المسلمين من أيدي الكفار[1].

وإذا كان الله في كتابه الكريم فرض الجهاد على رسوله، وعلى المؤمنين لإعلاء كلمته وتبليغ دينه، ونشر هديه بين كافة الناس، وجعل الجهاد من عناصر رسالة محمدّ ﷺ.

والرسول المصطفى أبان ذلك بقوله وفعله: بغزواته المثبتة في سيرته المطهّرة.

والمؤمنون (صحابة وأتباعاً) وأئمة المذاهب المجتهدون، وعلماء الشريعة والفقه.

أجمعوا على أن الجهاد فرض من فرائض الشريعة ونـوع من أنواع العبادات التي يتقرب بها المؤمن لخالقه ومولاه.

أي سند يبقى لعلي عبد الرازق، ومن كان على شاكلته من الذين يلوكون بألسنتهم ـ تقليداً ـ أن الإسلام دين لا دولة.

وهذه الشبهات التي تمحور عليها كتابه المذكور هي:

أولاً: زعم أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي ﷺ كان في سبيل الملك، لا في سبيل الدين، ولا لإبلاغ الدعوة لأهل البلاد المفتوحة.

ثانياً: زعم أن نظام الحكم في عهد النبي ﷺ كان موضع غموض وإبهام أو نقص موجب للحيرة.

(1) قوانين الأحكام الشرعية لابن جزي الأندلسي ص 163 (نشر دار العلم للملايين بيروت).

ثالثاً: زعم أن مهمة النبي ﷺ كانت بلاغاً للشريعة مجرداً من الحكم والتنفيذ.

رابعاً: أنكر إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام، وعلى أنه لا بدّ للأمة من إمام يقوم بأمرها في الدين والدنيا.

خامساً: أنكر أن القضاء وظيفة شرعية وقال: إن الذين ذهبوا إلى أن القضاء وظيفة شرعية جعلوه متفرعاً من الخلافة.

سادساً: زعم أن حكومة أبي بكر والخلفاء الراشدين من بعده ـ رضي الله عنهم ـ كانت لا دينية.

وهي شبهات، رضي علي عبد الرازق لنفسه أن يقولها نيابة عن غيره من أعداء الإسلام المحاربين له، فانحدر يرددها بأسلوب ينمّ من حيث معناه ومبناه، وبطريقة نسجه في الخطاب، عن أنه أسلوب موجه من غير مسلم إلى المسلمين، مثل قوله: «ان المسلم العامي يجنح غالباً إلى اعتقاد أن النبي ﷺ كان ملكاً رسولاً وأنه أسس بالإسلام دولة سياسية مدنية، كان هو ملكها وسيدها. لعل ذلك هو الرأي الذي يتلاءم مع ذوق المسلمين العام».

وقوله: (فأما أن المملكة النبوية عمل منفصل عن دعوة الإسلام، وخارج عن حدود الرسالة، فذلك رأي لا نعرف في مذاهب المسلمين ما يشاكله، ولا نذكر في كلامهم ما يدل عليه، وهو على ذلك رأي صالح لأن يذهب إليه، ولا نرى القول به يكون كفراً أو إلحاداً، وربما كان محمولاً على هذا المذهب ما يراه بعض الفرق الإسلامية من إنكار الخلافة في الإسلام مرة واحدة).

وهنا بيت القصيد: ـ الخلافة الإسلامية ـ ومحاربة اليهود والنصارى والملاحدة لها والعمل بكل الوسائل، وبجميع ما يملكون من جهد، لعدم عودتها إلى ركب الحياة من جديد، لأنها تخيفهم، وتقض مضاجعهم، وتفوت

عليهم، سلطانهم المعتدي ونفوذهم الجائر، ومصالحهم المقامة على إهدار مصالح الناس.

وغير ذلك من أقواله التي تقدم لي ذكرها آنفاً أو التي لم أذكرها ويشتمل عليها كتابه. وهذا ما جعل عدداً من الباحثين يتهمون علي عبد الرازق، بأن الكتاب ليس من تأليفه، وإنما هو من تأليف المستشرق اليهودي مرجليوث المقيم في لندن، وأنه أهداه له عندما زارها دارساً، وقد كشف عن هذا الدكتور ضياء الدين الريس في كتابه (الإسلام والخلافة في العصر الحديث)[1].

ومما يرجح هذا الاتهام، أنه حتى في استشهاده بالآيات التي أرادها أن تكون سنده فيما ذهب إليه، من مثل قوله تعالىٰ: ﴿لا إكراه في الدين﴾، كان سطحياً هابط المستوى مثل استشهاد المستشرقين الأميين في فهم نصوص القرآن، حيث يسلخون النص منه سلخاً. دون أن يوجهوا اهتمامهم إلى أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، فما يكون عاماً في موطن قد يخصص في موطن آخر، وما يكون مطلقاً في موطن قد يقيد في موطن آخر، وما يكون مجملاً في موطن قد يبين في موطن آخر. ودون أن يوجهوا اهتمامهم إلى أسباب النزول المعينة على الفهم، وإلى ما في القرآن من ناسخ ومنسوخ. وإلى أن السنة مبينة للقرآن، وأن الاطلاع على ما صحّ منها ضروري وأكيد لسلامة تأويل آي القرآن، وأخذ الأحكام منها.

ودون أن يوجهوا اهتمامهم أيضاً إلى ما جاء في أنظار علماء الإسلام، وإلى ما انتهوا إليه من استنباط واستنتاج لأحكام مستمدة من جميع ذلك.

فقوله تعالىٰ: ﴿لا إكراه في الدين﴾ قد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب لأن الإسلام لا يرغمهم بالقتال على الدخول

---

(1) (عن نشرية من مجلة منار الإسلام: العدد الخامس السنة الحادية عشرة بعنوان: مؤلفات في الميزان، لأنور الجندي).

فيه، إذا بذلوا الجزية، وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، فإنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام. فإن أبى أحدهم الدخول فيه، ولم ينقد له ويبذل الجزية، قوتل حتى يقتل. وهذا معنى الاكراه، قال الله تعالىٰ: ﴿**ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون**﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿**يا أيها النبيّ جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم**﴾[2] وقال تعالىٰ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين**﴾[3].

وما أردت بتقديم هذا النموذج، ومناقشة صاحبه الاهتمام به وبما ردّد في كتابه من أقوال لغيره عرّضته للخزي والعار، فقد قام بهذا غيري ممن تصدوا له ودافعوا عن الإسلام وعن أبعاده التشريعية الواضحة وضوح الشمس في ضحاها[4].

---

(1) سورة الفتح آية 16.

(2) سورة التوبة آية 73.

(3) سورة التوبة آية 123.

(4) قال الاستاذ أنور الجندي فيما نشره بواسطة مجلة منار الإسلام العدد الخامس ـ السنة الحادية عشرة ـ بعنوان: مؤلفات في الميزان ص 38 قال: «ان اول من كشف حقيقة الكتاب هو الشيخ محمد نجيب الذي ردّ على الشيخ علي عبد الرازق في كتابه «حقيقة الإسلام وأصول الحكم» وهو واحد من الكتب التي صدرت في الرد عليه حيث قال: «لأنه علمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف ان الكتاب ليس له منه الا وضع اسمه عليه فقط. فهو منسوب اليه فقط ليجعله واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا العار وألبسوه ثوب الخزي الى يوم القيامة». وقد علّق علي عبد الرزاق على هذا المعنى بأن هذا الكتاب كان شؤماً عليه... ومن هذا الخيط الرفيع الذي ألقاه الشيخ محمد نجيب بدأت محاولة الدكتور ضياء الدين الريس، فاستطاع ان يصل الى الحقيقة وهي ان كاتب الكتاب هو المستشرق مرجليوث اليهودي الأصل. وهو أول من شنّ الهجوم على الخلافة لأن بلاده (بريطانيا) كانت في حرب مع دولة الخلافة. وقد اعلن الخليفة العثماني الجهاد الديني ضدها، والنصوص في الكتاب قاطعة بأنه كان موجهاً ضدّ الخلافة العثمانية.

وإنما أردت أن أكشف للذين سمعوا عن أعداء الإسلام أمثال هذه المقولات البيّن ضلالها وإفكها فتأثروا بها وأصبحوا يرددون ـ غباء وتقليداً ـ بأن الإسلام دين، لا دولة، وبأنه عبادة تربط العبد بربه. لا تشريع ودستور ينظم حياة الناس، ويسوسهم بحكم ودولة، بأنهم يقولون كلاماً يعرضهم للسخرية والتهكم ولوصفهم بالغباء والتقليد المزري، حتى وإن نعتوا أنفسهم ـ وزكاهم أعداء الإسلام، بما نعتوا ـ بأنهم علماء باحثون والواقع أنهم أبعد الناس، عن البحث الجاد، وعن الاتصاف بالعلم.

النموذج الثاني: مأخوذ مما ذهب إليه الدكتور محمد رشاد خليفة، جاء في كتاب: (مجمع البيان الحديث) لصاحبه: سميح عاطف الزين.

تحت عنوان: «الاعجاز اللفظي والعددي والحسابي في القرآن الكريم» ما يلي: منذ القرون الأولى للهجرة والمسلمون دائبون على دراسة ألفاظ القرآن الكريم منهم من تفرغ لمعاني ألفاظه، ومنهم من تفرغ لعدد آياته، وعدد كلماته وحروفه، وعلى امتداد العصور امتد هذا البحث، وانتشر أمره وخاصة في عصرنا هذا، عصر الأرقام والعد والإحصاء، وقامت دراسات على الاعجاز العددي للقرآن الكريم في مختلف نواحيه.

بعد هذا التمهيد السليم الذي يطمئن إليه القارىء، أو السامع، ويتشوق إلى ما بعده قال:

إليكم ما قدمه الدكتور محمد رشاد خليفة في محاضرة ألقاها في الولايات المتحدة ومما قاله إن الزّمن الذي نحياه هو زمن مادي ويشاء الله أن تنكشف بالقرآن الكريم معجزات مادية ملموسة، ونحن الليلة في هذه القاعة سوف نشهد معجزة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الخالدة المستمرة، سوف نشهدها بطريقة مادية ملموسة تماماً كما شهد بنو إسرائيل والسحرة وفرعون معجزات موسى (ع) وتماماً كما شهد الحواريون معجزات عيسى عليه السلام.

هذه المعجزات المادية القرآنية تكمن في الآية القرآنية الأولى: بسم الله الرحمن الرحيم، فأنت إذا اعددت حروف هذه الآية لوجدتها تسعة عشر، هذه حقيقة مادية ملموسة لا يستطيع أحد أن يجادلك فيها، إنها ليست تفسيراً، وليست تخميناً أو استنتاجاً. فقد اكتشف أن كل كلمة في هذه الآية تتكرر في القرآن الكريم كله عدداً من المرات هو دائماً من مكررات الرقم تسعة عشر.

الآية القرآنية الأولى بسم الله الرحمن الرحيم تتكون من تسعة عشر حرفاً، وكل كلمة تتكرر في المصحف الشريف كله عدداً من المرات دائماً من مكررات الرقم تسعة عشر.

فكلمة «اسم» تتكرر في المصحف تسع عشرة مرة بالضبط، لفظ الجلالة «الله» تتكرر في القرآن الكريم كله (2698) مرة (142 × 19). كلمة «الرحمن» تتكرر في المصحف الشريف كله 57 مرة = 3 أضعاف الرقم تسعة عشر.

وكلمة «الرحيم» تتكرر/ 114/ مرة = ستة أضعاف الرقم / 19/.

هذه كما ترون حقائق مادية ملموسة لا تقبل الجدل[1].

وهنا، دون أن نجادله ـ كما رغب ـ ومن غير أن نحقق معه تحقيقاً يطول ويتشعب فلا بدّ من توجيه الأسئلة التالية، لنبين له، أنه من خطواته الأولى حاد عن طريق البحث العلمي المدقق وعن طريق التأويل السليم.

ماذا يقصد بقوله: الآية القرآنية الأولى؟.

هل قصد الأولى نزولاً، وهذا غير صحيح. أم الأولى من حيث افتتاح السور وهي من حيث الافتتاح ليست بآية، أم الأولى في سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب وفاتحته، وهذا غير متفق عليه، وعدم الاتفاق ينفي كونها آية من

---

(1) كتاب مجمع البيان الحديث: تفسير مفردات الفاظ القرآن الكريم لمؤلفه: سميح عاطف الزين نشر: دار الكتاب اللبناني ـ دار الكتاب المصري الطبعة الأولىٰ سنة 1980 ص 33 - 34.

الفاتحة. والمتفق عليه، هو أن (البسملة) لفظ قرآني وهو جزء من آية وهي قوله تعالىٰ: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾[1] وبهذا فقوله: إنها الآية القرآنية الأولى ليس من الأقوال المدققة التي تمثل البحث العلمي.

وأيضاً ماذا يقصد بقوله: تتكون من تسعة عشر حرفاً؟.

هل قصد حروفها نطقاً، أم حروفها كتابة ورسماً، خصوصاً وهو يدّعي أن نتائجه مقامة على الضبط في الأرقام، فكان عليه أن يوضح الذي يريد بالضبط. وإلا كانت أرقامه غير مضبوطة.

وكذلك في ضبطه لرقم لفظ اسم الجلالة «الله» الوارد في القرآن ـ حسب إحصائه ـ بأنه (2698) مرة ولرقم لفظ «الرحيم» بأنه (114) مرة، غير مدقق، رغم استشهاده بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن، وبما قام به كثير من العلماء الأفاضل ـ حسب تعبيره ـ الذي أراد به التأثير على سامعيه حتى لا يطلبوا منه مزيداً من التثبت في تحديد الرقم.

وبتحديده هذا الذي تعمّد فيه عدم الضبط، يتم له ما أراد أن يصل إليه من حمل سامعيه على أن يعتقدوا اطراد رقم تسعة عشر في كثير من السور بالعدد نفسه، أو بمضاعفاته، أو بقسمته على أعداد أخرى. ومن أن كلمات «البسملة» ذات الحروف التسعة عشر والتي هي: (بسم) ـ (الله) ـ (الرحمن) ـ (الرحيم) ـ تعود إليه بواسطة مضاعفاته، أو قسمة العدد إليه.

ولكن رقم لفظ اسم «الجلالة» في القرآن الكريم بالرجوع إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن[2] نجده (2697) بنقص عدد واحد عما ضبط ولفظ «الرحيم» نجد رقمه (115) بزيادة عدد واحد عما ضبط.

---

(1) سورة النمل آية 30.

(2) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمؤلفه: محمد فؤاد عبد الباقي وهداية الرحمن لألفاظ وآيات القرآن لمؤلفه: د. محمد صالح البنداق.

فلماذا زاد في رقم لفظ «الله» عدداً، ونقص في لفظ «الرحيم» عدداً؟ أليس ذلك لأن عدد الزيادة والنقص يفسد عليه ما أراد أن يصل إليه بواسطة اللعب بالأرقام؟.

ما غايته وهدفه من اللعب بالأرقام، ليصل إلى جعل المعجزة المادية للقرآن الكريم تبرز بروزاً جلياً ـ حسب اعتقاده ـ من خلال الرقم (19) وأنها في مستوى المعجزات المادية لموسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ :؟

وقبل توضيح هدفه وغايته من ذلك، لا بدّ من وقفة قصيرة معه، لنتبيّن هل كانت مقارنته بين المعجزة المادية لموسى وعيسى، والمعجزة المادية المستنتجة من الرقم (19) تمثل الدقة في الملاحظة، والمنهج العلمي في البحث؟.

إن المعجزة المادية، الغاية منها، هي أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يؤيد بها رسله لدى أقوامهم المعاندين ليشاهدوا منها ما عسى أن يخرجهم من عنادهم، ويقودهم إلى الإيمان برسلهم وبما جاءوهم به من هداية وتشريع، وإلا عرّضوا أنفسهم لغضب الله، وعقابه الشديد، جزاء عنادهم وتمسكهم بالباطل.

قال الله تعالىٰ: ﴿**إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربّك أن ينزّل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين* قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين* قال عيسى ابن مريم اللهم ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقين* قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين***﴾[1].

وبهذا فالمعجزة المادية التي أيّد الله بها رسله قبل سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ انتهت بانتهاء مشاهدتها، وبقي المسلمون يؤمنون بها، وهي عنصر من عناصر عقيدتهم، لاخبار القرآن الكريم بها.

---

(1) سورة المائدة آيات 112 - 115.

والمعجزة التي أرادها الله فأعطاها لنبيه محمد ﷺ بواسطة القرآن الكريم، أعظم وأسمى وأروع من المعجزات المادية المنتهية، وهي تبرز من ناحيتين متلازمتين: ناحية مادية غير منتهية بمشاهدتها، وإنما هي دائمة دوام القرآن، وتتمثل في نظمه ونسجه وفي كلماته وحروفه، وفي آياته وسوره، وفيما ورد ضمنها من أعداد بنسبها المتناهية كالآحاد والعشرات والمئات والآلاف، وآلاف الالاف، وبنسبها غير المتناهية المستفادة من مثل قوله تعالىٰ: **﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾**[1].

وقوله: **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبّة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾**[2].

وكلها أعداد لها أسرارها وأبعادها في القرآن، وليس السرّ خاصاً برقم التسعة عشر الى مستوى يكون هو المعجزة الخالدة المستمرة كما ذهب إليه محمد رشاد خليفة.

وناحية معنوية عقلية دائمة ما دامت الحياة، وما دام العقل البشري يطلب العلم والمعرفة وينشد الحق، ويبحث عن الحقيقة. ويتتبع الآيات ليقف على مواطن الحجة، ومعطيات الدليل، ويتمثل ذلك في ايحاءاته وإشاراته، وفي قصصه وأمثاله، وفي حكمه وعبره، وفي انبائه وأخباره، وفي هديه العام، وتشريعه الشامل.

ولمثل هذا الاعجاز الآتي من الناحيتين الممتزجتين لفت ـ عزّ وجلّ ـ نظر عباده فقال: **﴿وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**[3] **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**[4] وقال: **﴿قل**

---

(1) سورة آل عمران آية 37.
(2) سورة البقرة آية 261.
(3) سورة البقرة آية 23.
(4) سورة يونس آية 38.

لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[1] ولمثل هذه الاعجاز ايضاً أثار انتباهنا، ووجّه عقولنا الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام ـ فقال:

«ما من الأنبياء نبيّ الا اعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي اوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2].

وباعتناء محمد رشاد خليفة بالرقم التاسع عشر، واعتباره ـ حسب رأيه ـ هو المعجزة المادية للقرآن التي تساوي معجزات موسى وعيسى عليهما السلام، وتأويل عدد من السور وكثير من الآيات وارجاعها الى أسرار هذا الرقم، يتضح انه يخدم ركاب النحلة التي تعظم هذا الرقم وتجعل منه محوراً تدور عليه معطيات نحلتها وتنطلق منه بداية مذهبها.

فالرقم (تسعة عشر) تقدسه النحلة البهائية، وتجعل له في عقيدتها أهمية خاصة. فخدمة النحلة البهائية وترويج مبادئها الضالة، هي الغاية والهدف من وراء تركيز البحث على هذا الرقم.

قال الدكتور عبد الصبور مرزوق: ان رشاد خليفة ليس هو مكتشف الرقم (19) ولا الذي توصل الى ما زعم بأن أسرار القرآن في هذا الرقم.

فالمسألة ميلادها بعيد قبل ان يولد رشاد خليفة، وقبل ان يتعلم في كليات الزراعة، وقبل ان يهاجر الى الخارج لكي تتلقفه الأفكار البهائية التي تقدر الرقم (19) وتجعل له في عقيدتها أهمية خاصة.

والسنة عند البهائيين 19 شهراً تبدأ من شهر الهلال وتنتهي بشهر العلاء، بينما القرآن يقول للمسلمين **﴿إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب**

---

(1) سورة الاسراء آية 88.

(2) فتح الباري ج 9 ص 3.

الله﴾[1] والشهر عند البهائيين 19 يوماً، ومدة أيام السنة 361 يوماً.

ولما كانت السنة الفلكية الشمسية تتراوح بين 365 و 366 يوماً فهذه الأيام الفرق يسمونها أيام «الالهاء» تلك التي يقضونها مستبيحين فيها كل شيء.

ويضيف الدكتور فيقول: ولعل رشاد خليفة أن يكون على علم بسرّ هذا الرقم الخطير، وما وراءه من معان ومعالم الزيغ عن عقيدة الإسلام، فمعروف أن المرزا علي محمد الملقب بـ (الباب) كان صاحب السر في الرقم 19 والذي يقول: ان اتباع (الباب) اجتمعوا حوله وكانوا 18 شخصاً لهم اسماء بعدد حروف لفظ «حي» وبالطريقة الحسابية المسماة: حساب الجمل، فإن كلمة «حي» تساوي 18 .

فالحاء = 8، والياء = 10 ويكملها الملا حسين البشروئي نسبة الى مدينة بشرويه. وفي كتاب (الملل والنحل) لـ(الشهرستاني) ان هذا الملا المشار اليه هو أول من آمن بالباب، ولذلك كافأه بأن ضمه على رأس ثمانية عشر سابقين فاكتمل به عددهم الى 19 .

وبصرف النظر عن المناقشات العلمية، ولو افترضنا جدلاً ان ما ذهب إليه صحيح، فما أهمية ان يدور القرآن حول الرقم 19 أو لا يدور، ما قيمة ذلك وما أهمية هذا الاختراع في فهم القرآن، أو عدم فهمه إلا إذا كان المقصود خدمة المبادىء الأساسية لهذه الفرق الضالة[2].

وفعلاً ان ما قام به رشاد خليفة ما هو إلا دعوة بهائية يقصد بها التشويش على المسلمين ووراءها تقف الصهيونية العالمية التي تبغي تقسيم المسلمين، وتفريق كلمتهم. ومن هذا التشويش ما ذهب اليه بواسطة التأويل المعتمد على

---

(1) سورة التوبة آية 36.

(2) المسلمون، السنة الأولىٰ، العدد التاسع السبت 16 رجب 1405هـ/ 6 افريل 1985م ص 9 واد 2 و 3.

الرقم 19 من تحديد قيام الساعة، وانتهاء العالم، حيث ذهب الى ان الساعة تأتي سنة 1709 هـ/ 2280 م فقال:

ان الساعة تأتي بعد ان يستكمل عمر الرسالة المحمدية عدداً من السنين يساوي السبع المثاني، ولما كان محمد عليه السلام هو خاتم النبيين، فإن نهاية الرسالة المحمدية بالضبط نهاية هذا العالم.

ويضيف فيقول: وقد شاء الله سبحانه وتعالىٰ ان يكشف هذه الحقائق بدء عام 1400 الهجري، أي قبل النهاية بعدد من الأعوام قد تمّ ذكره في القرآن وهو العدد (309) اذ ان الفرق بين عام 1400 الهجري وعام 1709 يساوي 309 وهذا الرقم نجده في سورة الكهف متعلقاً بموعد الساعة موعد نهاية العالم فهو رقم قرآني ﴿**ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً**﴾[1] وتكشف الآية عن مولد نهاية العالم وانه سيكون قبل النهاية بثلاثمائة سنين شمسية أو 309 سنين قمرية.

والعام الهجري 1400 عام الاكتشاف يوافق العام الميلادي 1980 وهذا الرقم أيضاً من مضاعفات الرقم 19.

والظاهر من الحسابات انه بمجرد استكمال السنوات 1709 عمر الرسالة المحمدية فإن شهر محرم عام 1710 يوافق شهر ابريل (نيسان) عام 2280. .

يقول الدكتور الطيب النجار اجابة على هذه المزاعم وتحديد موعد الساعة: نحن نقول له: من أين جاء لك هذا؟ هل قال الله ستقوم الساعة بعد السبع المثاني؟ ولماذا اقتصر على السبع المثاني، وترك ما بعدها وهو قوله تعالىٰ ﴿**والقرآن العظيم**﴾[2].

---

(1) سورة الكهف آية 25.

(2) المسلمون نفس السنة والعدد والتاريخ واد 5. (والقرآن العظيم) تمام آية وهي قوله تعالىٰ: ﴿**ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم**﴾ الحجر آية 87.

ـ هذا التلاعب بالأرقام، وهذا الالتواء في التأويل، الذي لا يقبله العقل الواعي الرشيد، ولا يصادق عليه النقل المقدس الموثوق به. لا يمثل في واقع الأمر. الا السخافة في القول والضلال في التفكير، والهذيان في الاستنتاج.

سخافة وضلال وهذيان، من ورائها نحلة ضالة ملحدة تحارب الإسلام وتعمل جاهدة للتشويش على المسلمين، ولتقسيمهم وتفريق كلمتهم.

وتغطية ذلك ليقع الناس في شركها، ببحوث منهجية مغشوشة، تغري البسطاء الذين ما زالوا يتلمسون طريقهم، وباستنتاجات خداعة ملتوية، ظاهرها الأسلوب العلمي، وباطنها الفراغ والضياع، وإرادة اطفاء نور الإيمان من القلوب ﴿**ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾[1].

وقد غاب عن أصحاب هذه النحلة ان ما في عملهم من سخافة وهذيان، ومن ضلال وإلحاد يعرضهم للسخرية والتهكم، اكثر مما يمس بالمسلمين ولا ينال من الإسلام في شيء. وذلك لأن اسلوبهم في التأويل لا يغيب انحرافه عن طريق الحق. ولا يخفى انحداره الى مهاوي الزيغ والضلال، حتى عن بسطاء الناس الذين ينير قلوبهم الإيمان، فما بالك بالمتنورين منهم، اللهم الا الذين رضوا لأنفسهم التبعية المهينة، فغفلوا عن الحق ونسوا ربهم فأنساهم أنفسهم وكانوا من الخاسرين.

وأما العلماء المؤمنون العارفون بمناهج التأويل، المؤدية الى معرفة الحقيقة ليرتاحوا لبرد يقينها، وإلى إدراك الحقّ لتوجيه الناس اليه والعمل به، يعينهم على ذلك ويؤيدهم، القرآن الكريم الذي لم يترك أمر ما جاء به من هدي وتشريع لهوى الناس، كما لم يترك بيان أبعاد معانيه. وما يريده للناس من تربية وتعليم ومن هداية وتوجيه. لتأويلات أصحاب الفرق الضالة، ودعاة النحل الملحدة. فقد جاهد أولئك العلماء ويجاهدون من أجل صيانة العقيدة الإسلامية

(1) سورة التوبة آية 32.

وحماية الدين، ووقفوا ويقفون بالمرصاد لهؤلاء وأتباعهم لفضحهم وكشف أمرهم للناس، فأبانوا إفك تأويلهم، وضلال نحلتهم التي اتخذت التأويل مركباً لترويج ضلالها وشبهاتها المحاربة للدين الحقّ بين الناس.

ومن شبهات دعاتها أنهم أرادوا بواسطة تفسيرهم الخاطىء وتأويلهم الذي يمثل الإفك والضلال، أن يستمدوا من النصوص القرآنية سرّ رقم (19) الذي يقدسونه والموعد الحقيقي ـ حسب استنتاجهم ـ لقيام الساعة.

وبهذا يصلون الى التشكيك فيما هو يقيني من أنباء القرآن وأخباره.

وهنا يتصدى لهم العلماء ويوقفونهم أمام ميزان القرآن، الذي يريدون استخدام نصوصه لهواهم الآثم، وشهواتهم الضالة.

فالقرآن لم يترك الباب مفتوحاً لأمثالهم، فأبان للناس جميعاً ان الموعد الحقيقي لقيام الساعة لا يعلمه الا الله، ولم يطلع عليه احداً من خلقه، حتى خاتم الأنبياء والمرسلين. فقال ـ عزّ وجلّ ـ يخاطب نبيّه الأكرم: ﴿**يسألونك عن الساعة أيّان مرساها قل إنما علمها عند ربّي لا يجلّيها لوقتها الا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفيّ عنها قل انما علمها عند الله ولكّن اكثر الناس لا يعلمون***﴾[1].

وقال: ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها* فيم انت من ذكراها* الى ربّك منتهاها***﴾[2].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يجيب جبريل ـ عليه السلام ـ عندما سأله عن الساعة: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[3].

---

(1) سورة الأعراف آية 187. (2) سورة النازعات آية 42.

(3) فقرة من حديث صحيح متفق عليه اخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ. وفي تفسير سورة لقمان، وأخرجه مسلم تحت رقم 8 في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

فإذا كان رسل الله ومن بينهم خاتمهم محمّد ﷺ وملائكته ومن بينهم جبريل ـ عليه السلام ـ لا يعلمون موعد قيام الساعة، فهل يقبل اليوم، من النحلة الضالة، من يأتي منهم فيقول:

ان الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ كشف له ولأمثاله في القرن الرابع عشر الهجري السّرّ عن موعد قيام الساعة، بواسطة آيات قرآنية، تقود تأويلا وتلاعباً بالأرقام ـ الى سرّ الرقم (19) الذي تقدسه النحلة الضالة.

وغير خاف ان هذا منهم، تشكيك للناس فيما هو يقيني من كتاب الله، الذي لا ريب فيه و﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾[1] والذي حفظه الله من كيد الكائدين ومن مكر الماكرين فقال: ﴿**إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون**﴾[2].

وغاية ما يحققه هؤلاء انهم يسخرون بأنفسهم وبأنفس الذين يستجيبون لهواهم ويتّبعون نحلتهم الضالة.

ومما يزيد في السخرية بهم، وفي الاستخفاف بما يصنعون ويروجون انهم لم يأتوا بالجديد فبطريقتهم في التأويل، وباعتمادهم على التلاعب بالأرقام إنما يسلكون لعبة الأرقام واستعمال الطريقة الحسابية المسماة: حساب الجمل، التي سلكها اليهود من قبل، زمن الرسول ﷺ قصد التشويش على الإسلام، وعلى المسلمين عندما عجزوا عن الانتصار عليهم في ساحة الوغى، أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره فقال:

حدّثنا به محمد بن حميد الرازي قال حدثنا سلمة بن الفضل، قال حدثني محمد بن اسحاق، قال حدّثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، عن جابر ابن عبد الله بن رباب، قال: مرّ أبو ياسر بن أخطب برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة، ﴿**الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه**﴾، فأتى أخاه حييّ بن أخطب

(1) سورة فصلت آية 42.

(2) سورة الحجر آية 9.

في رجال من يهود، فقال: تعلمون والله، لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ عليه ﴿الٓمٓ، ذلك الكتاب﴾ فقالوا: انت سمعته؟ قال نعم، قال فمشى حييّ بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، ألم يذكر لنا انك تتلو فيما أنزل الله عليك ﴿الٓمٓ، ذلك الكتاب﴾؟ فقال رسول الله ﷺ بلى، فقالوا: اجاءك بهذا جبريل من عند الله؟ قال: نعم، قالوا: لقد بعث الله جلّ ثناؤه ـ قبلك انبياء ما نعلمه بيّن لنبيّ منهم ما مدة ملكه، وما أجل أمته غيرك، فقال حييّ بن أخطب، وأقبل على من كان معه، فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه احدى وسبعون سنة، قال، فقال لهم: أتدخلون في دين نبيّ انما مدة ملكه، وأجل أمته احدى وسبعون سنة؟ قال ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: ماذا؟ قال: (المص) قال: هذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه مائة واحدى وستون سنة، هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال نعم، قال ماذا؟ قال (ألر)، قال هذا اثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه احدى وثلاثون ومائتا سنة. فقال: هل مع هذا غيره يا محمد؟ قال: نعم (المر) قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه احدى وسبعون ومائتا سنة، ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمّد حتى ما ندري أقليلاً اعطيت أم كثيراً، ثم قاموا عنه. فقال أبو ياسر لأخيه حييّ بن أخطب ولمن معه من الأحبار: ما يدريكم لعلّه قد جمع هذا كله لمحمد، احدى وسبعون واحدى وستون ومائة، ومائتان واحدى وثلاثون، ومائتان واحدى وسبعون، فذلك سبعمائة سنة وأربع وثلاثون، فقالوا: لقد تشابه علينا أمره[1].

وعندما نضيف إلى هذا ما ذكره سميح عاطف الزين في كتابه:

(مجمع البيان الحديث) تحت عنوان: الرقم (19) هو الرقم الذهبي.

(1) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير مج 1 ص 71 - 72.

قال: (اطلقت هذه التسمية على هذا الرقم منذ القرن الخامس قبل الميلاد «دائرة المعارف الفرنسية ـ دورة ماتون».

تبيّن بعد البحث والاستقصاء ان الأقدمين قد اكتشفوا بعض الجوانب المتعلقة بالرقم (19) الذي ورد ذكره في القرآن الكريم.

فقد جاء في دائرة المعارف الفرنسية العالمية عن دورة «ماتون» أو الدوران الاقتراني للشمس والقمر، ما معناه ان الدوران الاقتراني هو الفاصل الزمني بين مرحلتين متتاليتين: ومتوسط مقدار هذا الدوران:

29 يوماً و12 ساعة و44 دقيقة و8، 2 ثانية، وهو مقدار الشهر القمري.

العلاقة الجديرة بالاهتمام: ان ما يساويه 235 شهراً قمرياً بالأيام هو 19 سنة شمسية لأن 235 شهراً قمرياً تساوي 6939.69 يوماً أو 19 سنة شمسية. وكل سنة شمسية تساوي 365 يوماً وربع اليوم، فيكون مجموع أيام 19 سنة شمسية 6939.69 يوماً. وهو المقدار نفسه. وهذا ما يطلق عليه اسم «دورة ماتون».

فاكتمال الدوران الاقتراني لكل من الشمس والقمر يستغرق 19 سنة بحيث تكون المدة اللازمة لاقتران الشمس والقمر في المكان نفسه هي 19 سنة.

ثم قال: وجاء في القاموس «لاروس» ما يلي:

يكمل القمر دوراته إلى نقطة انطلاقه في فترة زمنية محددة بتسعة عشر سنة شمسية (أي أن ملايين الدورات التي اكملها القمر منذ بدء الخليقة حتى اليوم استغرق كل منها 19 skn[1].

فرغم ما في هذه الأقوال من تدقيقات افتراضية، قد تكون صحيحة علمياً، وقد لا تكون، ومن حسابات فلكية، قد تكون مسلمة في ضبطها وقد لا تكون، لأن الحكم بصحة الافتراضات ثم التسليم بمعطياتها، يتطلب كثيراً من

(1) كتاب «مجمع البيان الحديث» ص 54 - 55.

التعمق، ومن سعة المعرفة، ومن طول البحث، ومن عناء الاستنباط والاستنتاج بعد البرهنة والاستدلال.

ورغم ما في هذه التدقيقات، والحسابات من معطيات قد تحصل منها فوائد علمية، إذا ما أزاحت عنها حجب الاحترازات، فإن المحور الذي دارت عليه وهو الرقم (19) يدل على أن صدى هذا الرقم والتنويه به، قديم عند اليهود منذ قرون عديدة، وعند النصارى من بعدهم، ومعهم، ثم اليوم عند أولئك الذين يحاربون الإسلام، على أنه دين الله الى الناس كافة.

ولهذا فالذي يقول: ان وراء هذا الرقم والتلاعب به، الصهيونية العالمية. لا يتهم بالتحامل أو بالخروج عن البحث العلمي المدقق.

لأنه لا يهتم بهذا العدد، وبما يثيره من شبهات بواسطة تأويل عدد من آيات القرآن، والرجوع بمعطياتها بعد التأويل إليه بأسلوب يؤدي إلى التشكيك في يقين أنباء القرآن وأخباره، وجعل بعضه يناقض بعضاً الا الصهيونية العالمية، ومن يجري وراءها لاهثاً من أصحاب النحل الضالة والملاحدة.

وبهذين النموذجين، أكون قد برهنت بعض الشيء، عما أردت أن أثبته ـ تمهيداً لما سأذكره مفصلاً في الفصول الآتية ـ من أن غاية المغالين في التأويل، وهدفهم من غلوهم هو خدمة مذاهبهم الهدّامة، وترويج نحلهم الضالة، ولو أدى بهم ذلك إلى الاستخفاف بالعقل الإنساني، وامتهانهم له.

فهرس المواضيع

مقدمة: 29-5

الباب الأول: 31

«التأويل في إطاره الإسلامي من حيث مفهومه المطلق ـ لغة واصطلاحاً ـ ومن حيث دوافعه وأبعاده وشروطه ومن حيث الغلاة والمعتدلون فيه وما كان لهم من عطاء»

الفصل الأول:

«التأويل من حيث مفهومه المطلق ـ لغة واصطلاحاً» 140-33

التأويل لغة 38-33

التأويل اصطلاحاً 39

التأويل في عرف المتأخرين 39

التأويل في لفظ السلف 40-29

ما قاله الألوسي في التأويل 41-40

ما قاله الطباطبائي 44-42

التأويل في إطاره الإسلامي حسب العقل والنقل 44-42

التأويل عند علماء الكلام 45-44

التأويل عند علماء أصول الفقه 45

obeikandl.com

التأويل عند الفقهاء 45
التأويل عند الصوفية 46
التأويل عند الفلاسفة الإسلاميين 47-46
التأويل عند الباطنية 48-47
التأويل عند المفسرين بصفة عامة 49-48
عرض رأي لبعض مدرسي الفلسفة ومناقشته 54-49
ما ذهب إليه الغزالي وديكارت في هذا المجال 51-50
مقولة سقراط وما يستفاد منها 51
شكّ الغزالي وإلى أين وصل به 53-51
عرض رأي لباحث ملحد ونقده 76-54
تحامله على التراث العربي الإسلامي القديم 57-54
إبطال ادعائه وبيان زيف آرائه 59-57
إبداء رأيه في اللغة البديل ونقده 72-60
نوع التأويل الذي يدعو إليه وغايته منه 74-72
بيان كيف يقوده الهوى وتدفعه الشهوات 76-74

الفصل الثاني:
«دوافع التأويل وغاياته ـ ضوابطه وشروطه» 140-77

دوافع التأويل وغاياته: 129-77
للتأويل دافعان أساسيان: 77

الدافع الأول: 97-77
منابعه 79-78
أمثلة منه 97-79
نموذج أول لابن جرير 83-79
نموذج ثان للفخر الرازي 87-83
نموذج ثالث لابن قتيبة 97-87

الدافع الثاني: 129-97
الغاية منه 97
التأويل المتولـد عنه غير مقبول في العقل والنقل 98
عرض ما قاله ابن قيم الجوزية حوله 100-98
نماذج من التأويل المتولد عنه 144-101
ـ نموذج أول من تأويلات الخوارج ونقده 105-101
ـ نموذج ثان من تأويلات الشيعة ونقده 110-105
ـ نموذج ثالث من تأويلات الفلاسفة ونقده 114-110
مسلك أصحاب كل من الدافعين 114-92
مسلك أصحاب الدافع الأول 114
مسلك أصحاب الدافع الثاني 115-114
التوجيه النبوي في هذا المجال 116-115
بيان السبل التي سلكها المتأولون الضالون 116
نتائج التأويل الحائد عن طريق الحق 119-116
عرض مثال لابن رشد يوضح ناحيتي الجدوى والنجاعة 121-119
بيان ما جاء فيه من إشارات رائعة 123-121
توضيح ما فيه من مآخذ 129-123
ضوابط التأويل وشروطه: 140-129
ما قاله ابن رشد حول قانون التأويل 133-129
ضوابط التأويل 134-133
شروطه 136-134
ذكر ما قاله السيوطي حول الشروط 138-136
أنواع التأويل 139-138
التحذير من الأنواع الباطلة 139
ذكر أقسام علوم القرآن 140
الفصل الثالث:
«أبعاد التأويل وآفاقه ومدى استجابتها للميزان القرآني» 218-141

obeikandl.com

أبعاد التأويل وآفاقه 207-141
التأويل بمعنى التفسير والبيان القريب منه والبعيد هو
موضوع السنة النبوية 144-142
التأويل والأحكام الشرعية حوله 145
المدارس التي تولدت عنه: 164-145
ـ مدرسة الرسول عليه الصلاة والسلام 145
بيانه وتأويله (ص) أساس ومنطلق بكل المدارس والمذاهب 146-145
أخذ الصحابة عنه كيفية التأويل القريب والبعيد 146
أمثلة من قسمي التأويل القريب والبعيد 150-146
ـ مدرسة الصحابة 155-150
أمثلة من تأويلات عمر ـ رضي الله عنه ـ 153-150
شدة عمر ـ رض ـ على المتأولين من أجل الفتنة 155-153
ـ مدارس التابعين: 164-155
مدرسة المدينة المنورة 158-156
مدرسة مكة المكرمة 160-158
مدرسة الكوفة 163-160
مدرسة البصرة 164-163
مدرسة الشام 166-164
مدرسة مصر 168-166
مدرسة اليمن 169-168
مدرسة بغداد 172-169
مدرسة خراسان 173-172
مدرسة القيروان 176-174
ـ المذاهب المتولدة عن هذه المدارس 195-176
مذهب الإمام مالك 189-177
ـ التعريف بالإمام 178-177
ـ من أشهر أصحابه: ..... 180 -178
بالمدينة المنورة 179-178

openkandil.com

بمصر: 179-181
بالقيروان وتونس: 181-186
بالأندلس: 186-189
مذهب الإمام الشافعي 186-190
ـ التعريف بالإمام 190-192
ـ من أشهر أصحابه 192-194
مذهب الإمام أبي حنيفة 194-196
ـ التعريف بالإمام 194- 195
ـ من أشهر أصحابه 195-196
مذهب الإمام أحمد بن حنبل 197-198
ـ من أشهر أصحابه 197-198
المذهب الظاهري 198-200
ـ التعريف بإمام المذهب 198
ـ من أشهر أصحابه 198-200
بيان استمرارية اعتماد هذه المدرسة الكبرى في مجال التأويل 200-201
أنواع الأحكام المستمدة من الكتاب والسنة 201
بيان عمل العلماء في مجال هذه الأنواع 201-206
بيان أن أحكام القرآن على نوعين 206-207
الميزان القرآني الذي به نبيّن متى يكون المتأول في طريق الحق
ومتى يكون منحدر إلى هوة الباطل 207-211
عمل الفقهاء المبرأ من التعصب في كفّة الحق
من الميزان 211-214
ما حقّقه الأئمة بواسطة مدرستهم الفقهية 214-215
مراحل تلقي العلم والمعرفة حسب هدي القرآن والسنّة 215-217
الفصل الرابع:
«الغلاة والمعتدلون ـ مقياس الاعتدال والغلوّ» 219-308
للوجود عالمان: عالم المشاهدة وعالم الغيب 219

الردّ إلى الله والرسول هو القياس 220
المعرفة في مفهومها العام وتحديد طرقها 220
واقع الوجود يفرض عدم حصر المعرفة في طريق واحد 222-221
بيان المنابع التي تنفجر منها المعرفة 222
توضيح حجم المحدود أمام اللامحدود 243-223
ـ من القرآن 224-223
ـ من السنّة 225-223
ـ من أقوال العلماء والفلاسفة 234-225
من هم المغالون ومن هم المعتدلون 235-234
بيان مقياس الاعتدال والغلو 236-235
موضوع القرآن وأهدافه وما استنتج العلماء من ذلك 236
جدوى من تعامل مع القرآن في إطاره وأبعاده،
وابتذال من تعامل معه خارج ذلك 237-236
بيان ذلك من تعامل الفريقين مع القصص القرآني 237
بيان أن القصة القرآنية لا تقاس بأقيسة الناس
ولا تعيّر بمعاييرهم 238
القصة القرآنية لا ينبغي إدخالها في أي قسم
من أقسام الفن القصصي 241-239
ذكر نموذجين يبينان متى يكون التأويل في مجال القصة القرآنية
يمثل الاعتدال ومتى يكون يمثل الغلو 308-241
النموذج الأول الذي يمثل الاعتدال 260-241
النموذج الثاني الذي يمثل الغلوّ 264-260
نقد ما جاء في نموذج الغلوّ 272-265
بيان أن السند الذي اعتمد عليه موضوع ومفترى 285-272
القرآن هو الكتاب المهيمن على سائر الكتب 290-285
محاربة الإسلام من أعدائه وإثارتهم الشبهات حول القرآن 291-290
موقف القرآن منهم وفضحه لهم 293-292

افتتان (خلف الله) بعلماء الغرب ومحاولته إخضاع القصة
القرآنية لمقاييسهم 293-294
تحامله على علماء المسلمين 294-295
بيان ما في نقوله من مغالطة وتحريف 295-307
فضح الغاية التي عمل لها 307-308
الفصل الخامس:
«عطاء المعتدلين وما فيه من إثراء للفكر الإسلامي، ومن إفادة للفكر الإنساني العام، وأهداف المغالين وغايتهم، وما في غلوّهم من استخفاف بالفكر وامتهان للإنسان» 309-507
الخدمة العظيمة الجادة التي قام بها العلماء المسلمون 309-315
بيان الأبعاد التي أدركها العلماء الراسخون في العلم 315-507
توضيح أمرين حققهما العلماء 315
عطاء المعتدلين يشمل كل الميادين: 315-576
في مجال العقيدة: 315-403
ـ ذكر قولين:
الأول لابن خلدون، والثاني للشهرستاني 316
أخرج علماء الإسلام بعطائهم الشامل في هذا المجال الناس
من متاهات الفلسفة 317
بأسلوبهم العلمي، وبمنهجهم الفلسفي عرّفوا الجميع بربّهم
الواحد الأحد 317-318
في عطائهم أوضحوا وأقاموا الأدلّة المنطقية،
والبراهين اليقينية على: 318-322
ـ العالم المسمى بالكون وعلاقته بالله.
ـ مقولات الفلاسفة في مجال العقيدة ما هي إلاّ ضلالات وشبهات.
ـ الحوادث كلّها لا بدّ لها من محدث وصانع.
ـ ذات الله العلية وصفاته الأزلية.
بيان ما أجمع عليه علماء السنة هو الحق 322-325

اللغة في حديثها عن الله ـ تعالى ـ غيرها في حديثها
عن الخلق 325-369
ذكر الصفات حسب منهج أهل السنة 326-332
عرض نماذج من أدلة وحجج المعتدلين 332-398
ـ نموذج أول من حجّة الإسلام الغزالي 333-335
ـ نموذج ثان من الفيلسوف ابن رشد 335-338
بيان ضحالة النقد الذي وجهه بعض دارسي الفلسفة
لابن رشد 338-340
ـ نموذج ثالث من المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون 340-341
الطرق التي سلكها ابن خلدون في إقامة البرهان العقلي
على التوحيد 341-344
ـ نموذج رابع من الشهيد حسن البنا 344-346
ملاحظات خاتمة للنموذج 346-348
ذكر جملة من الآيات توضح النواميس التي بها وعليها
يسير الكون وتوضح علاقته بالله 348-350
في مجال الفقه والتشريع: (أعطى المعتدلون عطاء لا يجد الناس مثله
في الاتساع والإحاطة والشمول) 350-562
تكونت من عطائهم هذا اتجاهات مختلفة ومدارس شتّى ومذاهب عديدة
منها الفردية ومنها الجماعية 350
ذكر المذاهب الفردية التي بقيت فتاوى أصحابها تعطي عطائها
المثمر وتنفع الناس 350-351
اتساع المعتدلين نبع من اتساع المصادر التي استندوا عليها 351
ذكر المصادر وبيان اتساعها: 351-352
ـ القرآن ومدى اتساعه وإحاطته وشموله 352-362
ـ السنة ومدى اتساعها وإحاطتها ومدى شمولها 362-373
ـ الإجماع والقياس وما يستفاد منهما من سعة وإحاطة وشمول: 373
المراد بالإجماع حسب اصطلاح الأصوليين وبيان أركانه 373

هل في الإمكان انعقاده؟ 376-373
حجيته واعتباره المصدر الثالث 378-376
ـ القياس حسب اصطلاح الأصوليين واعتباره المصدر الرابع 380-378
عطاء المعتدلين في مجال العبادات 390-380
من مجال العبادات ومن الدعائم الأساسية في الإسلام (الجهاد)
(معنى الجهاد ـ أقسامه ـ أحكامه ـ هدفه ودوافعه) 397-390
عطاء المعتدلين في مجال المعاملات 468-397
إبداء ملاحظات بواسطة طرح أسئلة والإجابة عنها 562-403
الملاحظة الأولى في توضيح منهج الإسلام
في السياسة والحكم 427-404
الملاحظة الثانية في توضيح منهج الإسلام في مجال ما يسمى اليوم
بالأحكام الدولية 446-427
الملاحظة الثالثة في توضيح منهج الإسلام في القضايا المالية
وفي بناء الهيكل الاقتصادي 468-446
عطاء المعتدلين في مجال التفسير والتأويل للقرآن الكريم 479-468
أحاطوا بقضايا الإنسان وشؤونه في مختلف
الميادين والمجالات 479-469
العلماء في استنباط أنواع العلوم والمعارف على فريقين ـ
ذكر أدلّة كل فريق 478-472
ترجيح واختيار رأي الفريق الأول 479-478
أهداف المغالين وغاياتهم 614-479
ذكر نموذجين يوضحان ذلك:
ـ الأول من كتاب (الإسلام وأصول الحكم)
ونقد ما جاء فيه 494-479
ـ الثاني من كتاب (مجمع البيان الحديث)
ونقد ما جاء فيه 507-494